كلاسيكيات كلمات

إيدث وورتن

رباعية نيويورك القديمة

ترجمة:
بثينة الإبراهيم

مكتبة ياسمين

E D I T H   W H A R T O N

تنبأ هنري جيمس لصديقته إيدث وورتن بمكانة مرموقة في الأدب الأمريكي، وقد غدت في غضون عقود قليلة أعلى الروائيين أجرًا في عصرها. كانت أول امرأة تفوز بجائزة البولتزر عام 1920 عن روايتها عصر البراءة، كما كانت أول امرأة تنال الدكتوراه الفخرية من جامعة ييل. أشاد النقاد بقدرة إيدث وورتن على وصف مجتمع أثرياء نيويورك، فهي لم تكن بالدخيلة عليه، بل كانت سليلة عائلة من الطبقة الراقية. تقول في سيرتها الذاتية: "كان المجتمع أمامي، بكل تفاهته وعبثه، يدعونني إلى وصفه لأنه الموضوع الأقرب إلي، إذ ترعرعت في هذا المجتمع منذ طفولتي، ولست بحاجة إلى العودة إلى المذكرات ودوائر المعارف لمعرفته".

في هذه الرباعية، ترصد وورتن التغيرات التي طرأت على مجتمع نيويورك عبر أربعة عقود، وعبر شخصيات لم تنل حظوة ولا تقديرًا، بل وصمها المجتمع بشيء أو بآخر، و"قراءة الرباعية بعدّها كلًا متكاملًا، لا قصصًا متفرقة، يفتح لنا آفاقًا جديدة، ويعمّق فهمنا لمدينة نيويورك كما تراها وورتن".

يضم هذا المجلد الروايات الأربع (الفجر الكاذب- العانس- الشرارة- يوم رأس السنة)، لئلا ينقطع الأثر، ولتتحقق رغبة وورتن في أن يرى القارئ مدينة نيويورك كما رأتها بعينيها.

جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات

Google play

Available on the App Store

lemat

alemat.com

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

رباعية نيويورك القديمة

إيدث وورتِن

ترجمة:

بثينة الإبراهيم

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

2022

kalemat

رباعية نيويورك القديمة
إيدث وورتِن
ترجمة: بثينة الإبراهيم
بريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

ردمك: 978-9921-730-44-9

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفهرس

الفجر الكاذب (الأربعينيات)	9
العانس (الخمسينيات)	91
الشرارة (الستينيات)	201
يوم رأس السنة (السبعينيات)	265

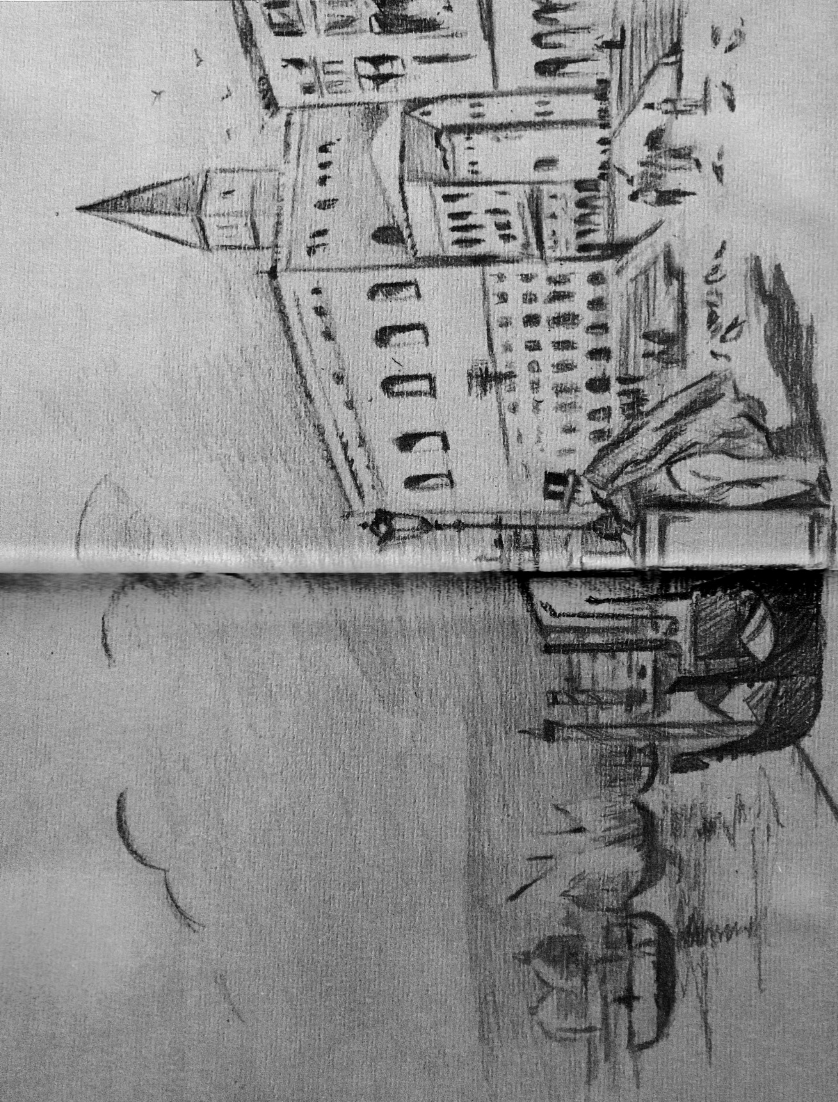

الفجر الكاذب
(الأربعينيات)

القسم الأول

1

عبق نهار يوليو الخادِر بشذى التبن ورعي الحمام والبليحاء العطرية. وطافت ثمار الفراولة الكبيرة وهي تزداد حمرة على عروق النعناع، في وعاء من شراب الكب[1] الأصفر الفاتح على طاولة الشرفة. كان وعاءً جورجيًا قديمًا ذا صور كثيرة على جوانبه المضلّعة، نُقش عليه شعار آل ريسي بين رؤوس آساد. بين الفينة والأخرى، كان السادة يصفعون وجناتهم أو حواجبهم أو رؤوسهم الصلعاء، وقد توعدهم طنين يثير القلق، لكنهم يفعلون ذلك خفية قدر ما استطاعوا، فالسيد هالستن ريسي الذي يجلسون في شرفته، لن يقر بوجود بعوض في هاي پوينت.

قُطفت ثمار الفراولة من حديقة السيد ريسي المنزلية، وقد ورث الوعاء عن جده الكبير (كبير موقّعي وثيقة إعلان الاستقلال). أما الشرفة فهي شرفة بيته الريفي، الواقع على مرتفع فوق الساوند، لا يبعد كثيرًا عن منزلهم في المدينة الكائن في شارع كنال.

«كأس أخرى يا قائد العمارة»، قال السيد ريسي نافضًا منديلًا قطنيًا بحجم مفرش الطاولة ممرّرًا طرفه على حاجبه المتعرق.

ابتسم السيد جيمس لِجلي وشرب كأسًا أخرى. كان يُعرف بين أصحابه بقائد العمارة لأنه خدم في البحرية في شبابه، ولأنه تتلمذ أيام دراسته على يد الأدميرال پورتر في حرب عام 1812.

---

(1) شراب مسكر محلّى وينكّه بمختلف الثمار والأعشاب.

احتفظ هذا العازب المرح الذي لوحته الشمس، ذو الوجه الشبيه بوجوه تماثيل البرونز التي جلبها معه، بعاداته رغم تقاعده من سلك البحرية منذ زمن بعيد. كما أنه ظل يلبس سرواله الأبيض من قماش الدَقّ، ويعتمر قبعته ذات الحواف الذهبية، واحتفظ بأسنانه الذهبية اللامعة، كأنه قائد فرقاطة. غير أنه اكتفى بالإبحار بجمع من صحبه من بيته على شاطئ لونغ آيلند، وكان قاربه الشراعي الأنيق راسيًا في الخليج أسفل الرأس.

أشرف منزل هالستن ريسي على مرج ينحدر إلى الساوند. كان المرج مفخرة السيد ريسي؛ إذ يُجزّ عشبه بمنجل مرة كل أسبوعين، ثم يُنعّم بمدحاةٍ يجرّها حصان أبيض عجوز وُضعت له حدوات لهذا الغرض. حدّ المرجَ أسفل الشرفة ثلاثةُ أحواض من زهور إبرة الراعي ورقيب الشمس وشجيرات الورد، التي اعتنى بها السيد ريسي لابسًا قفازين واقيين، تحت مظلة صغيرة معلقة بمفصلات طويت إلى مقبضها العاجي المنقوش. كان للبيت، الذي رممه وكبّره السيد ريسي لدى زواجه، دورٌ في حرب الاستقلال، إذ كان كوخ المستوطن الذي جعل منه بندكت أرنولد مقره الرئيس. وله صورة حديثة كبيرة معلقة في مكتب السيد ريسي، غير أن أحدًا لم يميز شكل البيت القديم المتواضع، في المبنى الفخم بلون الحجر المبني من ألواح مثلّمة ملسّنة، وله برج مدبب ونوافذ كبيرة ضيقة، وشرفة تحدها أعمدة مشطوفة تضاهي إلى حد بعيد «دارة في توسكانا» في كتاب داوننغ «تزيين المناظر الطبيعية

بالجنائن في أمريكا»[1]. كما أن الفرق يُلحظ في نقوش الطباعة الحجرية المتنافرة في البيت القديم ونقوش الطباعة الفولاذية لخلَفه (إلى جانب شجرة زان متهدلة الأغصان على المرج)، مثلما يتجلى الفرق بين المبنيين. إن السيد ريسي محق في الافتخار بعمارته.

بل إنه كان فخورًا بكل ما يمتّ إليه بروابط الدم أو المصلحة. ولا يسع المرء أن يجزم بأنه أسعد السيدةَ ريسي، ولكن عُرف عنه افتخاره بها. وكذا الحال مع ابنتيه سارا آن وميري آدلين، وهما نسختان فتيتان عن السيدة ريسي فاترة الهمة. وليس للمرء أن يقسم إنهما منسجمتان مع أبيهما الأنيس، غير أن الجميع عرف عنه ثناءه عليهما. إلا أن أكثر ما يلفت النظر في استحسان السيد ريسي ذاته كان ابنه لويس. غير أن المرء يدرك أن لويس لم يكن التحفة التي سيصنعها هالستن، لو تسنى له أمر تشكيل ابنه ووريثه، على حد قول جيمس لِجلي الذي أتيح له الفرصة للإفصاح عما يجول في خاطره.

كان السيد ريسي رجلًا ضخمًا، فطوله يماثل عرضه وضخامته كيفما استدار ومن أي زاوية نظر إليه المرء، وبدا كل إنش من محيط الدائرة الهائل ذاك يحظى بالعناية الفائقة، كأنما تخايل لعين المزارع أنه أرض زراعية حُرث كل أكر منها. كأن صلعه، الذي تماشى مع بقية ملامحه، يلقى تلميعًا يوميًا خاصًا، وفي

---

(1) كاتب ومهندس معماري، يعد مؤسس فن هندسة المناظر الطبيعية. ولعل الكتاب الذي تتحدث عنه الكاتبة هو كتاب «رسالة في النظرية والتطبيق في تزيين المناظر الطبيعية بالجنائن: نسخة معدلة لأمريكا الشمالية»، نشره عام 1841.

يوم صيفي حار بدا مظهره كاملًا مثل أنموذج رائع للسقاية التي تكلف أموالًا طائلة. وكان عرقه غزيرًا يجري على الكثير من السطوح المستوية، ومما يسر العين رؤية كل قناة رطبة تمضي في مسارها الخاص. وعلى يديه الكبيرتين الناعمتين انقسمت القطرات وهي تنساب في مسارات مختلفة في خطوط أصابعه. أما جبينه وصدغاه ووجنتاه العاليتان تحت جفنيه السفليين، فقد كان لكل من هذه المنحدرات مساره الخاص وحوضه الغائر وشلاله السريع، ولم يكن منظره كريهًا قط، إذ كان وجهه الكبير الطلق نظيفًا ورديًا معافى، والرطوبة الناضحة مضمخة دومًا بالكولونيا الفاخرة وأجود أنواع الصابون الفرنسي.

غير أن بنية السيدة ريسي أقل ضخامة، إذ كانت بدينة قليلًا، وحين تلبس أجمل حرائرها اللامعة (من النوع الذي يقف وحده)، وتؤطر قوامها بكشاكش الدانتيلا الفاتحة التي لا تحصى، وقبعتها الباريسية المزينة بحبات العنب البنفسجية، فإنها تماثل زوجها في ضخامته. وأنجب هذان الزوجان المجهزان بالعتاد، كما وصفهما قائد العمارة، لويس النحيل الهزيل القصير، الطفل القزم والغلام الحدث، وها قد صار شابًا ضئيلًا بقدر ظل رجل في منتصف النهار.

جالت كل هذه الأمور في أذهان السادة الأربعة المجتمعين حول إناء شرب والد لويس، مثلما فكر هو فيها وهو يؤرجح ساقيه من سياج الشرفة.

مال إلى الوراء السيد روبرت هزرد المصرفي، الرجل الطويل العريض الذي يبدو ضخمًا في أي جمع خلا من حضور السيد ريسي، ورفع كأسه وانحنى للويس.

«نخب الرحلة الكبرى!»

«لا تربض على ذلك السياج كعصفور الدوري يا بُنيّ»، قال السيد ريسي مؤنبًا، فقفز لويس وانحنى ردًا على تحية السيد هزرد.

وقال متلعثمًا مرددًا حجته الدائمة: «لم أكن منتبهًا».

رفع كل السادة؛ السيد أمبروز هزرد أخو المصرفي الأصغر، والسيد لِجلي والسيد دونلدسن كِنت، كؤوسهم ورددوا مبتهجين: «نخب الرحلة الكبرى!»

انحنى لويس ثانية وقرّب شفتيه من الكأس التي نسيها. لم يكن في الحقيقة يرى أحدًا سوى السيد دونلدسن كِنت، نسيب أبيه، وهو رجل صامت ذو وجه نحيل كوجه الصقر (عند النظر إليه جانبيًا)، وبدا مثل بطل متقاعد من حرب الاستقلال، وعاش في خوف يومي من أدنى خطر أو مسؤولية.

وقد وقع لهذا المواطن المتدبر الحذر قبل سنوات أمر مفاجئ لا مبرر له، إذ أوكل إليه أمر رعاية ابنة أخيه الوحيد يوليوس كنت. مات يوليوس في إيطاليا. حسنٌ، كان اختياره العيش في إيطاليا شأنه وحده، ولكن أن يسمح لزوجته بالموت قبله، وأن يترك ابنة قاصرة ووصية بأن يُعهد أمر رعايتها إلى أخيه الأكبر الموقر دونلدسن كنت، من رأس كنت في لونغ آيلند وشارع غريت جونز في نيويورك... حسنٌ، ما من شيء البتة، أي شيء مهما كان، في سلوك السيد كِنت أو موقفه يبرر للجاحد يوليوس -الذي تفوق ديونه قدرة المرء على سدادها- في أن يلقي على كاهله بهذا العبء الثقيل، كما قال السيد كنت نفسه، وكما دافعت عنه زوجته.

جاءت الفتاة. كانت في الرابعة عشرة، ولا تعد جميلة، إذ إنها صغيرة البنية وسوداء ونحيلة. كان اسمها بياتريس، وهذا أمر سيئ، وزاده سوءًا معرفة أن الأجانب الجهولين يصغرونه بتريشي. لكنها مندفعة خدومة حسنة السجايا، وقد سهّل خلوها من الجمال كل شيء كما أشار أصدقاء آل كنت. كان للزوجين كِنت ولدان يافعان؛ بِل ودونلد، ولو كانت ابنة العم المفلسة هذه بيضاء متوردة... حسنٌ، لنالت مزيدًا من الاهتمام، بل لردت كرم عمها وخالتها بشيء من الجحود واللؤم. لكن مظهرها جنّبهما هذا الخطر، وبوسعهما أن يعاملاها بالحسنى دون تردد، وقد كانت الطيبة من طباعهما. وهكذا مرت السنون وأصبحت راعية لراعييها، إذ كان من طبع الزوجين كِنت أن يلقيا نفسيهما في اعتماد مطلق على كل من لا يساورهما قلق أو شك من ناحيته.

«نعم، إنه راحل يوم الاثنين»، قال السيد ريسي هازًا رأسه بحدة للويس الذي أنزل كأسه بعد رشفة واحدة. «أفرغها أيها الجبان!»، أمرته هزة الرأس، فأرجع لويس رأسه إلى الوراء وجرع الشراب، رغم أنه علق في حلقه الهزيل. اضطر إلى شرب كأسين، وكان هذا المرح القليل كثيرًا عليه، وسينجم عنه دوار وإثارة يعقبهما أمسية كئيبة وصداع في الصباح التالي. وقد أراد إبقاء ذهنه صافيًا ذلك اليوم، والتفكير بهدوء وروية في تريشي كِنت.

لا يمكنه الزواج بها الآن من غير ريب؛ فقد بلغ الحادية والعشرين ذلك اليوم وما زال معتمدًا على أبيه. ولم يكن حزينًا لسفره في الرحلة الكبرى، إذ كان هذا ما حلم به دومًا، وتاق إليه

منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناه في طفولته على صور المدن الأوروبية، في الممر العلوي الطويل الذي تفوح منه رائحة الطلاء، وقد زاد لهفته وضخمها ما حكته له تريشي عن إيطاليا. آه، لو أن بياتريسه تسافر معه فتكون دليلته! (أعطته شيئًا من أعمال دانتي العائدة إلى أبيها، تحتل صفحتها الأمامية رسمة لبياتريس [محبوبة دانتي] مطبوعة بالفولاذ، وترافقهما أخته ميري آدلين التي تعلمت الإيطالية على يد أحد المنفيين الرومانسيين من ميلانو، فساعدت أخاها على تعلم النحو).

لم تكن فكرة السفر إلى إيطاليا برفقة تريشي سوى حلم، ولكنهما سيعودان إليها لاحقًا، زوجًا وزوجة، وعندئذ سيكون لويس مرشدها، ويكشف لها أعاجيب التاريخ في مسقط رأسها الذي لم تعرف عنه إلا القليل، باستثناء الأمور الصغيرة المحلية الطريفة غير المهمة.

أثلج الخيال صدر الخطيب وهوّن عليه أمر فراقهما. إذ ما زال يشعر بأنه ولد في قرارة نفسه، لكنه سيعود رجلًا، وعزم على أن يقول لها هذا حين يلتقيها في اليوم التالي. فحين عودته ستكون شخصيته قد تشكلت ومعرفته بالحياة -التي ظنها جيدة- قد اكتملت، ولا يمكن لأحد أن يفرقهما عندئذ. وابتسم لمّا تخيل صراخ أبيه وغضبه وأنه لن يؤثر في رجل عاد من الرحلة الكبرى.

أخذ السادة يقصون حكايات عن تجاربهم الأولى في أوروبا. لم يسافر أي منهم، حتى السيد ريسي، منذ زمن بعيد، مثلما وضعت الخطط لسفر لويس. غير أن الأخوين هزرد سافرا مرتين إلى إنجلترا في أعمال مصرفية. وسافر قائد العمارة

لجلي، الرجل الجسور، إلى فرنسا وبلجيكا أيضًا، ناهيك برحلاته الأولى إلى الشرق الأقصى. ظل الثلاثة يستعيدون ذكرياتهم مبتهجين مسرورين، يطعّمونها قليلًا بشيء من الاستهجان لما رأوه. «أوه، يا لأولئك البغايا الفرنسيات!»، قهقه قائد العمارة عبر أسنانه البيض. لكن السيد كِنت المسكين، الذي سافر لقضاء شهر العسل، وقع في قبضة الثوار عام 1830، وأصابته الحمى في فلورنسا، وكاد يسجن في ڤيينا بتهمة التجسس. أما الحكاية السعيدة الوحيدة في هذه المغامرة الكارثية التي لم تتكرر، فقد كانت في الخلط بينه وبين دوق ولنغتن (عند محاولته التسلل من فندق في البندقية لابسًا معطف الحمال الأزرق)، إذ خلط الجمع بينهما و«كان حماسهم مبهجًا»، أقر السيد كنت.

«كيف عاش أخي يوليوس المسكين في أوروبا؟ حسنٌ، انظروا إلى العواقب...»، اعتاد أن يقول، كأنما خلو تريشي المسكينة من مسحة الجمال يمنح رأيه دليلًا دامغًا.

«عليك أن تحذر أمرًا واحدًا في باريس يا بُنيّ، وذاك ڤالي رويال جحيم القمار»، أصر السيد كنت، «لم تطأ قدمي تلك الأماكن قط، غير أن رؤيتها من الخارج تكفي».

«أعرف صاحبًا جردوه من أمواله هناك»، أكد السيد هنري هزرد، حين قهقه قائد العمارة وهو يشرب كأسه العاشرة بعينين مغرورقتين: «البغايا، آه من البغايا...»

«والأمر نفسه في ڤيينا...»، قال السيد كنت.

«وفي لندن»، قال السيد أمبروز هزرد، «على الشاب أن يحترس من المقامرين، فهم يمارسون كل صنوف الاحتيال، ويبحث

المقامـرون دومًـا عـن الأغـرار»، قـال معتـذرًا وأضـاف: «وهـذا مـا يسـمّون بـه كل وافـد جديـد إلـى البـلاد».

قـال السـيد كنـت: «كنـت فـي باريـس علـى شـفا حفـرة مـن التـورط فـي رهـان لأشـارك فـي مبـارزة»، وزفـر زفـرة ذعـر وارتيـاح ونظـر مطمئنًـا إلـى السـاوند ناحيـة بيتـه الهـادئ.

ضحـك قائـد العمـارة: «أوه، مبـارزة. يمكـن للرجـل أن يشـارك فـي مبـارزة هنـا. لقـد شـاركت فـي عـدد منهـا فـي نيـو أورلينـز». كانـت أمّ قائـد العمـارة سـيدةً مـن الجنـوب، وبعـد مـوت أبيـه قضـت عـددًا مـن السـنين فـي بيـت والديهـا فـي لويزيانـا، وهـذا مـا جعـل تجـارب ابنهـا الكثيـرة تبـدأ فـي سـن مبكـرة. «مبـارزة لأجـل نسـاء»، وابتسـم واثقًـا مـادًا كأسـه الفارغـة إلـى السـيد ريسـي.

«جاءت السيدات!»، قال السيد كنت محذرًا.

نهـض السـادة ونهـض قائـد العمـارة بهـدوء ورصانـة كالبقيـة. فتحـت البـاب الزجاجـي لقاعـة الاسـتقبال، وخرجـت منـه السـيدة ريسـي، ترفـل فـي ثـوب حريـري مكشـكش وقبعـة مخرمـة، تتبعهـا ابنتاهـا تلبسـان فسـتانين مـن الموصليـن الرقيـق المنشّـى وسـترتين زهريتيـن قصيرتيـن، ونظـر السـيد ريسـي إلـى نسـائه فـي استحسـان وفخـر.

قالـت السـيدة ريسـي بصـوت هـادئ: «إن العشـاء مقـدّم علـى الطاولـة، وإن تفضلتـم علـيّ وعلـى السـيد ريسـي...».

«إن الفضـل لكـم يـا سـيدتي إذ تلطفتـم ودعوتمونـا»، قـال السـيد أمبـروز هـزرد.

انحنـت السـيدة ريسـي وردّ عليهـا السـادة. قـال السـيد ريسـي: «أعـطِ السـيدة ريسـي يـدك يـا سـيد هـزرد. إن حفـل الـوداع الصغيـر

هـذا شـأن عائلـي، ويجـب أن يصحـب السـيدان الآخـران ابنتـيّ سـارا آن وميـري أدليـن...»

تقـدم قائـد العمـارة والسـيد هـزرد نحـو الفتاتيـن بأناقـة، وجـاء السـيد كنـت، لأنـه ابـن عـم العائلـة، فـي آخـر الموكـب بيـن السـيد ريسـي ولويـس.

يـا لروعـة مائـدة العشـاء تلـك! ظـل منظرهـا يتـراءى لعينـي لويـس أحيانًـا فـي البـلاد الأجنبيـة البعيـدة. فرغـم أنـه لـم يكـن بالأكـول البديـن أو النيـق فـي أثنـاء وجـوده فـي البيـت، فقـد صـار كذلـك لاحقًـا فـي بلـدان دقيـق الجـوز والثـوم والكائنـات البحريـة الغريبـة ذوات اللحـى، وقاسـى قرصـات الجـوع مـرات كثيـرة كلمـا تذكـر تلـك المائـدة الغنيـة. احتـل وسـطها إنـاء آل ريسـي الفضـي المخـرم، تعلـوه باقـة مـن ورود يونيـو وتحيطـه سـلال مغريـة مـن اللـوز المسـكّر وحلـوى النعنـاع المخططـة، وتحلقـت حـول هـذه التحفـة صحـاف لُوِسـتوفت مثقلـة بأكـوام تـوت العليـق والفراولـة وأول قطفـة مـن خـوخ ديلَـوَر. أمـا الأطبـاق الجانبيـة الممتلئـة بالبسـكويت والكعـكات المبرومـة وبسـكويت الفراولـة، وبخبـز الـذرة شـديد السـخونة، والزبـدة الذهبيـة فـي قطـع طريـة لـم تـزل نديـة مـن القمـاش القطنـي الـذي لُـفت بـه، فقـد أخـذت الأنظـار نحـو لحـم الخنزيـر المجلـوب مـن ڤرجينيـا، الموضـوع أمـام السـيد ريسـي، والطبقيـن المتماثليـن مـن البيـض المخفـوق علـى شـرائح الخبـز وسـمك القنبـر المشـوي الـذي أشـرفت عليـه السـيدة ريسـي. لـم يسـتطع لويـس بعدئـذ أن يُقحـم فـي هـذا النسـق المنمّـق مـن «الأطبـاق الجانبيـة» أفخـاذَ الديـك الرومـي المبهّـرة وخليـط الدجـاج بالكريمـة، وشـرائح الطماطـم والخيـار، والأباريـق الفضيـة الثقيلـة مـن القشـدة الصفـراء،

وحلوى الجزيرة العائمة، وحلوى «اللفافات» وهلام الليمون التي تضافرت مع التفاصيل الأفخم للنسق، ولكن قُدّم على الطاولة كل شيء، في وقت واحد، أو طبقًا تلو الآخر، وكذلك كانت الأكداس العالية من كعك الوافل منكفئة على أعقابها، ترافقها الأباريق الفضية الرفيعة لشراب القيقب في أنحاء المائدة بلا انقطاع، إذ تعيد دينا السوداء ملء الصحون بها.

لقد أكلوا، آه كم أكلوا جميعهم! رغم أنه يجدر بالسيدات تناول لقيمات. غير أن الطعام اللذيذ ظل في طبق لويس دون مساس، حتى حثته، كعادته دائمًا وأبدًا، نظرة معاتبة من السيد ريسي، أو نظرة مستعطفة من ميري أدلين، فغرز شوكته المتلكئة في كومة الطعام.

وظل السيد ريسي طوال هذا الوقت ممسكًا الشوكة.

«يجدر بالشاب في رأيي أن يرى العالم بعينيه وأن يشكّل ذائقته ويُحكم رأيه قبل أن يشرع في عمله. وعليه أن يمعن في النظر إلى الآثار الخالدة الشهيرة، وأن يدرس تنظيم المجتمعات الأجنبية، وعادات الحضارات القديمة وتقاليدها، التي نفخر بكسرنا نير عبوديتنا لها. ورغم أنه قد يرى كثيرًا مما يستحق الاستهجان والاستنكار...» («وبعض الفتيات أيضًا»، تدخل قائد العمارة لِجلي) «ما يجعله شاكرًا لامتياز ولادته ونشأته في ظل مؤسساتنا الحرة، فإنني أرى أيضًا أنه سيكون قادرًا على تعلم الكثير»، واصل السيد ريسي قوله برحابة صدر.

«ولكن، أيامِ الأحد»، قال السيد كنت محذرًا. فزفرت السيدة ريسي ناظرة إلى ابنها «آه، هذا ما أقوله!»

لم تعجب المقاطعةُ السيدَ ريسي وردّ عليها بأن أضحى أضخم. ظل هيكله جامدًا للحظات مثل كتلة صخر تعلو الصمت الذي أعقب مقاطعة السيد كنت وغمغمة السيدة ريسي، ثم انفجر غاضبًا على كليهما.

«أيام الأحد؟ أيام الأحد؟ حسنٌ، ما بها أيام الأحد؟ ما الذي يثير خوف أسقفي مؤمن مما نسميه يوم الأحد الأوروبي؟ أحسبنا جميعًا من رواد الكنيسة، ألسنا كذلك؟ وليس على مائدتي الليلة من هو ميثودي بكّاء ولا وحدوي ملحد، حسبما أعرف. ولن أهين سيدات بيتي بافتراض أنهن خلسة أعرن آذانًا مصغية للمعمداني المتبجح في الكنيسة الصغيرة الواقعة آخر الحارة. كلا؟ هذا ما ظننته! حسنٌ إذن، أقول ثانية ما كل هذه الضجة حول البابويين؟ لن أعترف يومًا بعقيدتهم الوثنية، ولكن اللعنة، إنهم يترددون إلى الكنيسة، أليس كذلك؟ كما أن عندهم قداسًا حقيقيًا مثلنا، وإكليروسًا حقيقيًا، لا الكثير من المبتذلين الذين يلبسون ثياب غير أهل الدين، واللعنة على ذلك بحق، الذين يخاطبون القدير بلا احترام برطانتهم السوقية؟ لا يا سيدي»، ومال نحو السيد كنت المنكمش، «ليست الكنيسة ما أخشاه في البلدان الأجنبية، بل قنوات الصرف يا سيدي[1]!»

ابيضّ وجه السيدة ريسي، إذ أدرك لويس أن قنوات الصرف تثير خشيتها أيضًا، وتنهدت قائلة بصوت لا يكاد يسمع «وهواء الليل».

---

(1) كانت قنوات الصرف من الأسباب التي أدت إلى انتشار وباء الكوليرا في لندن في تلك الحقبة.

لكن السيد ريسي عاد إلى فكرته الرئيسة: «أرى أن الشاب إن استطاع السفر، فعليه أن يسافر بأقصى ما تمكّنه به موارده، وعليه أن يرى من العالم قدر ما يستطيع. هذه أوامر الإبحار لابني يا قائد العمارة، وسيشرع في تنفيذها بكل ما أوتي من قوة!»

تمكنت دينا السوداء بعد أن رفعت خنزير ڤرجينيا، أو بالأحرى بقايا عظامه؛ إذ لم يبق سواها في الصحن، من إفساح مكان لوعاء من شراب البنش، صب منه السيد ريسي مغارف عميقة من الشراب اللامع الذكي الرائحة في كؤوس صفت أمامه على صينية من الفضة. نهض السادة، وابتسمت السيدات وبكين، وشُرب نخب صحة لويس ونجاحه في رحلته الكبرى بفصاحة جعلت السيدة ريسي تقود ابنتيها برفق خارج الغرفة بإيماءة من رأسها وحفيف خفي من الكشاكش المنشاة.

سمعها لويس تغمغم قائلة لهما عند العتبة «على الرغم من ذلك، فإن أباكما يتحدث بلغة تظهر أنه في أطيب مزاج مع لويس الغالي».

2

نهض لويس الصباح التالي قبل طلوع الشمس رغم المسكرات التي أُجبر على شربها.

فتح مصاريع غرفته بهدوء، ونظر إلى المرج الرطب الذي اندمج بأرض تكسوها الشجيرات، ولم تزل مياه الساوند معتمة تحت سماء مرصعة بالنجوم. آلمه رأسه، لكن قلبه اشتعل إذ أثاره ما ينتظره بما يكفي لتصفية ذهن أكثر تشوشًا من هذا.

لبس ثيابه كلها على عجل (عدا حذائه)، ثم نزع لحافه المزهر عن سريره العالي المصنوع من خشب الموهاغني، ولفه في لفافة محكمة وتأبطه. ولما أكمل استعداده المحير، شق طريقه حاملًا حذاءه بيده خلال الظلمة في الطابق العلوي إلى الدرج الزلق المصنوع من خشب البلوط، فأفزعه ضوء شمعة في السواد الحالك للردهة في الأسفل. حبس أنفاسه، ومال على حاجز الدرج فرأى دهشًا أخته ميري أدلين تتقدم، لابسة عباءتها ومعتمرة قبعتها، لكنها تمشي بجوربيها في الممر المفضي إلى غرفة المؤن. كانت هي الأخرى تحمل حمولتين؛ حذاءها والشمعة بيد، وفي الأخرى سلة كبيرة مغطاة أثقلت ذراعها العارية.

توقف الأخ والأخت وتبادلا النظر في الغسق الأزرق، وبدت قسمات ميري شوهاء في ضوء الشمعة الخافق، والتوت ببسمة مذعورة عندما تقدم إليها لويس.

فقالت هامسة: «أوه، ماذا تفعل هنا بحق السماء؟ كنت أجمع أشياء لأجل السيدة پو المسكينة القاطنة في آخر الحارة وهي

عليلة... قبل أن تذهب أمي إلى غرفة المؤن. لن تخبرها، أليس كذلك؟»

أومأ إليها لويس موافقًا، وفتح مزلاج الباب بحذر. لم يجرؤا على قول شيء حتى يصبحا بعيدين عن مرمى السمع، وجلسا على العتبات ليلبسا حذاءيهما، ثم أسرعا دون أن ينبسا بحرف يشقان الدرب خلال الشجيرات الموحشة، حتى وصلا إلى البوابة المفضية إلى الحارة.

«ولكن ماذا عنك يا لويس؟»، سألته الأخت فجأة وهي تنظر متعجبة إلى اللحاف الذي يتأبطه أخوها.

«أوه، أنا... اسمعي يا آدي...»، وسكت قليلًا وأخذ ينقب في جيبه. «ليس عندي الكثير... فالرجل العجوز يبقيني مغلولًا دومًا، ولكن هاك دولارًا. سأكون سعيدًا إن وجدته معينًا للسيدة پو المسكينة... بل سأراه امتيازًا...»

«أوه يا لويس، يا لك من نبيل كريم يا لويس! يمكنني شراء المزيد من الأشياء... إنهم لا يرون اللحم إلا القليل الذي آتيهم به كما تعلم... وأخشى أن تموت من المرض... وإنها وأمها لعزيزتا النفس جدًا...»، وبكت امتنانًا وزفر لويس شاعرًا بالارتياح، فقد صرف انتباهها عن اللحاف.

«آه، ها قد هب النسيم»، قال متنشقًا الهواء البارد فجأة.

«أجل، عليّ الذهاب. لا بدّ من العودة قبل شروق الشمس»، قالت ميري أدلين قلقة، «ولن يكون الأمر مستحسنًا إن عرفت أمي...»

«ألا تعلم بأمر زياراتك للسيدة پو؟»

جمّلت نظرة مكر طفولي وجه ميري أدلين العادي. «بلى، إنها تعرف طبعًا، ولكنها رغم ذلك لا تعرف... لقد اتفقنا على ذلك. إن السيد پو ملحد، كما تعلم، ولذا فإن أبي...»

هز لويس رأسه: «فهمت. حسنٌ، لنفترق ها هنا، سأذهب للسباحة»، قال بلا تكلف، لكنه استدار بسرعة وأمسك ذراع أخته وقال: «أختي، هلا أخبرت السيدة پو بأنني سمعت زوجها يقرأ بعضًا من قصائده في نيويورك قبل ليلتين...»

«أوه، أفعلت يا لويس؟ لكن أبي يقول إنه مجدّف!»

« ... وأنه شاعر عظيم... شاعر عظيم. أخبريها بهذا على لساني. هلا فعلت من فضلك يا ميري أدلين؟»

«أوه، لا أستطيع يا أخي... فنحن لا نتحدث عنه أبدًا»، وترنحت الفتاة المدهوشة وابتعدت مسرعة.

في الخليج الذي أبحر فيه مركب قائد العمارة الشراعي، قبل بضع ساعات، احتل قارب تجذيف أكبر الموجات المتحركة. جذف الشاب ريسي نحوه وربط قاربه الشراعي إلى المرسى وصعد إلى القارب مسرعًا.

أخرج من فتحات جيوبه الكثيرة حبلًا وخيطًا وإبرة لصنع السجاد وغيرها من العدة الغريبة والمتنافرة، ثم قاطع المجذافين، وثبت أحدهما للأعلى بين مقعد المجذّف والقوس، وألبس الصارية لحافه المزهر، وعقد حبلًا على الطرف الآخر من اللحاف وجلس في الكوثل، واضعًا إحدى يديه على الدفة والأخرى على شراعه المرتجل.

أطل كوكب الزهرة من فوق خط السماء الخضراء الفاتحة،

وصنع بركة من البهاء في البحر حين نفخ نسيم الفجر شراع العاشق.

أنزل لويس ريسي شراعه الغريب وسحب مركبه إلى الشاطئ، فوق حصى منحدرة لخليج آخر على بعد ميلين أو ثلاثة من الساوند. تحركت أشجار الصفصاف وتفرقت تفرقًا غامضًا على الحافة الحصباء، وصارت تريشي كنت بين ذراعيه.

طلعت الشمس فوق حزام من الغيوم الخفيضة شرقًا، مفرقة إياها بسائل ذهبي، وكستها الزهرة بالفضة والضوء يتمدد في الأعلى. ولكن ما تحت الصفصاف لم يزل غارقًا في الغسق، غسق أخضر رقيق علقت فيه همهمات الليل الخفية.

«تريشي... تريشي!»، قال الشاب راكعًا بجانبها، ثم قال: «أواثقة أنت أن أحدًا لم يعرف يا ملاكي...؟»

ضحكت الفتاة ضحكة خافتة غضنت أنفها المضحك، وأمالت رأسها على كتفه وضغطت جبينها الممتلئ وجدائلها الخشنة على خده، ويداها في يديه وأنفاسها متسارعة فرحة.

قال لويس مستاء «حسبت أنني لن أصل مع هذا اللحاف السخيف، وسيطلع ضوء النهار قريبًا! حين أتذكر أنني بلغت سن الرشد البارحة، وأن عليّ القدوم لرؤيتك بقارب مربوط مثل لعبة طفل في بحيرة بط! ليتك تعلمين كم يهينني هذا...»

«وما ضر ذلك يا عزيزي ما دمت قد بلغت سن الرشد وصرت سيد نفسك؟»

«ولكن أأنا كذلك حقًا؟ إنه يقول هذا، ولكن هذا وفقًا لشروطه فحسب، إن فعلت ما يريده فحسب! ستفهمين... إن عندي في

حسابي عشرة آلاف دولار... عشرة... آلاف... دولار، أتسمعين؟ لقد وُضعت في حساب باسمي في مصرف في لندن، ولكني هنا لا أملك پنسًا واحدًا أتنعم به في أثناء ذلك».

فطوقت عنقه بذراعيها، واستطاع تذوق دموعها عبر قبلاتهما. فقال متوسلًا: «ما الأمر يا تريشي؟»

«أوه... لقد... لقد نسيت أنه آخر أيامنا معًا حتى ذكرت لندن. يا لقسوتك، يا لقسوتك!»، قالت مؤنبة إياه، وخلال شفق أشجار الصفصاف الأخضر لمعت عيناها مثل نجمين صاخبين. لا يعرف عينين أخريين تظهران غضبًا بدائيًا مثلما تظهر عينا تريشي.

«يا لك من غضوب صغيرة!»، ضحك وهو يغص قليلًا، «أجل، إنه آخر يوم لنا، ولكننا لن نفترق وقتًا طويلًا. ستبلغين سن الرشد بعد عامين، ولن يكون هذا زمنًا طويلًا جدًا، أليس كذلك؟ وحين أعود إليك، سأعود سيدَ نفسي، مستقلًا وحرًا لأطلبك مواجِهًا الجميع وكل شيء! فكري في هذا يا عزيزتي وكوني شجاعة من أجلي... تحلي بالشجاعة والصبر، مثلما أعتزم أن أفعل!»، قال بنبل.

«أوه، لكنك سترى فتيات أخريات، الكثير منهن في تلك البلدان اللئيمة القديمة، حيث بارعات الجمال. يقول عمي كنت إن البلدان الأوروبية كلها بلدان خبيثة، حتى بلدي إيطاليا المسكينة».

«ولكنك يا تريشي سترين ابني عمنا بِل ودونلد في أثناء ذلك، سترينهما طوال اليوم وكل يوم. وتعلمين أنك ضعيفة أمام بِل الضخم. آه، لو أن طولي دون حذاء يبلغ ستة أقدام وإنشًا لذهبت بقلب مطمئن. يا لك من طفلة متقلبة الأهواء!»، حاول ممازحتها.

«متقلبة الأهواء؟ متقلبة الأهواء؟ أنا يا لويس؟»

فأحس بإنذار سيل من الدموع وخانته شجاعته غير المجرَّبة. كان احتضان المرء لفتاة تبكي أمرًا رائعًا من الناحية النظرية، غير أنه مخيف كما وجد بعد حدوثه فعليًا. سدت حلقه غصة عندئذ.

«لا، لا، كوني صلبة كحجر الأدمنت، صادقة مثل الفولاذ، هذا ما اتفقنا على فعله، أليس كذلك يا عزيزتي[1]؟»

«بلى يا عزيزي»، تنهدت مستاءة.

«وستكتبين لي بانتظام، رسائل طويلة طويلة يا تريشي، سأعتمد على هذا أينما كنت، أليس كذلك؟ ولا بدّ أن ترقميها، رقّمي كل واحدة منها، فأعرف في الحال إن فاتتني واحدة، تذكري ذلك!»

«وستحملها كلها ها هنا؟»، (لمست صدره)، ثم أضافت ضاحكة «ليس كلها، لأنها ستكون رزمة كبيرة، وسيكون لك حدبة من الأمام مثل پُلتشنِلا[2]، ولكن لتحمل الأخيرة، الأخيرة فحسب. عدني!»

«دومًا، أعدك بذلك ما دامت رسائلك لطيفة»، قال وهو لم يزل يحاول جاهدًا أن يظل مرحًا.

«أوه يا لويس، ستكون كذلك إن كانت رسائلك لطيفة... وستكون طويلة طويلة...»

بهت كوكب الزهرة واختفى في ضياء الشمس.

---

(1) بالإيطالية في الأصل.

(2) شخصية كلاسيكية ظهرت في الكوميديا المرتجلة في القرن السابع عشر، ولها صفات جسدية تجعله شبيهًا بالديك الصغير، إذ له حدبة أو سنام من الأمام ويضع قناعًا له أنف حاد. والكوميديا المرتجلة شكل مسرحي إيطالي ازدهر في أوروبا في القرن لسادس عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر.

3

عرف لويس دومًا أن اللحظة العصيبة لم تكن في وداعه لتريشي، بل في لقائه الأخير بأبيه.

فقد تعلق كل شيء بتلك اللحظة؛ مستقبله القريب إلى جانب آماله البعيدة. حين مشى عائدًا إلى البيت في أول تباشير النهار، شخص بنظره إلى نوافذ السيد ريسي مترقبًا، وشكر حظه أن مصاريعها ما زالت محكمة الإغلاق.

لم يكن من شك، كما قالت السيدة ريسي، أن لغة زوجها أمام السيدات أظهرت أنه في مزاج طيب سعيد خليّ مراوغ، وهذه حال لا تراه أسرته فيها إلا نادرًا؛ ما دفع بلويس إلى التساؤل بصفاقة عن السلالة البغيضة الهابطة من السماء التي يدين لها هو وأختاه بحياتهم الجبانة.

ما كان في الأمر ضيرٌ أن يقول لنفسه، كما يفعل كثيرًا، إن الجزء الأكبر من المال هو ثروة أمه، وإن بوسعه جعلها كالخاتم في إصبعه الصغيرة. وأي فرق سيحدثه هذا؟ لقد استولى السيد ريسي، في صبيحة زواجه، على إدارة أملاك زوجته، واقتطع من المخصصات المتواضعة التي أفردها لها كل نفقاتها الشخصية الصغيرة، حتى طوابع البريد التي تستخدمها، والدولار الذي تتبرع به في الصحن الفضي كل يوم أحد. كان يسمي المخصصات «مصروف الجيب»، مذكرًا إياها دومًا أنه يدفع بنفسه كل مصروفات البيت، وهكذا يكون بمقدورها إنفاق مصروفها برمته على الكشاكش والريش إن شاءت.

ويضيف دومًا قوله: «وهذا ما سيكون. وإن أوليت رغبتي شيئًا من اهتمامك يا عزيزتي، فإني أود أن أرى قوامًا مهندمًا، وألا يظن أصدقاؤنا، عند مجيئهم لتناول العشاء، أن السيدة ريسي ترقد عليلة في الطابق العلوي، وأنني استدعيت بدلًا منها قريبة فقيرة تلبس ثيابًا من صوف الألبكة». وأطاعته السيدة ريسي قلقة خائفة، وأنفقت كل بنس في تزيين نفسها وابنتيها، واضطرت إلى الاقتصاد في مصروف التدفئة في غرف نومهم، وفي طعام الخدم بغية توفير كل بنس لأي حاجة شخصية.

أقنع السيد ريسي زوجته أن نهجه في معاملتها ملائم، وأنه «سخي»، إن لم يكن مبذرًا. وحين حدّثت قريباتها عن الأمر سالت دموعها امتنانًا لتكرّم زوجها في توليه إدارة أملاكها. فقد أدارها ببراعة خالصة، ومال إخوتها الحمقى (وقد سروا بإزاحة هذا العبء عن كواهلهم، موقنين أنها ستبذر أموالها على أعمال الخير الطائشة إن ترك الأمر لها)، إلى مشاركتها استحسانها إدارة السيد ريسي، رغم أن أمها العجوز تقول يائسة أحيانًا: «كلما تذكرت أن لوسي آن لا تستطيع التمتع بقطرة من الحساء الذي يُرسل إليها دون أن يزن هو الشوفان...». غير أنها لم تقل هذا إلا همسًا، تحسبًا لقدرة السيد ريسي العجيبة على سماع ما يقال من ورائه، فينقضّ على العجوز الواهنة بانتقام مباغت، ويخدعها دومًا بتهدج صوته اللطيف إذ يقول: «حماتي العزيزة، إلا إن سمحت لي بأن أدعوها إيجازًا وصدقًا بأمي العزيزة».

أما لويس، فقد أنفق عليه السيد ريسي الحصة نفسها التي خصصها لنساء البيت. فقد أنفق بسخاء على ثيابه وتعليمه،

وغالى في الثناء عليه، وأحصى كل بنس من مخصصاته. غير أن ثمة فرقًا وكان لويس مدركًا له تمام الإدراك، مثلما أدركه الآخرون.

كان حلم حياة السيد ريسي وطموحه وشغفه (كما عرف ابنه) أن يؤسس عائلة، وليس عنده إلا لويس ليفعل ذلك معه. فقد آمن بحق البكورة والإرث والأملاك الموقوفة، وبكل طقوس التقاليد الإنجليزية «لملاك الأراضي». لم يفُقْه أحد في الثناء على المؤسسات الديمقراطية التي يعيش في ظلها، لكنه لم يرها قط مؤثرة في المؤسسة الخاصة المهمة، أي العائلة، وقد أولى العائلة كل اهتمامه وتفكيره. ونجم عن ذلك، كما ظن لويس قليلًا، أن انصب على رأسه الصغير غير الكفؤ كل ذاك الشغف المخبوء في صدر السيد ريسي العريض. فلويس ابنه، وقد جسّد ما كان غاليًا عليه، ومن أجل هذين السببين وضع السيد ريسي آمالًا جامحة على الصبي (وهو أمر مختلف تمام الاختلاف عن حبه إياه كما رأى لويس).

كان السيد ريسي فخورًا جدًّا بميل ابنه إلى الأدب. لم يكن رجلًا جاهلًا تمامًا، فقد أعجب أيّما إعجاب بمن سمّاهم «السادة المثقفون»، وجلي أن لويس سيصبح واحدًا منهم. لو كان له، إلى جانب هذا الميل، قوام أكثر رجولة، واهتمام بالرياضات القليلة الرائجة بين الرجال عندئذ، لرضي السيد ريسي تمام الرضا، ومن ذا الذي يرضى في هذا العالم المحبط؟ لكنه عزّى نفسه في أثناء ذلك بأن لويس لم يزل صغيرًا، وستتحسن صحته قطعًا، فيعود بعد عامين من الترحال والمغامرات شخصًا مختلفًا جسدًا

وعقلًا. لقد سافر السيد ريسي في شبابه، وأيقن أن تجربته كانت تأسيسية، وتمنى في سره عودة لويس مسمرًا وذا بنية قوية، يزينه الاستقلال والمغامرة، وإن بذر شوفانه البري في أراضٍ أجنبية فإنها لن تتلف محصوله في الديار.

عرف لويس كل هذا، كما عرف بعزم السيد ريسي على انتهاء سنتي التجوال بزواج وأسرة يوافقان هواه، ولن يكون للويس أي رأي في ذلك.

«سيغدق عليك بكل هذه النعم بغية تحقيق هدفه»، خلص الشاب وهو يمضي لينضم إلى عائلته على مائدة الإفطار.

لم يكن السيد ريسي متألقًا قط أكثر من تألقه تلك اللحظة من النهار والموسم. كان سرواله من قماش الدق الأبيض الناصع، مثبتًا طرفيه في حذاء من جلد الجدي، ومعطفه كشميريًا رقيقًا وصداره المصنوع من قماش الدراب مضلعًا ممتدًا تحت لفاع ببياض الثلج، وجعلته ثيابه نضرًا كالصباح، فاتحًا للشهية كحبات الدراق والكريمة الموضوعة أمامه.

جلست السيدة ريسي مقابله، بلا عيب أيضًا غير أنها أكثر شحوبًا من المعتاد، كأي أم توشك أن تفارق ابنها الوحيد. وبين الاثنين جلست سارا آن، زهرية على غير العادة، ومشغولة في محاولة منها تغطية مقعد أختها الفارغ. حياهم لويس وجلس إلى يمين أمه.

أخرج السيد ريسي ساعته المحفورة الدقاقة، وفصلها عن سلسلتها الذهبية الثقيلة ووضعها أمامه على الطاولة.

«لقد تأخرت ميري أدلين ثانية. إنه لأمر غريب أن تتأخر أخت عن آخر وجبة تتناولها مع أخيها الوحيد قبل مرورو عامين».

«أوه يا سيد ريسي!»، قالت السيدة ريسي قلقة.

«أقول إن الأمر غريب، سأنعم بابنة غريبة»، قال السيد ريسي ساخرًا.

«أخشى أن ميري أدلين تعاني صداعًا يا سيدي، فقد حاولت النهوض لكنها لم تستطع حقًا»، قالت سارا آن على عجل.

لم يفه السيد ريسي بشيء سوى أن رفع حاجبيه سخرية، فتدخل لويس بسرعة وقال «آسف يا سيدي، ولكني أخشى أنها غلطتي أنا...»

شحب وجه السيدة ريسي، واحمرت سارا آن، وردد السيد ريسي وهو ينزع إلى الشك: «غلطتك؟»

«لأني سبب الاحتفال المفرط الليلة الماضية يا سيدي...»

«ها ها ها»، ضحك السيد ريسي وسرعان ما هدأت عواصفه.

أرجع كرسيه إلى الوراء وأومأ لابنه مبتسمًا، فاتجه الاثنان إلى مكتب السيد ريسي، تاركيْن السيدتين لغسل أكواب الشاي (مثلما تقضي العادة في الأسر الراقية).

لم يتمكن لويس يومًا من معرفة ما يدرسه السيد ريسي في هذه الغرفة، عدا الحسابات والأساليب التي تجعله بغيضًا في نفوس أفراد أسرته. كانت غرفة جرداء صغيرة مهيبة، وأما الشاب الذي لم يجتز عتبتها قط دون انخلاع قلبه، أحس به ينخلع أكثر من ذي قبل، وقال في نفسه: «الآن!»

جلس السيد ريسي على الكرسي المريح الوحيد في الغرفة وبدأ حديثه قائلًا:

«يا صاحبي العزيز، إن وقتنا قصير، لكنه كافٍ لأقول ما يتعين عليّ قوله. بعد سويعات ستنطلق في رحلتك العظيمة،

وهـذا حـدث مهـم فـي حيـاة أي شـاب. إن شـخصيتك ومواهبـك، إلـى جانـب مـواردك لاسـتغلال الفرصـة، تجعلنـي أرجـو أن تكـون رحلتـك مُرضيـة. أنتظـر منـك أن تعـود مـن هـذه الرحلـة رجـلًا...»

يمكن القول إن حديثه كان أوامر حتى الآن، وبوسع لويس ترديدها مسبقًا، فحنى رأسه مذعنًا.

«رجـلًا»، كـرر السـيد ريسـي، «مسـتعدًا ليكـون ذا شـأن، شـأن كبيـر فـي الحيـاة الاجتماعيـة للمجتمـع. أنتظـر منـك أن تصبـح شـخصًا معروفًـا فـي نيويـورك، وسـأهيئ لـك السـبل لتصبـح كذلـك»، ثـم تنحنـح وقـال: «لكـن هـذا ليـس كافيًـا، وإن وَجـب عليـك ألا تنسـى أنـه أساسـي. إذ يفتقـر رجالنـا ذوو المكانـة العاليـة إلـى التعليـم والتهذيـب والخبـرة فـي العالـم. فمـا الـذي يعرفونـه عـن الفـن أو الأدب؟ لقـد حظينـا بوقـت قليـل هنـا لإبـداع كليهمـا... هـل تكلمـت؟»، قطـع السـيد ريسـي كلامـه بانحنـاءة مسـكتة.

«أنا... أوه، لا»، قال ابنه متلعثمًا.

«آه، حسـبتك ستشـير إلـى بعـض الكتّـاب المأجوريـن المجدّفيـن الذيـن يقـال إن تخاريفهـم الشـعرية قـد منحتهـم شـيئًا مـن الشـهرة فـي الحانـات».

احمر وجه لويس من إلماحة أبيه لكنه ظل صامتًا.

«أيـن شـاعرنا بايـرن، أو سـكوت أو شكسـبير؟ والأمـر سـيان إن تحدثنـا عـن الرسـم. أيـن فنانونـا العظمـاء؟ لا تعوزنـا المواهـب المعاصـرة، غيـر أننـا إن أردنـا أعمـالًا عبقريـة، فعلينـا النظـر إلـى الماضـي، بل إن علينـا فـي معظـم الأحيـان أن نرضـي أنفسـنا بنسـخ مـن هـذه الأعمـال... آه، اسـمع، أعلـم يـا بنـي العزيـز أننـي ألمـس

وترًا حساسًا! بل إني لن أغفل عن حبك للفن، أعني أني أود فعل كل ما بوسعي لتشجيعه. إن مكانتك المستقبلية في العالم -أعني واجباتك والتزاماتك باعتبارك رجلًا راقيًا وثريًا- لن تتيح لك أن تصبح رسامًا بارزًا، أو نحاتًا شهيرًا، لكني لن أعارض تمتعك بهذه الفنون في سفرك وقد أصبحت راشدًا. فهذا سيشكّل ذائقتك ويقوي حكمك ويمنحك، كما أرجو، البصيرة اللازمة لتختار لي عددًا من الروائع الأصلية لا المنسوخة، فالنسخ»، تابع السيد ريسي حديثه بتأكيد حاسم: «للذين تعوزهم الحصافة، أو للذين لا يتنعمون بخيرات هذا العالم. أجل يا عزيزي لويس، إني أتمنى تأسيس معرض، معرض لوحات تورّث. وأمك تشاطرني هذا الميل، وترجو أن ترى على جدراننا بعض القطع الأصلية من الأعمال العبقرية الإيطالية. أخشى أننا لا نطمع بالحصول على لوحة لرافائيل، بل لوحة لدومينيكو أو ألبانو، أو كارلو دولتشي أو غورتشينو، أو كارلو ماراتا، وعملًا أو اثنين من لوحات سالڤاتور روسا[1] في المناظر الطبيعية الرائعة... أتفهم وجهة نظري؟ يجب أن يكون لنا معرض ريسي، وستكون مهمتك جمع نواته». صمت السيد ريسي وحك جبينه المتهدل، «أحسب أني لن أكلف ابني بمَهمة يحبها أكثر من هذه».

«أوه، كلا يا سيدي، لا شيء حقًا»، قال لويس ووجهه يحمر ويشحب. لم يتوقع هذا الجزء قط من خطة أبيه، وامتلأ قلبه بشرف المهمة المرتقبة. لا شيء حقًا سيجعله أكثر فخرًا أو سعادة. نسي هنيهة حبه ونسي تريشي ونسي كل شيء، إلا نشوة

(1) فنانون إيطاليون من المرحلة الباروكية.

التنقل بين الروائع التي حلم بها طويلًا. ولن يتجول بينها بعيني المتفرج التائق، بل بعيني امرئ يحمل امتياز اختيار بعض الكنوز الأقل شأنًا والعودة بها. لم يدرك بعد ما حدث للتو، وقد جعلته صدمة كشف المهمة عييًا عاجزًا عن الكلام، كعادته.

سمع أباه يدوي ويمضي في وصف خطته، مبينًا بدقته وتبجحه المعتادين أن أحد الشركاء في مصرف لندن، الذي أودعت فيه أموال لويس، كان جامعًا معروفًا للتحف، ووافق على أن يقدم للمسافر الشاب رسائل توصية إلى الخبراء الآخرين في كل من فرنسا وإيطاليا، لتتم مهمة لويس تحت إشراف أكبر الخبراء.

وختم السيد ريسي الحديث بقوله: «لقد وضعت مبلغًا كبيرًا تحت تصرفك، بغية وضعك على قدم المساواة مع أفضل جامعي التحف. أحسب أنك ستتمكن بعشرة آلاف دولار من السفر مدة عامين على أحسن وجه، وأنوي إيداع خمسة آلاف دولار لشراء الأعمال الفنية التي ستكون ملكك في النهاية، تذكر هذا؛ إني موقن أن أبناء أبنائك سيرثونها ما بقي اسم ريسي»، بدت نبرة صوت السيد ريسي تلمح في طياتها إلى مدة من الزمن لا يمكن قياسها بمدة أقل من سنوات ملوك مصر.

استمع إليه لويس بذهن دائخ، خمسة آلاف دولار! بدا المبلغ ضخمًا بالدولار، وسيكون أكبر بكثير عند تحويله إلى أي عملة أجنبية، فتساءل لماذا تخلى أبوه مسبقًا عن كل أمل في الحصول على عمل لرافائيل... قال في نفسه: «إن سافرت مقتصدًا وأنكرت على نفسي الكماليات غير الضرورية، فلعلي أستطيع مفاجأته بجلب أحد أعماله. وأمي، يا لفكرها المنفتح، يا للروعة! فهمت

الآن لماذا سمحت بكل هذا الشح الذي بدا مهينًا وضيعًا...»

اغرورقت عينا الشاب بالدمع، لكنه ظل صامتًا رغم توقه، كما لم يتق من قبل، إلى الإفصاح عن امتنانه وإعجابه بأبيه. لقد دخل المكتب منتظرًا موعظة الوداع حول ضرورة الاقتصاد، إلى جانب الإعلان المرتقب عن «زواج لائق» (بل إنه خمّن أي بنات هزرد فكر فيها أبوه)، وعوضًا عن هذا أخبره أن ينفق مخصصاته الوفيرة بسخاء، وأن يعود إلى الديار بمجموعة من الأعمال الرائعة، فهمس لنفسه: «سيكون بينها عمل لكوريجيو[1] على الأقل».

«حسنٌ يا سيدي»، هدر السيد ريسي.

«أوه يا سيدي...»، قال لويس وألقى بنفسه على المنحنى الواسع لصدارِ أبيه.

من بين كل هذه المباهج الكثيرة، همست في أعماقه فكرة أن لا شيء قيل أو فُعل لعرقلة خططه حيال تريشي، وبدا كأنما تقبل أبوه –ضمنيًا– خطبتهما غير المعلنة. وانتاب لويس شيء من الشعور بالذنب لأنه لم يفصح عنها في تلك اللحظة. لكن الآلهة مخيفة حتى في استرخائها، بل إنها لا تكون مخيفة أكثر منها في مثل هذه اللحظات...

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

---

(1) رسام إيطالي.

القسم الثاني

4

وقف لويس ريسي على صخرة بارزة، وتأمل منظر جبل مون بلو الجليل. كان نهارًا صافيًا من أيام أغسطس، والهواء في ذلك الارتفاع قارسًا جدًّا، فلبس معطفه المبطن بالفراء. وقف الخادم الذي جلب له المعطف لدى إشارته على مبعدة خلفه، وفي الأسفل عند منعطف الجبل وقفت عربة خفيفة أنيقة رافقته في أسفاره.

لقد انقضى زهاء العام منذ أن لوّح مودّعًا نيويورك من فوق سطح السفينة النظامية التي مخرت عباب الخليج، ورغم ذلك لم يبق في نظر الشاب، الذي يقف بثقة مواجهًا مون بلو، شيء فيه من ذلك الكائن الرخو الواهن، لويس ريسي السابق، إلا خوفه الكامن الخامد من السيد ريسي الكبير. بل إن هذا الخوف وهَنَ وضعف بفضل المسافة والزمن، وغاص خلف الأفق، ورسا على الجانب البعيد من الأرض، ولم يوقظه من سباته إلا رسالة مطوية طيًا أنيقًا، مختومة مكتوبة بخط أبيه عبر أحد مكاتب المحاسبة الأوروبية. لم يراسله السيد ريسي الكبير كثيرًا، وإن كتب له فأسلوبه متكلف رسمي بارد. وجد صعوبة في الكتابة، إذ غرق طبعه الساخر في الجمل المنمقة الكثيرة التي كلفته ساعات من الجهد لكتابتها، وهكذا فإن خُلقه المخيف تربّص بابنه في طيات بعض الرسائل، وفي عادته الكريهة جدًّا في كتابة كلمة «المبجل» كاملة [دون اختصار].

غير أن هذا لا يعني أن لويس نسي ذكريات ماضيه قبل عام، إذ لم يزل الكثير منها باقيًا فيه، أو أنها -بالأحرى- قد انتقلت

إلى الرجل الجديد الذي أصبحه، مثل حنوّه على تريشي كنت، الذي فاجأه بأن قاوم انقضاض ذكريات الجميلات الإنجليزيات، وحوريات الشرق لوزيات الأعين. بل دهش أحيانًا أن يرى وجه تريشي الصغير الداكن وجبينها الممتلئ وعينيها الكبيرتين ووجنتيها العاليتين تباغته في أحد شوارع مدينة أسطورية، أو في منظر طبيعي فاتر الجمال، مثلما يتخطفه بين الفينة والأخرى في حديقة غريبة شذى رعي الحمام تحت شرفة في الديار. أكد له سفره رأي العائلة في خلو تريشي من الجمال، بدلًا من أن يضعفه، إذ لم تتماشَ ومقاييس الجمال الأنثوي التي رآها. غير أنها استقرت عميقًا في عقله وقلبه الجديدين كما فعلت في الماضي، وإن بدت قبلاتها أقل حرارة، ولم يتذكر النبرة الخشنة لصوتها إلا لمامًا. قال لنفسه، أحيانًا، بشيء من الاستياء إن بوسعه التخلي عنها إلى الأبد، لكنها تعيش فيه، مخفيّةً لا تمّحي مثل صورة مطبوعة على لوح داجيري(1)، بديعة لأنها لا تُرى معظم الأحيان.

كان الأمر أقل شأنًا في نظر لويس الجديد مما ظنه مرة؛ فقد أظهر نضجُه المفاجئ تريشي بصورة الطفلة المدللة أكثر من كونها مرشدًا، مثل بياتريس [حبيبة دانتي] كما كان يراها قبلًا، ووعد نفسه وهو يبتسم ابتسامة كبيرة أنه سيكتب لها رسالة طويلة يدين لها بها حالما يصل إيطاليا.

---

(1) نسبة إلى مخترعه لويس داجيري، وهو نوع من التصوير تستعمل فيه ألواح معدنية مفضضة وتعرض لبخار اليود، ثم توضع الألواح في الكاميرا للحصول على صور للأشياء.

أخذته أسفاره إلى إنجلترا أولًا، وقضى هناك بضعة أسابيع في جمع الرسائل والتوصيات من أجل رحلته، وفي شراء عربة السفر ولوازمها الكثيرة، وفي البلدات ذات الكاتدرائيات والقلاع العريقة، دون أن يغفل شيئًا منها؛ من أبوتسفورد إلى كنلورث، الجديرة باهتمام عقل متنور. ومن إنجلترا نحو كاليه، متنقلًا ببطء نحو الجنوب إلى البحر المتوسط، واستقل سفينة إلى پيرايوس، وغرق في الرومانسية الخالصة، وصار السائح يونانيًا.

كان الشرق هو ما صنع لويس الجديد، الشرق الباهر والبائس، المهلِك والشاعري، المتخم بالاحتيال والفروسية والبراغيث والعنادل، والمختلف جدًّا، بعظمته ووضاعته على حد سواء، عما حلم به شاب متفكر مثله. فماذا سيبقى من شارع كنال والمرج عند الساوند بعد سميرنا والأسواق، وبعد دمشق وتدمر وأكروپولس وميتليني وسونيون؟ والبعوض الذي بدا في بادئ الأمر الشبه الوحيد كان مختلفًا، لأنه صارعه في مشاهد مختلفة، ولم يسع الشاب الذي قطع الصحراء لابسًا ثيابًا عربية، ونام تحت خيمة من شعر الماعز، وهاجمه قطاع طرق في پلوپونيز، ونهبه الدليل في بعلبك، وسرقه موظفو الجمارك في كل مكان، إلا أن ينظر مبتسمًا إلى الأهوال التي تجتاز نيويورك ونهر هدسن. بدا لويس ريسي الآخر، تطوقه الرتابة والأمان عندما طلع قوامه الصغير إلى السطح، مثل طفل حديث الولادة محفوظ في الكحول. ولم تعد عواصف السيد ريسي الكبير سوى غمغمة بعيدة لبرق صيفي في أمسية رائعة. هل أثار السيد ريسي خوف لويس حقًا؟ حسنٌ، ها هو الآن ليس خائفًا من مون بلو!

ما زال واقفًا يحدق بإحساس من المساواة المريحة [مع الجبل] بقممه المخيفة، عندما توقفت عربة سفر أخرى قرب عربته، وقفز منها شاب متلهف يتبعه خادم يحمل عباءة أيضًا، وأخذا يصعدان المرقى. عرف لويس في الحال العربة والشاب النشيط الرشيق ومعطفه الأزرق ولفاعه المنتفخ، والندبة التي تشوه فمه الجميل البليغ. لقد كان الإنجليزي الذي وصل إلى نزل مونتاڤرت الليلة الماضية، مع وصيف ومرشد وحمولة من الكتب والخرائط وأدوات الرسم كادت تتفوق على متاع لويس.

لم ينجذب لويس، بادئ الأمر، إلى الوافد الجديد، الجالس منعزلًا في قاعة الطعام، وبدا أنه لم يلحظ رفيقه المسافر. كان لويس في الحقيقة يتوق إلى محادثة قصيرة، إذ كانت تجاربه مخبوءة في داخله (دون أن تلقى متنفسًا سوى ما يبثه في مذكراته الليلية منها من نزر يسير)، وشعر بأنها ستذوي في الغمغمة الغريبة للمسافرين الآخرين، ما لم يمنحها واقعًا جديدًا بالحديث عنها. وتراءى للويس أن الغريب ذا العينين الزرقاوين زرقة معطفه والوجنة المندبة والشفة الرقيقة مستمع مناسب. وتبين أن الإنجليزي يرى عكس ذلك، إذ احتفظ بهيئة من الغرابة والمزاجية، وشعر لويس بكبريائه أنه اصطنعها كما تتخفى الآلهة لتقضي مهامها، ولم يبزّ تحيته المسائية المقتضبة إلا تحية النيويوركي الشاب (كما قال لويس لنفسه ليُرضي غروره).

لكن اليوم كل شيء مختلف. اقترب الغريب بدماثة ورفع قبعته عن شعره المرفوع كشعر التمثال: وسأله مبتسمًا: «أيحدث أنك مهتم بأشكال الغيوم الطخرورية؟»

كان صوته عذبًا كابتسامته، وحرضت كليهما نظرة ساحرة جدًّا جعلت السؤال الغريب يبدو طبيعيًا وفي محله. ورغم أن لويس فوجئ فإنه لم يرتبك، بل احمرّ وجهه فحسب بفعل الإحساس غير المألوف بجهله، وأجاب بوضوح: «أحسب يا سيدي أنني مهتم بكل شيء».

«يا له من جواب رائع!»، قال الآخر ومد يده مصافحًا.

تابع لويس قوله: «ولكن عليّ أن أضيف بصدق وشجاعة أنني لم أحظ من قبل بفرصة لإشغال نفسي بأشكال الغيوم الطخرورية خصوصًا».

نظر إليه رفيقه مرحًا وقال: «هذا ليس سببًا يمنعك من فعل ذلك الآن!»، ووافقه لويس، ثم واصل الآخر بجد: «ينبغي لك النظر إلى الأشياء بغية أن تثير اهتمامك. وأحسب أنني لست مخطئًا في القول إنك أحد المنعّمين الذين وُهِبوا عينًا ترى».

احمر وجه لويس موافقًا، وواصل مخاطبه قوله: «إنك أحد الذين يشقون طريقهم نحو دمشق».

«يشقون طريقهم؟ لقد ذهبت إلى المدينة نفسها!» قال المتعجب، وانبرى يقص تفاصيل أسفاره، ثم احمر وجهه لدى إدراكه أن الآخر ذكر الاسم على سبيل المجاز.

اتقد وجه الإنجليزي الشاب: «أذهبت إلى دمشق... أتعني أنك حرفيًا زرتها؟ هذا مثير للاهتمام، بطريقته المختلفة تمامًا، بقدر تشكل السحاب والأشنات. أما الآن»، واصل بإيماءة نحو الجبل، «عليّ أن أكرس نفسي للرسم الذي يقصر حقًا عن تمثل هذه الكتل الصخرية المرهفة، شيء من العمل الشاق الذي قد

لا يثير اهتمامك أمام مشهد جليل كهذا. ولكن لعلك تمنحني هذا المساء، ما دمنا نقيم في النزل نفسه كما أحسب، بضع دقائق برفقتك وتخبرني بشيء عن أسفارك»، ثم أضاف بابتسامة ساحرة، «لقد حزم لي أبي بضع زجاجات من نبيذ ماديرا الفاخر مع أدوات الرسم، وإن تفضلت عليّ بصحبتك على العشاء...»

أشار إلى خادمه ليفرغ أدوات الرسم، وبسط عباءته على الصخرة واستغرق في عمله حين أخذ لويس ينزل إلى العربة. كان نبيذ ماديرا فاخرًا حقًا كما وصفه مضيفه. ولعل جودته الفائقة هي ما أسبغ على العشاء لمعانًا ذهبيًا، ما لم يكن حديث الإنجليزي أزرق العينين هو الذي أشعر لويس، وهو الذي لا يشرب إلا قليًلا، أن كل قطرة شربها برفقته هي شراب الآلهة.

أمل لويس في سره عندما انضم إلى رفيقه أن يكون قادرًا على التحدث أخيرًا، ولكن حين انقضت الأمسية (وقد حرصا على أن تكون ساعات قليلة) وجد أنه كان مستمعًا معظم الوقت ولم يخامره شعور بأنه مكبوت أو ممنوع من الكلام، فقد مُنح كل الفرص التي أرادها. ولم يكد يذكر حقيقة صغيرة إلا تلقفها خيال الرجل الآخر حتى احترقت مثل حصاة هامدة ألقيت في جدول دفاق. فكلما قال لويس شيئًا نظر إليه رفيقه من زاوية مختلفة، وأوحى له بسيل من الأفكار، وغدا كل أمر عادي بلّورة متعددة الأوجه تلمع بألق باهر. كان عقل الشاب الإنجليزي يتحرك في عالم من العلاقات والروابط بالناس أغنى بكثير مما في عالم لويس، لكن تحرقه في المشاركة وصراحته في الحديث والأسلوب، فتحت بوابات هذا العالم أمام الشاب الأبسط. لم يكن

نبيذ ماديرا قطعًا ما جعل الساعات تمضي بسرعة وتغمرهما بالسحر، ولكن السحر هو ما منح ماديرا الفاخر الشهير في عالم النبيذ كما عرف لويس لاحقًا مذاقًا لا يمكن لأي خمر آخر أن يمنحه إياه.

«أوه، لا بدّ أن نلتقي ثانية في إيطاليا... إذ بوسعي مساعدتك في مشاهدة عدد من الأشياء»، قال الإنجليزي الشاب، وهما يتعهدان على الصداقة الدائمة على درج النزل.

5

حدث ذلك في كنيسة صغيرة في البندقية، ليست أكبر من مصلى، وقعت عليها عينا لويس في كنيسة باهتة المظهر لم تُذكر في دليل الرحلات. ولولا مصادفة لويس الشابَ الإنجليزي في ظل مون بلو، لما سمع بالمكان، وتساءل حينئذ عما كان خليقًا به معرفته أيضًا.

وقف مطولًا ينظر إلى الرسوم الجدارية، التي أقر أنه نفر منها في بادئ الأمر، من التكلف في وقفات الأشخاص، والتفاصيل السخيفة لثيابهم (التي تختلف غاية الاختلاف عن الثياب الراقية التي تعلم الإعجاب بها لدى الفنانين العظماء من كتاب السير جوشوا مقالات في الفن[1])، ومن النظرة البريئة المحايدة على الوجوه الشابة، إذ بدت حتى اللحى الرمادية شابة. ثم استقر نظره فجأة على واحد من هذه الوجوه، كان لفتاة ذات خدين ممتلئين ووجنتين عاليتين وعينين واسعتين، تحت غطاء رأس متشابك من الجدائل المسلوكة باللؤلؤ. عجبًا، إنها تريشي، تريشي كِنت بذاتها! وبعيدًا عن وصمها «بالعادية»، لم تكن السيدة الشابة إلا أميرة فريدة تدور حولها الحكاية. ويا لها من أرض ساحرة تعيش فيها؛ تعج بالشبان الرشيقين والعذراوات المتجهمات الممتلئات الوجنات، والرجال الهرمين متوردي الخدود، والزنوج اللامعين، والطيور والقطط الجميلة والأرانب القارضة، يطوقهم كلهم ويلتف

---

(1) السير جوشوا رينولدز فنان إنجليزي أسس الأكاديمية الملكية للفنون بأمر من الملك جورج الثالث.

حولهم سياج ذهبي، في عَمد باللون الأزرق والزهري، وأكاليل الغار تتدلى من شرفات عاجية، وقباب ومنارات أمام بحار صيفية! هام خيال لويس في المشهد، فنسي أن يتحسر على النجد الراقية، والأحاسيس النشوى السامية، وعلى الخلفيات القاتمة، والفنانين الذين جاء إلى إيطاليا ليعجب بهم. فنسي ساسوفيراتو، وغويدو رينو وكارلو دولتشي، والإسباني الصغير، بل نسي لوحة التجلي لرافائيل[1]، رغم يقينه أنها أعظم لوحة في العالم.

ومن بعد ذلك شاهد كل ما وسع الفن الإيطالي تقديمه، وسافر إلى فلورنسا ونابولي وروما وبولونيا، للاطلاع على أعمال المدرسة الانتقائية، وإلى پارما لتأمل أعمال كوريغو وخوليو رومانو. غير أن النظرة الأولى ألقمته بذرة السحر، البذرة التي تجعل المرء يسمع ما تقوله الطيور، وما يهمس به العشب. وقال لويس معزيًا نفسه إن الوجه الغض للقديسة أورسولا الصغيرة سيقوده بأمان وثقة، متخطيًا كل منافس له، وإن لم يبق صديقه الإنجليزي إلى جانبه مشيرًا وشارحًا وملهمًا. فقد صارت القديسة أورسولا معياره ونجمته، وكم بدت له تفهةً وجوه العذراوات الشبيهة بوجوه الخراف المكتسيات بالثياب الزرقاء والحمراء، بعد أن نظر إلى عينيها الفتيتين المدهوشتين، وتقفى الأثر الأنيق لنقش نسيج ثيابها المقصب! بوسعه أن يتذكر بوضوح تام، اليوم الذي تخلى فيه عن بياتريس سنسي، وعن مجدلية كارلو دولتشي العارية السمينة، المتراخية على كتاب لا تقرؤه، وترمق المتفرج بنظرة

---

(1) رسامون إيطاليون من العصر الباروكي، والإسباني الصغير لقب للفنان خوسيه دي ريبيرا. لوحة التجلي تجسد تغير هيئة المسيح على الجبل.

مولهة بالطريقة القديمة الجميلة... كلا! إن القديسة أورسولا ليست بحاجة إلى أن تتقذه منها [المجدلية]...

لقد انفتحت عيناه على عالم جديد من الفن، وكان واجبه كشف الستار عن هذا العالم للآخرين. هو، لويس ريسي الجاهل غير الكفؤ، ولولا «رحمة الرب» والفرصة التي سنحت له على جبل مون بلو، لاستمر جاهلًا حتى النهاية! ارتعش عندما فكر في عيش المتسولين والرهبان البيومينيين والعرافين الهائمين على وجوههم، والمادونات الفاترات والغلمان ذوي الأعجاز الزهرية، الذين سيصحبونه في رحلة عودته إلى الديار على متن السفينة النظامية البخارية الجديدة.

كان في حماسه شيء من نشوة الحواريّ. فلم يكن، بعد بضع ساعات، سيعانق تريشي ويلتقي والديه الموقرين فحسب، بل سينطلق ليبشرهم بالعهد الجديد الذي كان يرزح تحت ظلمات سلڤاتور روسا والإسباني الصغير...

كان أول ما أثار دهشة لويس ضآلة البيت على الساوند، وضخامة السيد ريسي.

وحسب أنه سيشعر بانطباع مغاير؛ ففي ذكرياته اكتسبت الدارةُ المطلية شيئًا من مهابتها عند مقارنتها بأصولها المتخيلة. ولعل التنافر بين رقعها الممتدة وأرضياتها العارية، والبسط النفيسة والنيران المتوهجة في هاي پوينت، ضخّمت ذكرياته عن الدارة، كما أن تذكر مائدتها العامرة زادها ضخامة. لكن صورة السيد ريسي قد تضاءلت في أثناء ذلك، إذ بدا كل شيء فيه نحيلًا صبيانيًا، بل طفوليًا، كتوعده إدغار ألن پو – الذي يراه لويس

شاعرًا حقيقيًا رغم سماعه قصائد أعمق من قصائده- وطغيانه وسرعة غضبه على نساء بيته، وجهله الكلي غير المقصود بجلّ الأمور، من قبيل الكتب والناس والأفكار التي صارت تملأ رأس ابنه، إلى جانب عجرفته وقصر حكمه الفني. لم يتظاهر السيد ريسي بقراءته الكتب، باستثناء نطاق محدود من القراءة، انتقى معظمه في مقتطفات ناعسة بعد الغداء من كتاب «نصف ساعة مع أفضل الكتّاب» لنايت، كما ظن لويس، بل ترك ذلك «للأساتذة» كما قالها بأناقة. أما في ما يتعلق بالفن، فقد كان متعسفًا واضحًا، مستعدًا لتبرير آرائه مستشهدًا بمراجع بارزة وبأسعار السوق، وكان جليًا كما بدا في حديثه الوداعي لابنه، أن أعمال الفنانين العظماء ستحظى وفقًا لذلك بامتياز الظهور في مجموعة ريسي.

لم يضق صدر الشاب بهذه الأحكام، إذ كانت أمريكا بعيدة جدًا عن أوروبا وقد انقضت أعوام طويلة على رحلة السيد ريسي. ولا لوم عليه إن لم تعد الأشياء التي أعجبته حينئذ تحوز الإعجاب اليوم، ولا لوم عليه لجهله بكل هذا. إذ كانت اللوحات التي خشع أمامها لويس مجهولة تمامًا، حتى عند طلاب الفن ونقاده في شباب أبيه. فكيف يمكن لرجل أمريكي يملؤه الاعتداد بالذات، ويدفع لمرسوله أغلى الأجور ليكشف له «الروائع» المتعارف عليها؟ كيف له أن يعرف كلما وقف منتشيًا أمام ساسوفيراتو أو كارلو دولتشي أحد الكنوز المجهولة الرازحة تحت التراب وبيوت العناكب؟

كلا، لم يختلج في صدر لويس إلا التسامح والتفهم. وما كان

لـرأي كهـذا أن يعظّـم صـورة الأب، ولكـن حيـن دلـف الشـاب إلـى غـرفة المكـتـب، حيـث جلـس السـيد ريسـي بـلا حـراك بفعـل النقـرس، مـادًا رجلـه المعصوبـة علـى أريكتـه، بـدا أنـه وجـد سـببًا آخـر للغفـران...

لعـل جلسـة أبيـه المنكبـة، والهيئـة التـي انتفـخ بهـا هيكلـه فـوق الأريكـة، والسـاق العليلـة الممـدودة مثـل قمـة جبـل، جعلتـه يمـلأ الغرفـة، كمـا تصـور لويـس لاحقًـا. أو لعلـه وقـع صوتـه حيـن دوى نزِقًـا عبـر العتبـة، طـاردًا السـيدة ريسـي والفتاتيـن إذ قـال محتـدًا: «والآن أيتهـا السـيدات، إن انتهيتـن مـن العنـاق والقبـلات، فـأود أن أحظـى بوقـت مـع ابنـي». ولكـن الغريـب، بعـد أن خرجـت الأم وابنتاهـا بـكل أطواقهـن وكشـاكشـهن، أن المكتـب غـدا أصغـر، وراود لويـس إحسـاس بأنـه داوود دون الأحجـار الخمسـة.[1]

«حسنٌ يا بني. ها قد عدت إلى الديار ولا غرو أن عندك الكثير من المغامرات تقصها علي، وبضع الروائع تريها لي، كما عرفت من أذونات الصرف»، قال أبوه محمرًا ومنتفخًا.

«أوه، الروائع، بلا شـك يا سيدي»، تكلف لويس الابتسـام متسـائلًا عمـا جعـل صوتـه شـبيهًا بصـوت الفلـوت، وقـد أجهـد عضلاتـه فـي تكلّفـه الابتسـام.

«حسـنٌ، حسـنٌ. أحسـب أن ريـدي نفـذ أوامـري، ولـذا أُخـذت اللوحـات إلـى كنـال سـتريت مـع متاعـك؟»، قـال السـيد ريسـي

(1) إشـارة إلـى مواجهـة داوود وجليـات العمـلاق [جالـوت فـي القـرآن الكريـم]. «وأخـذ عصـاه بيـده وانتخـب لـه خمسـة حجـارة ملـس مـن الـوادي وجعلهـا فـي كنـف الرعـاة الـذي لـه، أي فـي الجـراب، ومقلاعـه بيـده وتقـدم نحـو الفلسـطيني [جليـات]»، سـفر صموئيـل الأول 40:17 (العهـد القديـم).

مستحسنًا، ملوحًا بيد بنفسجية تتعتّق تحت الضمادة.

«أوه، أجل يا سيدي. كان السيد ريدي على رصيف السفن، حاملًا الأوامر الدقيقة. تعلم أنه ينفذ أوامرك دومًا»، تجرأ لويس على القول بشيء من التهكم.

حدجه السيد ريسي وقال: «يفعل السيد ريدي ما آمره، إن كان هذا ما تعنيه، وإلا ما كان ليستمر بالعمل عندي لما ينوف على ثلاثين عامًا».

صمت لويس، وأمعن فيه أبوه النظر متفحصًا: «يبدو أنك اكتسبت وزنًا. أصحتك جيدة؟ جيد... جيد... بالمناسبة، سيتناول السيد روبرت هزرد وابنتاه العشاء عندنا الليلة. ولا شك في أنهم ينتظرون رؤية البدع الفرنسية في الصدارات واللفاعات. لقد أصبحت مالڤينا آنسة راقية كما تقول لي أختاك»، ضحك السيد ريسي. قال لويس في نفسه: «لقد عرفت أنها كبرى بنات هزرد!»، وسرت قشعريرة قصيرة في جسده.

واصل السيد ريسي حديثه بكثير من الحيوية: «أما اللوحات، فها أنت ترى أنني راقد بسبب هذا المرض اللعين، وإلى أن يتمكن الأطباء من مساعدتي على النهوض، عليّ الاستلقاء هنا ومحاولة تخيل كنوزك في المعرض الجديد. وفي أثناء ذلك يا بني العزيز، لست بحاجة إلى القول إنه لا يسمح لأحد برؤيتها، حتى أراها أنا وتعلق تعليقًا لائقًا. سيشرع ريدي في فكها في الحال، وعند عودتنا إلى المدينة الشهر القادم، ستقيم السيدة ريسي، بمشيئة الرب، أجمل حفل مسائي شهدته نيويورك، لعرض مجموعة ابني، ولعلنا... حسنٌ... نحتفل بحدث مهم آخر في تاريخه».

رد لويس على هذا بضحكة خافتة محترمة، وتراءى أمام غبش عينيه الوجه الحزين لتريشي كنت.

«آه، سأراها غدًا»، قال في نفسه مستعيدًا قلبه حالما اختفى عن أنظار أبيه.

6

وقف السيد ريسي صامتًا وقتًا طويلًا بعد أن جال في الغرفة التي رتبت فيها اللوحات بعد فكّها في منزل شارع كنال.

لقد ذهب إلى المدينة وحده مع لويس، رافضًا بقسوة تلميحات ابنتيه وتوق السيدة ريسي الصامت الواضح لمرافقتهما. ورغم تعافيه من ألم المفاصل فلم يزل واهنًا نزقًا، وصرفت السيدة ريسي الفتاتين لدى أول تقطيبة خشية «إغضابه».

كبرت آمال لويس وهو يتبع أباه في مشيته العرجاء. زهت اللوحات، رغم وضعها على الكراسي والطاولات وإمالتها ليسقط عليها الضوء، في البيت الفارغ نصف المظلم بجمال جديد مقنع. آه، كم كان محقًا، وكم كان واجبًا على أبيه اقتناؤها!

توسط السيد ريسي الغرفة، وما زال صامتًا واكتسى وجهه، سريع العبوس والتجهم، هيئة هادئة خالية من أي تعبير يعرفه لويس يظهر حيرته الداخلية.

«سيستغرق الأمر بعض الوقت طبعًا»، قال الابن في نفسه تقرصه حماسة الشباب.

في نهاية المطاف، أيقظ السيد ريسي الصدى بنحنحته، لكن الصوت الذي انبعث من حنجرته خلو من التعبير كوجهه. فقال: «إنها فريدة، إن أجود نسخ أعمال الفنانين العظماء لا تشبه اللوحات الأصلية إلا قليلًا. أهذه أصلية؟»، سأل فجأة مستديرًا نحو لويس.

«قطعًا يا سيدي! ثم...»، أوشك الشاب أن يضيف «ولم يعبأ أحد بنسخها»، لكنه كبح نفسه بسرعة.

«ثم...؟»

«أعني أنني حصلت على أفضل ما يمكن الحصول عليه من مشورة».

«هذا ما ظننته، ولهذا وافقت سريعًا على تصديق مشترياتك».

شعر لويس بأنه يتضاءل وأباه يتعملق، لكنه أرسل نظره على امتداد الجدار، وألقت الجميلة ضياءها الذي يبعث الحياة.

نفر حاجبا السيد ريسي متوعدين، لكن وجهه ظل هادئًا مترددًا، وألقى نظرة بطيئة حوله مرة أخرى، وقال مبتهجًا: «دعنا نبدأ برافائيل»، وكان جليًا أنه لم يعرف إلى أي اتجاه يدير وجهه.

«أوه يا سيدي، إن رافائيل هذه الأيام... لقد أخبرتك بأن ثمنه سيفوق الميزانية بكثير».

ارتخى وجه السيد ريسي قليلًا.. «لكني أملت الحصول على عمل متواضع...»، ثم جهد ليقول: «لنرَ عمل ساسوفيراتو إذن».

شعر لويس بشيء من الراحة، بل تجرأ على رسم ابتسامة على شفتيه وقال: «إن لوحات ساسوفيراتو كلها متواضعة، أليس كذلك؟ في الحقيقة إنه لم يعد... مثلما كان...»

وقف السيد ريسي بلا حراك، وقد ركز نظره ببلاهة على أقرب اللوحات.

«ساسوفيراتو... لم يعد...؟»

«كلا يا سيدي، ليس في مجموعة بهذه الجودة».

رأى لويس أخيرًا أنه أحدث الأثر المطلوب. كأن شيئًا كبيرًا مزعجًا عالقٌ في حنجرة السيد ريسي، ثم سعل سعلة كأنها تلفظ ساسوفيراتو إلى الخارج.

ساد صمت آخر قبل أن يشير بعصاه إلى لوحة صغيرة، تجسد شابة خنساء الأنف عالية الجبين لها شعر مسرح محلى

بالجواهر، وخلفها زهور الحوض متشابكة تشابكًا رقيقًا. فسأله: «ألوحتك هذه من أعمال كارلو دولتشي؟ إن الأسلوب متماثل كثيرًا كما أرى، غير أنني أرى أن إحساسه الفريد ينقصها».

«لكنها ليست لكارلو دولتشي، بل لپييرو ديلا فرانشيسكا[1] يا سيدي»، قال لويس مندفعًا مفتخرًا.

واجهه أبوه عابسًا: «أتعني أنها منسوخة؟ لقد ظننت ذلك!»

«كلا، كلا يا سيدي. إنها لرسام عظيم، أعظم بكثير...»

احمر وجه السيد ريسي كثيرًا لخطئه، فاستأنف حديثه بأسلوب أرقّ ليخفي انزعاجه المعتاد، وقال: «في هذه الحال، أحسب أنني أود رؤية الفنانين المتواضعين أولًا. أين كارلو دولتشي؟»

«ما من لوحة لكارلو دولتشي»، قال لويس وقد ابيضت شفتاه.

ما يتذكره الشاب تذكرًا واضحًا وقوفه، لم يعرف كم مضى من الوقت بعد ذلك، أمام الكرسي ذي الذراعين الذي تهاوى عليه أبوه، شاحبًا ومرتجفًا مثله.

قال السيد ريسي متلعثمًا: «إن هذا .... إن هذا سيعيد إليّ آلام النقرس»، ولكن حين قال لويس متوسلًا: «كلا يا سيدي، دعنا نعد إلى الريف في الحال، وامنحني فرصة لأشرح لك... لأعرض رأيي...»، لوّح الرجل العجوز تلويحة غاضبة بعصاه مقاطعًا توسّل الشاب.

«تشرح لاحقًا؟ تعرض رأيك لاحقًا؟ بل إني أصر على أن تفعل هذا هنا والآن!»، ثم أضاف السيد ريسي بصوت أجش كأنه

(1) من رسامي عصر النهضة أشهر لوحاته «أسطورة الصليب».

يقاسي آلامًا جسدية حقيقية: «علمت أن الشاب جون هزرد عاد الأسبوع الماضي من روما جالبًا عملًا لرافائيل».

ثم سمع لويس نفسه، كأنما يرتب أفكاره- بتجرد بارد لمتفرج- ويلتمس العذر الذي تمنى أن تلتمسه له اللوحات، وأن يخلع «الرؤساء والسلاطين»[1] من العروش، ويُحِل محلها هذه الأسماء الجديدة. كان أول الأسماء الذي انحشر في حنجرة السيد ريسي؛ بعد أن أمضى حياته في محاولة تذكر النطق الصحيح لكلمات من مثل لو سپانغولوتو وجوليو رومانو، وكان سيئًا، كما قالت عيناه الحانقتان، اضطراره أن يبدأ من جديد بتمارين لفظية قبل أن يتمكن من أن يقول لصديق بدقة عفوية «وهذه لوحتي من أعمال غوتو دي بوندوني[2]».

لم تكن هذه إلا أولى الصدمات فحسب، وسرعان ما نسي أمرها في خضم محنة جديدة. فقد يتمكن المرء من تعلم لفظ غوتو دي بوندوني، بل يسر بفعل ذلك شرط أن يعرف الصديق المذكور الاسم وينحني لفخامته. أما أن يقابل جهدك بتحديق فارغ وطلب هازل: «أعد هذا من فضلك»... إن هذا إلى جانب معرفة أن هذا التحديق والسؤال سيتكرران أمام كل لوحة، عند التجول في المعرض (معرض ريسي!)، قد أورثا السيد ريسي

---

(1) يعني أسماء الفنانين العظماء -من وجهة نظر أبيه- والتعبير مأخوذ من رسالة الرسول بولس إلى أهل أفسس الإصحاح 6:12 «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات».

(2) من رسامي عصر النهضة.

حسرة عظيمة، دفعته إلى تشبيه حاله بحال أجاج[1]، دون مبالغة.

«يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! أقلت إن هذا الأخير يدعى كارڤاتشر[2]؟ وأبقيته حتى اللحظة الأخيرة لأنه صفوة مجموعتك، أليس كذلك؟ كارڤاتشر... حسنٌ، كان خليقًا به أن يهتم بحرفته. إنه يعمل في إصلاح السيارات البخارية الأوروبية الجديدة كما أظن، أليس كذلك؟»، كان السيد ريسي حانقًا للغاية، وسخريته أقل ذكاء من عادته، «وتقول إن أنجليكو رسم جندي فلك نوح في درع زهري على ورقة ذهبية؟ لقد رأيتك تتذمر يا ولدي. ليس أنجليكو، بل أنجليكا. إن أنجليكا كوفمان امرأة[3]. إن المخادع اللعين الذي غشك بلوحة زيتية رديئة كلوحتها يجب أن يسحل ويقطع إلى أرباع، وهذا ما سيحدث يا سيدي، بحق الرب، إن استطاع القانون الوصول إليه! سيتقيأ كل پنس أخذه منك بالحيلة، وإلا لن يكون اسمي هالستن ريسي! صفقة رابحة... أتقول إنها صفقة رابحة؟ إن ثمن طابع بريدي جديد كثير عليها! يا إلهي... أتدرك أنني أوليتك ثقتي يا بني؟»

«أجل يا سيدي، أجل. ولأن...»

---

(1) «ثم قال صَمُوئِيل: «أحضروا لي أجاج، ملك عماليق.» فجاء أجاج إلى صَمُوئِيل مقيدًا بالسلاسل. فقال أجاج في نفسه: «لعله لن يقتلني.» لكن صَمُوئِيلَ قال لأجاج: «قتلت بسيفك رضعًا وحرمت أمهاتهم منهم. فالآن سَتُحرَم أمك منك» فقتل صَمُوئِيلُ أجاج وقطعه أمام الله في الجلجال». سفر صموئيل الأول 15: 32-33

(2) يعني به الفنان الإيطالي ڤتوري كارپتشيو، ولفظ الأب للاسم على هذه الشاكلة تجعله يعني «مصلح السيارات».

(3) رسامة سويسرية المولد، برعت في رسم الصور الشخصية. ولعل السيد ريسي لا يعني أنجليكا بل يشير إلى اسم فرانشيسكا الذي يراه مؤنثًا، فخلط الاسمين.

«كان بوسعك أن تكتب لي، كان بوسعك أن تعرض آراءك عليّ على الأقل...»

كيف يمكن للويس أن يقول: «عرفت أنك سترفض السماح لي بشراء تلك اللوحات إن أخبرتك». ولكنه تلعثم قائلًا: «لقد ملت إلى التجديد في انتقاءاتي... وثمة أسماء جديدة تبرز... ولعلك تذكر...»

«التجديد! الأسماء الجديدة! من قال ذلك؟ لقد وصلتني رسالة الأسبوع الماضي من سماسرة في لندن أوصيتك باستشارتهم، يخبرونني فيها بأن غويدو ريني سيدخل السوق هذا الصيف قطعًا».

«أوه، إن السماسرة لا يعرفون!»

«السماسرة لا يعرفون؟ ومن يعرف عداك؟»، قالها السيد ريسي بسخرية واضحة.

ظل لويس يدافع عن رأيه بوضوح مماثل: «لقد كتبت لك يا سيدي عن أصدقائي في إيطاليا وفي إنجلترا».

«حسنٌ، اللعنة على ذلك. لم أسمع باسم أحد منهم من قبل، مثلما لم أسمع برساميك هؤلاء. لقد زودتك بأسماء المستشارين الذين تحتاج إليهم، وأسماء الرسامين أيضًا. بل إني حددت لك المجموعة بنفسي قبل سفرك. لقد كنت واضحًا قطعًا، أليس كذلك؟»

ابتسم نويس ابتسامة شاحبة: «رجوت أن تكون اللوحات...»

«ماذا؟ أن تكون اللوحات ماذا؟ ماذا تقصد؟»

«أن تكون واضحة، وتتحدث عن نفسها، وتجعلك ترى أن رساميها سيحلون محل المشاهير...»

ضحك السيد ريسي ضحكة بغيضة: «إنها كذلك، أليس صحيحًا؟ وفي نظر من؟ أصدقاؤك كما أظن. ما اسم ذلك الشاب الذي التقيته في إيطاليا، من اختارها لك؟»

«رسكن، جون رسكن»، قال لويس.

اجتمعت ضحكة السيد ريسي الطويلة بوابل جديد من اللعنات: «رسكن... رسكن... جون رسكن فحسب، أليس كذلك؟ ومن يكون جون رسكن العظيم هذا؟ ومن أسبغ على أحكامه سمة أحكام الرب؟ من كان والد جون رسكن؟»

«تاجر نبيذ محترم في لندن يا سيدي».

كف السيد ريسي عن الضحك ونظر إلى ابنه بنظرة من القرف المطلق.

«بائع تجزئة؟»

«أحسب ذلك».

«يا للخزي!»، قال السيد ريسي.

«لم يكن رأي رسكن فحسب يا أبي. لقد حدّثتك عن أصدقائي الآخرين في لندن، الذين التقيتهم في رحلة العودة. لقد رأوا اللوحات واتفقوا جميعًا على أن المجموعة ستكون قيمة جدًا ذات يوم».

«ذات يوم... وهل حددوا التاريخ... الشهر والسنة؟ آه، هؤلاء الأصدقاء الآخرون... أجل قلت إن من بينهم السيد براون والسيد هنت والسيد روستر، أليس كذلك؟ لم أسمع قط بأي من هذه الأسماء أيضًا، إلا في دليل الحرف».

«إنه ليس روستر يا أبي، بل دانتي روزيتي».

«اعذرني؛ روزيتي، وماذا يعمل والد دانتي روزيتي؟ يبيع المعكرونة كما أحسب؟»

كان لويس صامتًا وتابع السيد ريسي وهو يتحدث بحزم مطلق: «إن الأصدقاء الذين أرسلتك إليهم نقاد للفن يا سيدي، رجال يعرفون أي لوحة قيّمة، ولا يسع لأي منهم إلا أن يختار لوحة فريدة لرافائيل. ألم تعثر عليهم حين ذهبت إلى إنجلترا؟ أم لم يكن عندهم وقت يخصصونه لك؟»، أضاف السيد ريسي، «يجدر بك ألا تخبرني بهذا، لأني أعلم كيف سيستقبلون ابن أبيك».

«أوه، استقبلوني بلطف بالغ، حقًا يا سيدي».

«أجل، لكن هذا لم يناسبك، لم ترغب في أن يشار عليك. أردت أن تتباهى أمام جمع من الجهولين مثلك. أردت... كيف لي أن أعرف ماذا أردت؟ كأنما لم أعطك تعليمات أو أحمّلك مسؤولية! والمال... يا إلهي! أين أنفقته؟ لشراء هذه؟ هراء...»، نهض السيد ريسي متثاقلًا، متكئًا على عصاه، وثبت عينيه الغاضبتين على ابنه: «اعترف يا لويس، قل لي إنهم سلبوك إياه في أثناء لعب الورق. لا يساورني شك في أن الجميع مقامرون محترفون، أصدقاؤك رسكن وموريس وروستر. لقد احتالوا لاختيار أمريكي شاب غر في أسفارهم كما أرى، أليس صحيحًا؟ نعم، أتقول نعم؟ إذن... ماذا عن النساء؟ يا إلهي القدير منك يا لويس». تهادى السيد ريسي لاهثًا نحو ابنه مادًا عصاه: «إنني لست تطهيريًا متزمتًا يا سيدي، بل إني أفضل أن تخبرني بأنك أنفقت المال على امرأة، كل بنس منه، على أن تسمح بأن تُسلب مثل ساذج، وتشتري هذه الأشياء التي تبدو كأنها قصت من كتاب الشهداء

لفوكس، بدلًا من أعمال أصلية للفنانين العظماء من أجل معرض رجل محترم... إن الشباب هم الشباب... طائشون، لقد كنت شابًا يومًا ما يا سيدي، وعلى المرء أن يمر بسنوات التدريب... اعترف الآن: نساء؟»

«كلا، ليست النساء...»

عبس السيد ريسي: «ولا هذه! أنفقت كل المال لشراء اللوحات إذن؟ حسنٌ، لا تقل لي شيئًا الآن... سأعود إلى البيت... سأعود إلى البيت...»، وألقى نظرة أخيرة غاضبة إلى الغرفة: «معرض ريسي! هذه الحزمة من العظام وثياب المهرجين المبهرجة! ناهيك ببقيتها، فليس بينها امرأة كاملة الجسم. أتعلم ما تشبه مادوناتك يا بني؟ ما من واحدة منها إلا وتشبه شبهًا سيئًا المسكينة تريشي كِنت... عليّ القول إنك استأجرت نصف رسامي الإعلانات في أوروبا ليرسموا رسمة لها من أجلك... إن تخيلت أنك تريد ذلك... كلا يا سيدي، لا أحتاج إلى مساعدتك»، زمجر السيد ريسي متثاقلًا بجسمه الضخم، متألمًا عبر الردهة. ثم رمق لويس بنظرة حارقة أخيرة من العتبة: «ولأجل ذلك سحبت كل أموالك؟ كلا، سأعود إلى البيت وحدي».

لم يمت السيد ريسي إلا بعد انقضاء قرابة العام، لكن نيويورك شهدت أن مسألة اللوحات هي ما قتله.

فقد أرسل في طلب محاميه في اليوم الذي أعقب المرة الوحيدة التي وقعت عينه فيها على اللوحات، وعُرف أن لديه وصية جديدة. ثم رقد في فراشه عندما عاودته آلام النقرس، وسرعان ما اشتدت وطأتها، فرأى في تأجيل السيدة ريسي الحفلة التي أزمعت إقامتها ذلك الخريف لافتتاح المعرض أمرًا «لائقًا». وتمكنت العائلة بهذا من تجاوز السؤال حول اللوحات في صمت، لكنها خارج منزل آل ريسي، حيث لم يُتحدث عنها قط، كانت موضوعًا معتادًا خصبًا للنقاش ذلك الشتاء.

لم يرها إلا شخصان، إلى جانب السيد ريسي، أحدهما السيد دونلدسن كِنت، وحظي بهذا الشرف لأنه سافر مرة إلى إيطاليا، وأما الآخر فهو السيد ريدي الوكيل الذي فك تغليف اللوحات. أجاب السيد ريدي عندما حاصره أبناء عمومة السيد ريسي وأصدقاء الأسرة القدامى بتواضع فريد: «حسنٌ، الحقيقة أنني لم أتلق تعليمًا يخولني إيجاد الفرق بين لوحة وأخرى عدا حجمها، وقد أثارت هذه عجبي لأنها صغيرة، بل لعلي أقول إنها بالغة الصغر...»

قيل إن السيد كِنت أفضى بمكنون صدره إلى السيد ريسي بكثير من الصراحة، بل إنه تمادى -كما أشيع- بقوله إنه لم ير قط أي لوحة في إيطاليا مماثلة للوحات التي جلبها لويس، وتجرأ

على الشك في أن تكون جُلبت من هناك. واتخذ في العلن موقفًا ملتبسًا ظُن خطأ على أنه حكمة، لكنه لم ينبع إلا من خوف، ولم ينل أحد منه يومًا إلا رأيًا حذرًا: «إن الأطراف ليسوا غاضبين البتة».

قيل إن السيد ريسي لم يجرؤ على استشارة آل هزرد، فقد جلب الشاب جون هزرد لوحة لرافائيل، وكان صعبًا تجنب المقارنة التي ستكون مريرة جدًا. لم يشر السيد ريسي قط إلى معرض ريسي أمامهم ولا أمام غيرهم. وتبيّن عند فتح وصيته أنه أورث اللوحاتِ ابنَه، وترك بقية الأملاك لابنتيه طبعًا. كانت معظم العقارات ملكًا للسيدة ريسي، ولكنها نفذت أوامره كما هو معروف، ومن بين هذه الأوامر أن تذوي بعد ستة أشهر من ترمّلها. وبعد أن سُجّيت إلى جانب زوجها في فناء كنيسة ترنتي، وُجد في وصيتها (التي كُتبت في الأسبوع نفسه الذي كتب فيه السيد ريسي وصيته، وبإملاء منه) أنها تخصص خمسة آلاف دولار في العام للويس طوال حياته، أما بقية الثروة، التي جعلها حرص السيد ريسي وحسن إدارته من أكبر الثروات في نيويورك، فقد تقاسمتها البنتان اللتان تزوجت إحداهما بابنٍ لكِنت، وتزوجت الأخرى بابنٍ لهزرد، وهي سارا آن (التي لم تكن يومًا أثيرة عند لويس)، وكانت ميالة للقول في السنوات اللاحقة: «أوه، لا لم أحسد أخي المسكين على هذه اللوحات القديمة المضحكة قط؛ إذ نملك لوحة لرافائيل كما ترى».

وقع المنزل في ناصية الجادة الثالثة والشارع العاشر، وقد صار مؤخرًا ملكًا للويس، نصيبه من أملاك نسيب بعيد كتب «وصية على طراز وصايا نيويورك القديمة»، حصل أقرباؤه

بموجبها على نصيب وفقًا لقرابتهم. كانت المنطقة قديمة والبيت في حال سيئة، لكن السيد والسيدة لويس ريسي، اللذين عاشا منذ زواجهما في عزلة في تاري تاون، انتقلا إليه في الحال.

أثار انتقالهما قليلًا من الاهتمام. تزوج لويس بتريشي كنت خلال عام من رحيل أبيه. لم يحبذ السيد والسيدة كِنت هذا الزواج، بل تماديا بالقول إن ابنة الأخ قد تتزوج زواجًا أفضل. ولكن لما كان أحد ابنيهما لم يتزوج بعد وهو يظهر ميلًا للتعاطف مع تريشي، فقد أذعنا للرأي الحكيم بأن زواجها هذا أفضل من إيقاع بِل في شباكها.

مضى على زواج لويس ريسي أربع سنوات، وسقطا خلال ذلك الوقت من ذاكرة نيويورك تمامًا، كأنهما أتمّا في منفاهما نصف قرن. لم يحدِث أي منهما أثرًا عظيمًا هناك، فما كانت تريشي إلا سندريلا آل كِنت، ومكانة لويس قصيرة الأجل، بوصفه وريث ملايين آل ريسي، قد أزالها الحدث المؤلم الذي أسفر عن حرمانه منها.

كانا يعيشان حياة بعيدة عن الناس، فصار ذلك ديدنهما. ولما أعلن لويس أنه ورث منزل العم إبنزر لم ترفع زوجته نظرها عن بطانية الطفل التي تطرزها.

«بيت العم إبنزر في نيويورك؟»

فأخذ نفسًا عميقًا وقال: «سأتمكن من عرض اللوحات».

فتركت البطانية: «آه يا لويس، أسنعيش هناك؟»

«من غير شك. لكن البيت كبير جدًّا، وسأحول غرفتيّ الناصية في الطابق الأرضي إلى معرض. إنهما حسنتا الإضاءة. وفيهما سُجّي النسيب إبنزر».

«أوه يا لويس». لو كان لشيء أن يجعل لويس ريسي يؤمن بقوة إرادته، لكان موقف زوجته. فسماعه همهمة الاستسلام والإذعان كان كفيلًا بإشعاره بنمو قوة والده الطاغية في داخله، لكنها مصحوبة بأمنية أن يستغلها استغلالًا أكثر إنسانية.

«ألن تحبي ذلك يا تريشي؟ أعرف أن المكان هنا مضجر لك».

فتحمست وقالت: «مضجر؟ معك يا عزيزي؟ ثم إني أحب الريف، لكني سأحب الشارع العاشر أيضًا. لكن... ألم تقل إنه بحاجة إلى الإصلاح؟»

هز رأسه بحزم: «سأقترض مالًا لإصلاحه إن اضطررت»، وقال بعد أن أخفض صوته، «سأرهن اللوحات».

فرأى عينيها تغرورقان: «أوه، لكن هذا لن يحدث! ما زال عندي كثير من الأساليب التي تمكّنني من التوفير».

وضع يده في يدها وأدار جانب وجهه نحوها، إذ عرف أنه سيكون أقوى مما لو أدار لها كامل وجهه. لم يكن واثقًا بأنها فهمت فكرته حول اللوحات، بل لم يكن واثقًا بأنه تمنى لو فهمت. أخذ يتردد إلى نيويورك كل أسبوع، شاغلًا نفسه بخطط غامضة وجادة، كالوصوف الكتابية والمعاملات التجارية ذات الأسماء الطويلة، أما تريشي فقد جلست في تاري تاون، خلال أشهر الصيف الحارة، وانتظرت ولادة الطفل.

ولدت طفلة صغيرة أواخر الصيف وعُمدت باسم لويزا، ولما بلغت من العمر بضعة أسابيع غادر آل لويس ريسي الريف إلى نيويورك.

«الآن!»، قال لويس في نفسه وهم يدرجون على حجارة الشارع العاشر، متجهين نحو منزل النسيب إبنزر.

وقفت العربة، ومد يده لزوجته وتبعتهما المربية مع الطفلة ووقفوا كلهم ونظروا إلى واجهة البيت.

«أوه يا لويس...»، قالت تريشي لاهثة، وندّ عن لويزا الصغيرة بكاء مؤازرة.

فوق الباب، فوق باب النسيب إبنزر المحترم المحافظ شديد الانعزال، عُلقت لافتة كبيرة كتب عليها بأحرف ذهبية كبيرة على خلفية سوداء ما يأتي:

معرض الفن المسيحي

مفتوح أيام الأسبوع من الساعة 2 إلى 4.

رسم الدخول 25 سنتًا. وللأطفال 10 سنتات.

رأى لويس زوجته وقد شحب وجهها، فضغط ذراعها في ذراعه. «صدقيني إنها الوسيلة الوحيدة للتعريف باللوحات، ولا بد من أن تُعرف»، قال مرتعشًا من حماسه القديم.

«أجل يا عزيزي، طبعًا. ولكن... للجميع؟ للعموم؟»

«ما الفائدة إن اكتفينا بعرضها على أصدقائنا؟ لقد عرفنا رأيهم مسبقًا».

تنهدت زافرة إدراكها: «ولكن... رسم الدخول...»

«سيكون الدخول مجانيًا إن استطعنا تحمل كلفة ذلك لاحقًا. أما الآن...»

«أوه يا لويس، إنني أتفهم تمامًا»، وتشبثت به وبالطفلة التي لم تزل معترضة في يقظتها، وتجاوزت عتبة مهيبة تحت اللافتة البغيضة.

«سأتمكن أخيرًا من رؤية اللوحات في إضاءة حسنة!»، قالت واستدارت في الردهة وألقت بذراعيها حول زوجها.

«هذا كل ما تحتاج إليه لتنال التقدير»، أجاب وقد بث تشجيعُها الحماسَ في نفسه.

منذ انسحاب لويس من العالم، صار من عادته ألا يقرأ الصحف اليومية، وحذت زوجته حذوه متلهفة، فعاشا في دائرة ضيقة صغيرة من السعادة، كأن الكوخ في تاري تاون يقع في كوكب آخر أسعد. غير أن لويس بعد يوم من افتتاح معرض الفن المسيحي، رأى أن من واجبه التخلي عن موقفه، فانطلق سرًا واشترى الصحف الكبرى. وعندما دخل بيته اتجه من فوره إلى غرفة الطفلة، حيث عرف أن تريشي تحمّم الطفلة في تلك الساعة. لكن الوقت متأخر أكثر مما ظن، فقد انقضى ذلك الطقس، ورقدت الطفلة نائمة في مهدها البسيط، وجلست الأم قرب النار تخبئ وجهها بين يديها، فعرف لويس في الحال أنها رأت الصحف.

قال متلعثمًا: «لا يجدر بك يا تريشي... أن تظني أن لهذا أي عاقبة...»

رفعت وجهًا ملطخًا بالدمع: «أوه يا عزيزي، حسبتك لا تقرأ الصحف أبدًا».

«ليس ذاك من عادتي. لكني وجدت أن من واجبي...»

«أجل، أفهمك. ولكن كما قلت أي نتيجة معقولة...؟»

«لا شيء البتة، علينا أن نتحلى بالصبر ونستمر».

ترددت ثم طوقته بذراعيها ووضعت رأسها على صدره «لكني

أيها الأحب كنت أعيد حساب النفقات، بحرص شديد، وأخشى أن أجر البواب والحارس... خاصة أن المعرض مفتوح للعامة كل يوم، حتى إن تخلينا عن نار التدفئة في كل مكان إلا غرفة الطفلة».

«لقد فكرت بهذا أيضًا، وسأكون أنا الحارس والبواب».

ألقى نظرة إليها وهو يتحدث، وقال في نفسه: «إن هذا هو اختباري». شحب وجهها تحت سمرتها المتقدة، واتسعت عيناها في محاولة منها لكبح دمعها. ثم قالت جزلة: «سيكون هذا... ممتعًا جدًا، أليس كذلك يا لويس؟ سماع ما يقوله الناس... فإن عرفوا اللوحات أكثر وفهموها فلن يترددوا في قول أشياء مثيرة... أليس كذلك؟»، فاستدارت وحملت لويزا النائمة، «أيمكنهم... أوه أيتها الحبيبة الحبيبة؟»

أشاح لويس بوجهه أيضًا. لن تقدر امرأة أخرى في نيويورك على هذا. وتخيل سماع المدينة بأسرها تردد هذه الفضيحة الجديدة لعرضه اللوحات بنفسه، وهي، التي تمنعها رهافة شعورها من السخرية، والتي تنجرف مع الحماس الرسولي، كم ستزن هذه الأقاويل الساخرة في مسمعيها! لكن غصته لم تدم طويلًا، فقد استحوذت عليه فكرة وحيدة وقتًا طويلًا بأن يثأر لنفسه بإشهار لوحاته، ولم يعد يستطيع تركيز اهتمامه على أمور أقل شأنًا. لم يكن ليخشى سخرية الصحفيين الجهلة، ما إن يطلع على اللوحات أناسٌ مثقفون وأذكياء، وستتحدث اللوحات عن نفسها، وخاصة إن كان بالقرب لتفسيرها.

8

زار المعرض عدد كبير من الناس لأسبوع أو اثنين، ولكن اللوحات فشلت في أن تدلي برأيها، حتى بوجود لويس وشرحه.

خلال الأيام الأولى، والفضل للفكرة غير المسبوقة في إقامة معرض يدخل إليه برسم، ولسخرية الصحف، امتلأ معرض الفن المسيحي بالفضوليين المزعجين، واستدعيت شرطة المدينة المدهوشة لتهدئة تعليقاتهم والسيطرة على تحركاتهم. ولكن اسم المعرض «الفن المسيحي» سرعان ما هدأ هذا النوع من المتفرجين، وحل محلهم حشد محترم هادئ تجول بلا مبالاة في الغرف وخرج منها متذمرًا بأن الأمر لم يستحق المال. لكن هؤلاء اختفوا أيضًا، وتقلب التيار وكان الانحسار سريعًا. كان لويس يظل جالسًا كل يوم بين الثانية والرابعة يرتجف بين نفائسه، أو يذرع بصبر المعرض المهجور، ولن يعترف بهزيمته ما دامت ثمة فرصة لأي قادم، فقد يكون الزائر التالي هو من يفهم حقًا.

ذرع الغرف هكذا ذات نهار مثلج من شهر فبراير في وحدة تامة لما ينوف على الساعة عندما توقفت عجلات عربة أمام الباب. فهرع لفتحه، فدخلت أخته سارا آن هزرد بكثير من حفيف الحرائر.

أحس لويس لهنيهة بما اعتاد أن يشعر به أمام نظرات أبيه. لقد منح الزواج والملايين سارا آن ذات الوجه القمري شيئًا من بغض آل ريسي، لكن أخاها نظر إلى عينيها الفارغتين، وظلت عيناه ثابتتين.

«مرحبًا يا لويس»، قالت السيدة هزرد بشيء من العبوس الذي يتكلف الابتسام، وحبست أنفاسها.

«أهلًا يا سارا آن... إني سعيد بقدومك لتلقي نظرة إلى لوحاتي».

«لقد أتيت لرؤيتك أنت وزوجتك»، زفرت زفرة عصبية أخرى، وهزت كشاكشها وأضافت على عجل، «ولأسألك كم سيستمر هذا العرض...»

«المعرض؟»، ابتسم لويس، وأومأت موافقة محمرة.

«حسنٌ، لقد قل عدد الزوار في الآونة الأخيرة قلة ملحوظة...»

«حمدًا للسماء!»، قاطعته قائلة.

«ولكن ما دمت أشعر أن أحدًا يرغب في القدوم، فسأكون حاضرًا لفتح الباب كما ترين».

ألقت حولها نظرات مرتعشة وقالت: «أتساءل إن كنت مدركًا يا لويس...؟»

«أوه، كل الإدراك».

«فلماذا تستمر إذن؟ ألا يكفي... ألست راضيًا؟»

«بالأثر الذي أحدثته [اللوحات]؟»

«بل بالأثر الذي تركته أنت في أسرتك وكل نيويورك، بتلطيخك ذكرى بابا المسكين».

«لقد أورثني بابا اللوحات يا سارا آن».

«أجل، ولكن ليس لتجعل من نفسك مروجًا لها».

سمع لويس هذا بحياد «أأنت واثقة؟ بل لعل الأمر على نقيض ذلك، أعني أنه أورثني إياها لهذا السبب».

«أوه، لا تكِل مزيدًا من الإهانات لذكرى أبيك! فالأمور سيئة دون حاجة إلى هذا. لست أدري كيف تسمح زوجتك بهذا. أتفكر حقًا في الذل الذي تعرّضها له؟»

ابتسم لويس ابتسامة جافة أخرى «لقد اعتادت تلقي الإهانات. لقد عوّدها آل كنت ذلك».

احمرت سارا آن «لست أدري لمَ أبقى لأسمع هذا الكلام. لكني جئت بموافقة زوجي».

«أتحتاجين إلى هذا لتأتي لزيارة أخيك؟»

«لقد احتجت موافقته لـ... لأعرض عليك هذا العرض، الذي نال موافقته».

نظر إليها لويس مدهوشًا، فاحمر وجهها حتى كشاكش قبعتها الحريرية.

«أجئت إلى هنا لتعرضي عليّ عرضًا من أجل مجموعتي؟»، سألها ساخرًا.

«يبدو أنك تستمتع بالتلميحات السخيفة. غير أن أي شيء أفضل من استخفاف العامة باسمِنا». وألقت على اللوحات نظرة أخرى مرتعشة، وقالت «جون وأنا مستعدان لمضاعفة المخصصات التي تركتها لك أمنا، شرط أن... أن ينتهي هذا إلى الأبد. وأن تنزل تلك اللافتة الفظيعة الليلة».

بدا لويس كأنه يفكر في العرض قليلًا. «شكرًا جزيلًا يا سارا آن»، قال أخيرًا، «لقد تأثرت... تأثرت وفوجئت بأنك أنت وجون قدمتما هذا العرض. ولكن لعلك، قبل أن أرفضه، تقبلين عرضي. إني أعرض عليك أن أريك لوحاتي. إن رأيتها فإني أحسبك ستفهمين...»

تراجعت السيدة هزرد بسرعة، وقد تهاوت مسحة العظمة «أرى اللوحات؟ أوه، شكرًا لك... لكني أستطيع رؤيتها بوضوح من هنا. ثم إني لا أدعي أنني أحسن الحكم...»

«فتعالي إذن لتري تريشي والطفلة»، قال لويس بهدوء.

نظرت إليه محرجة «أوه، شكرًا لك»، وتلعثمت ثانية ولما استعدت للحاق به قالت: «أجوابك هو الرفض حقًا يا لويس؟ فكر يا عزيزي! لقد قلت بنفسك إن الزوار قليلون، فما ضر لو أغلقت المكان؟»

«وماذا أفعل حين يأتي الرجل الذي يفهم غدًا؟»

رفعت السيدة هزرد كشاكشها يائسة وتبعته بصمت.

«يا إلهي... ميري آدلين؟»، قالت، وصمتت بسرعة عند عتبة غرفة الطفلة. جلست تريشي، كعادتها، تمسك بالطفلة قرب النار، ومن مقعد خفيض أمامها نهضت سيدة تلبس ثيابًا فاخرة مزينة بالفراء والريش كثياب السيدة هزرد، ولكن بالقليل جدًا من الثقة بالذات، ورفعت كشاكشها. جرت السيدة كنت إلى لويس ووضعت خدها الممتلئ على خده، وحيت تريشي سارا آن.

«ما علمت أنك هنا يا ميري آدلين»، همهمت السيدة هزرد. بدا واضحًا أنها لم تفصح عن مشروعها الخيري لأختها، واستاءت حين خطر لها أن لويس قد يفعل ذلك. وتابعت قولها «لقد مررت للحظات فحسب، لأرى تلك الطفلة الملاك الحبيبة الصغيرة...»، وطوقت الطفلة المذهولة بكشاكشها وحفيف ثوبها.

«إني سعيدة جدًّا برؤيتك هنا يا سارا آن»، أجابت ميري آدلين متبسطة.

«آه، ليس تأخري في المجيء إلى هنا ناجم عن عدم رغبتي في ذلك، وآمل أن تريشي تعرف هذا. لكن مشاغل بيت كبيتي...»

«أجل، كما أن الخروج كان صعبًا جدًّا في الطقس السيئ»، ردت تريشي متعاطفة.

رفعت السيدة هزرد حاجبيها على طريقة آل ريسي «أكان كذلك حقًا؟ لا يكاد المرء يلاحظ الطقس السيئ وأربعة جياد تجر عربته... أوه، يا للطفلة الجميلة الجميلة الجميلة! ميري آدلين»، تابعت سارا آن قولها مستديرة نحو أختها بشدة، «يسعدني أن أعرض عليك مقعدًا في عربتي إن أردت المغادرة».

لكن ميري آدلين كانت امرأة متزوجة أيضًا. رفعت رأسها البسيط وأزعجت نظرتها أختها كثيرًا. «إن عربتي عند الباب، شكرًا جزيلًا لك يا سارا آن»، قالت وسحبت سارا آن المرتبكة ذراع لويس. ولكن بعد دقيقة رجعت العادة القديمة في الخضوع، وقد صارت هيئة ميري آدلين اللطيفة هيابة كطفل، وجمعت عباءتها على عجل.

«لعلي تعجلت كثيرًا... أنا واثقة أنها قصدت خيرًا»، قالت متجاوزة لويس حين استدار ليصعد الدرج، ووقف مبتسمًا يراقب أختيه تغادران معًا في عربة آل هزرد.

عاد إلى الغرفة حيث لم تزل تريشي تهدهد طفلتها.

«حسنٌ يا عزيزتي»، قال، «ما الذي أتى بسارا آن برأيك؟»، وردًا على نظرتها المتسائلة قال «لترشوني لئلا أعرض لوحاتي!»

اتخذ امتعاض زوجته الهيئة التي أرادها، بل إنها واصلت بضحكتها المداعبة وعانقت الطفلة عناقًا أقوى. غير أن رغبة قوية في اختبار صدقها اختبارًا أقوى راودت لويس.

«عرضت مضاعفة مخصصاتي هي وجون إن أنزلت اللافتة!»

«لن يلمس أحد تلك اللافتة»، قالت تريشي حانقة.

«إلا إن فعلت»، قال زوجها باسمًا.

فاستدارت ونظرت إليه بعينين قلقتين «لويس... أنت؟»

«أوه يا عزيزتي، إنهما محقان. لن أستطيع المضي إلى الأبد»، وواصل ضغطه عليها ووضع ذراعه حولها وحول الطفلة، «لقد كنتما أشجع من جيش من الأبطال، لكن هذا لا يكفي. إن المصروفات أكثر بكثير مما حسبت. وأنا... لا أستطيع أن أرهن اللوحات. لن يقبلها أحد».

فردت على هذا بسرعة: «كلا، أعرف. هذا ما جاء بميري آدلين».

تدفق دم الغضب إلى صدغي لويس «ميري آدلين... كيف سمعت بالأمر بحق الشيطان؟»

«أحسبها سمعت به من السيد ريدي. ولكن لا يجدر بك أن تغضب. لقد كانت بالغة اللطف، ولم تردد أن تغلق المعرض يا لويس... أعني ما دمت تواصل إيمانك به .. ستقرضنا هي ودونلد كِنت ما يكفينا للاستمرار عامًا آخر، وهذا ما جاءت لتقوله».

لأول مرة منذ بدأ النزاع، غص حلق لويس ريسي بالدموع. يا لأخته ميري آدلين المخلصة! تذكرها فجأة وهي تسرق من البيت في هاي پوينت قبل طلوع الشمس، لتحمل سلة من بقايا الطعام للسيدة إدغار پو المسكينة، التي تحتضر من الجوع آخر الحارة... فضحك عاليًا من فرحه.

«يا للعزيزة ميري أدلين! كم هذا سخاء منها! ما يكفي لمنحي سنة أخرى...»، ضغط وجنته المبللة على وجنة زوجته في صمت طويل، «حسنٌ يا عزيزتي»، قال أخيرًا، «القول قولك، فهل نقبل؟»

وأبعدها عنه متسائلًا، على بعد ذراع، وقابلت ابتسامتها الصغيرة الباهتة ابتسامته وامتزجت بها.

«نقبل طبعًا!»

9

لم يبق من أسرة ريسي التي علا شأنها في أربعينيات نيويورك إلا اسمًا واحدًا في صباي بعد نصف قرن. تلاشى آل ريسي، مثل الكثيرين من ذرية المجتمع المستعمر الصغير الفخور، ونسيهم الجميع إلا قلة من السيدات العجائز، وواحد أو اثنين من علماء الأنساب، وقندلفت كنيسة ترنتي الذي احتفظ بسجل لقبورهم.

ما زال تتبع دم ريسي ممكنًا في عدد من الأسر المتصاهرة: آل كنت وآل هزرد، وآل كوزبي والكثير غيرهم، الذين يفخرون بنسبهم إلى أحد موقعي وثيقة الاستقلال، لكنهم لا يكترثون بمصير ذريته ولا يثير هذا فضولهم. تلاشى أهل نيويورك مثل حفنة غبار، وقد عاشوا في بحبوحة وأنفقوا أموالهم بسخاء، حين اختفوا من مقاعدهم في الكنيسة وموائد العشاء.

إن صادف أنني أعرف الاسم منذ شبابي، فذلك عائد في الأغلب إلى أن صاحبته كانت نسيبة بعيدة لأمي، التي اصطحبتني أحيانًا لرؤيتها في الأيام التي ظننت أني سأكون فيها مؤدبًا لأنها وعدتني بحلوى في اليوم التالي.

عاشت الآنسة أليثيا ريسي العجوز في بيت سمعتهم دومًا يقولون عنه بيت «ابن العم إبنزر»، ويبدو أنه كان في أيامه تحفة لعمارة المنازل، لكنه الآن يعد أثرًا بشعًا مخيفًا من زمن ولّى. كانت الآنسة أليثيا ريسي، التي أقعدتها الرثّية، تجلس في الطابق العلوي في غرفة كبيرة باردة أثثت أثاثًا رديئًا من طاولات ذات زخرفة خرزية، وخزائن من شجر الورد، ولوحات

شخصية لأشخاص شاحبي الوجوه يلبسون ثيابًا غريبة. أما هي فكانت ضخمة كئيبة المزاج، تعتمر قبعة من الدانتيلا السوداء المكشكشة، كما أنها شديدة الصمم فبدت ناجية من أيام منسية، أو مثل حجر الرشيد الذي نسيت العلامات المؤدية لفهمه. كانت أمي، وهي التي نشأت في ظل تلك التقاليد المتلاشية وتعرف حق المعرفة إلى من تشير الآنسة ريسي بحديثها عن سارا آن أو ميري أدلين، تجد الخطاب معها صعبًا ومضنيًا، وكانت مقاطعاتي الطفولية تلقى تشجيعًا بدلًا من أن تكبح لجامها.

في إحدى تلك الزيارات، وقع نظري الذي يجول بلا راحة بين اللوحات الشخصية الشاحبة، رسمًا بألوان ثلاثة لفتاة صغيرة ذات جبهة كبيرة وعينين داكنتين، تلبس ثوبًا ذا نقوش مربعة وميدعة مطرزة، وتجلس على ضفة معشبة. سحبت كمّ أمي لأسألها من تكون، فأجابتني: «آه، تلك هي الصغيرة المسكينة لويزا ريسي، التي ماتت من السل. كم كان عمر لويزا عندما ماتت يا قريبتي أليثيا؟»

واستغرق إدخال هذا السؤال البسيط إلى عقل القريبة أليثيا عشر دقائق مضنية، وبعدما انتهى ذلك قالت الآنسة ريسي تعلوها مسحة من الحزن الغامض: «أحد عشر» بصوت أجش. وكان الإرهاق قد نال من أمي ورغبت عن المواصلة، فاستدارت إلي لتضيف بواحدة من ابتساماتها السرية التي يبقيها أحدنا للآخر: «كانت الطفلة المسكينة التي سترث معرض ريسي». لكن المعلومة لم تثر ولدًا صغيرًا في عمري، ولم أفهم سعادة أمي المضمرة.

عـاد هـذا المشـهد إلـى ذاكرتـي فجـأة العـام الماضـي، عندمـا ذهبـت، فـي واحـدة مـن زياراتـي غيـر المنتظمـة إلـى نيويـورك، لتنـاول العشـاء مـع صديقـي القديـم المصرفـي جـون سـلون، ووقفـت وقفـة المدهـوش أمـام رف المدفـأة فـي مكتبتـه الجديـدة.

«يا للروعة!»، قلت ناظرًا إلى اللوحة فوق المدخنة.

عـدل مضيفـي كتفيـه ودس يديـه فـي جيبيـه، ولبـس لبـوس التواضـع الـذي يظنـه النـاس لائقًـا إن أثـارت مقتنياتهـم الإعجـاب. «لوحـة ماكرينـو دالبـا؟[1] نـ... نعـم، لقـد كانـت الوحيـدة التـي اسـتطعت الفـوز بهـا مـن مجموعـة ريسـي».

«الوحيدة؟ حسن...»

«آه، ولكـن لا بـدّ أنـك رأيـت لوحـة مانتينـا وغوتـو دو بوندونـي وبييـرو ديـلا فرانشيسـكا... اللعنـة، إحـدى أجمـل لوحـات بييـرو ديـلا فرانشيسـكا فـي العالـم... فتـاة برسـم جانبـي، وعلـى رأسـها شـبكة مـن اللآلـئ وخلفهـا زهـرة الحـوض، وقـد عـادت إلـى أوروبـا... إلـى المعـرض الوطنـي كمـا أظـن [فـي لنـدن]. وأمـا لوحـة كارپاتشـيو، لوحـة القديـس جـورج الصغيـرة، فقـد ذهبـت إلـى كاليفورنيـا... يـا إلهـي!». جلس متنهـدًا تنهيـدة رجـل جائـع أُبعـد عـن مائـدة عامـرة، «حسـنٌ، لقـد كـدت أفلـس لشـرائي هـذه!»، قـال هامسًـا كأنمـا فـي تلـك الحقيقـة شـيء مـن العـزاء.

أخـذت أعـود إلـى ذكرياتـي القديمـة طمعًـا فـي الحصـول علـى لمحـة ممـا وصفـه بمجموعـة ريسـي بنبـرة توحـي بإشـارته إلـى أشـياء يعرفهـا عشـاق الفـن.

---

(1) رسام إيطالي من عصر النهضة.

سألته فجأة: «ألم تكن تلك لوحات لويزا الصغيرة المسكينة بأي حال من الأحوال؟»، وقد تذكرت ابتسامة أمي المتشككة.

نظر إليّ سلون حائرًا: «ومن تكون لويزا الصغيرة المسكينة بحق السماء؟»، ودون أن ينتظر ردي تابع قائلًا: «كانت تلك مجموعة الحمقاء نيتا كوزبي حتى عام مضى، ولم تعلم بذلك».

تبادلنا النظر مستفهمين، وحار صديقي لجهلي، وغرقت أنا في محاولة معرفة نسب نيتا كوزبي، وعرفته أخيرًا. «نيتا كوزبي... أتعني نيتا كنت، التي تزوجت جيم كوزبي؟»

«إنها هي. لقد كانا نسيبين لآل ريسي، وقد ورثت تلك اللوحات».

واصلت تأملي: «أردت بشدة الزواج بها في العام الذي غادرت فيه هارڤرد»، قلت لنفسي أكثر منه قول لمستمعي.

«حسنٌ، لو أنك فعلت لنلت جائزة الحماقة، إلى جانب إحدى أجمل مجموعات اللوحات الإيطالية الأصلية في العالم».

«في العالم؟»

«حسنٌ، انتظر حتى تراها، إن لم ترها سلفًا، وأستطيع القول إنك لم تفعل ولا يمكن أنك فعلت. كم مضى على إقامتك في اليابان؟ أربع سنوات؟ ظننت ذلك. حسنٌ، لقد عرفت نيتا بالأمر الشتاء الماضي فحسب».

«عرفت بماذا؟»

«ما كان في علية أليثيا ريسي. لا بد أنك تذكر الآنسة العجوز التي سكنت ذلك المنزل البشع في الشارع العاشر حين كنا أطفالًا. كانت قريبة لأمك، أليس كذلك؟ عاشت الحمقاء

العجوز هناك زهاء نصف القرن، مع لوحات يقدر ثمنها بخمسة ملايين دولار محفوظة في العلية فوق رأسها. يبدو أنها ظلت هناك منذ موت الشاب ريسي المسكين الذي جمعها في إيطاليا قبل سنوات وسنوات. لا أعرف كثيرًا عن القصة، ولم أكن يومًا ضليعًا بالأنساب، وكنت أرى آل ريسي يكتنفهم الغموض. لقد كانوا أنسباء للجميع، ويخايل للمرء أن هذه وظيفتهم الأساسية إن لم تكن الوحيدة. أوه، أحسب أن مبنى ريسي سمّي تيمنًا بهم، سوى أنهم لم يبنوه!

ولكن ثمة شاب أود معرفة المزيد عنه. كل ما بوسع نيتا أن تعرفه (أو تهتم به في هذا الشأن) أنه حين كان شابًا ولم يكد يتخرج في الجامعة أرسله أبوه إلى إيطاليا لشراء لوحات لعظماء الفنانين -ولا بد أن هذا حدث في الأربعينيات- وعاد بهذه المجموعة الاستثنائية الفائقة الروعة... ولد بذلك العمر! وحرمه الرجل الكبير من الميراث لجلبه هذه الترّهات. مات كل من الشاب وزوجته بعد سنوات طويلة. ويبدو أنه تعرض للسخرية لشرائه لوحات كهذه، فابتعد وزوجته وعاشا كالراهبين في أعماق الريف. كان ندى أليثيا لوحات شخصية غريبة طيفية لهما في غرفة نومها. عرضت نيتا عليّ إحداها في آخر مرة ذهبت للقائها، كانت رسمة مثيرة للشفقة للطفلة الوحيدة، فتاة مهزولة صغيرة ذات جبهة عريضة. يا إلهي، ولكن لا بد أن هذه هي لويزا الصغيرة المسكينة التي تتحدث عنها!»

هززت رأسي موافقًا. «في ثوب ذي نقوش مربعة وميدعة مطرزة؟»

«أجل، شيء من هذا القبيل. حسنٌ، بعدما ماتت لويزا ووالداها، أحسب أن اللوحات صارت من نصيب الآنسة ريسي العجوز. على أي حال، في وقت ما... ولا بد أن هذا أقدم مما يمكننا أنا وأنت أن نتذكر... لقد ورثت السيدة العجوز اللوحات مع بيت الشارع العاشر، وحين ماتت، قبل ثلاث سنوات أو أربع، وجد أقرباؤها أنها لم تصعد قط إلى العلية لتراها».

«ثم...؟»

«ثم ماتت دون أن تترك وصية، وتبين أن نيتا كِنت –نيتا كوزبي– هي أقرب الأقارب. لم يكن في المنزل ما يستحق (أو هذا ما ظنوه). ولما كان آل كوزبي معسرين كحالهم دومًا، فقد قرروا بيع بيت الشارع العاشر، وأرسلت اللوحات إلى المزاد مع بقية المتاع. ولكن لم يحسب أحد أنها ستجلب شيئًا، وقال قيّم المزاد إنها إن حاولت بيع اللوحات مع البسط والأغطية وعدة المطبخ، فإن هذا سيقلل من سعر كل شيء. ولما كان لدى آل كوزبي بعض الجدران العارية التي تحتاج إلى كساء، فقد أعادوا المجموعة. كانت زهاء ثلاثين لوحة، وقرروا تنظيفها وتعليقها. قالت نيتا: «برغم كل شيء، ومما استطعت رؤيته من خلال بيوت العناكب فإن بعضها يبدو نسخًا ممتازة من لوحات إيطالية قديمة». ولأنها لا تملك المال فقد قررت تنظيفها في البيت، عوضًا عن إرسالها إلى خبير. وذات يوم، في أثناء تنظيفها اللوحة الماثلة أمامك مشمّرة عن ساعديها، جاء الرجل الذي يزورهم دومًا في مناسبات كهذه، الرجل العارف. وفي هذه الحال كان شابًا هادئًا على صلة بمتحف اللوفر، وجلب لها رسالة من باريس، وقد دعته إلى إحدى ولائم

عشائها الغبية. أبلغت بوصوله وحسبت أن من الطريف أن تريه ما كانت تفعل، فقد كان لها ذراعان جميلتان، إن كنت تذكر. لذا طلبت منه الدخول إلى غرفة الطعام، حيث وجدها مع دلو من الماء الساخن وألواح الصابون، واللوحة على الطاولة. فكان أول ما فعله أن جذب ذراعها الجميلة بقوة خلفت كدمات عليها وهو يصيح: «يا رب السماوات! ليس بالماء الساخن!»

أسند صديقي ظهره متنهدًا تنهيدة متزج فيها الاستياء بالرضا، وجلسنا صامتين ننظر إلى «التحفة» الجميلة فوق رف المدفأة.

«وهكذا حصلت عليها بثمن أرخص قليلًا... لقد زال معظم الورنيش القديم. ولكن لحسن الحظ كانت تلك أول لوحة تهاجمها، أما البقية فلا بد أنك رأيتها... هذا كل ما يمكنني قوله... انتظر. إن لدي القائمة في مكان ما».

وأخذ يفتش عنها، وسألته متذكرًا أني كدت أتزوج نيتا كِنت: «أتعني أن تقول إنها لم تحتفظ بواحدة منها؟»

«أوه، بلى، على هيئة لآلئ وسيارة رولزرايس. ألم تر بيتهم في الجادة الخامسة؟»، أنهى كلامه بابتسامة ساخرة «إن أطرف ما في الأمر أن جيم كان يفكر في الطلاق منها حين عثرت على اللوحات».

«يا للويزا الصغيرة المسكينة»، تنهدت قائلًا.

النهاية

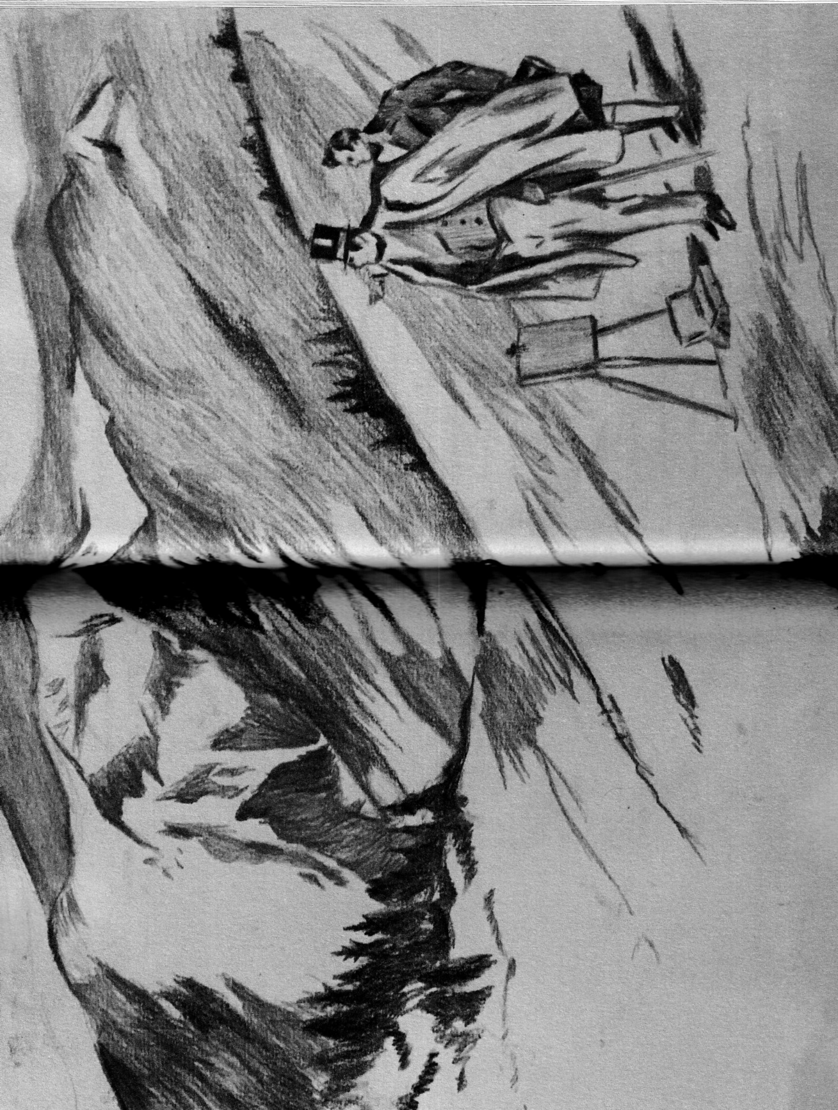

العانس
(الخمسينيات)

القسم الأول

1

في خمسينيات نيويورك القديمة، تصدرت أسر قليلة بتزمتها وثرائها، وكان آل رالستن من بين هذه الأسر.

اختلط الإنجليز المكتنزون والألمان الحمر الأكثر بدانة ليتولد مجتمع متحفظ لكنه مسرف. لقد كان قولهم «إتمام الأمور بسخاء» مبدأ أساسيًا في هذا العالم الحذر، الذي بُني على ثروات المصرفيين وتجار الهند وبنّائي السفن ومجهّزيها. أولئك السِمان بطيئو الحركة، الذين يبدون في أعين الأوربيين نزقين نكدين، لا لشيء إلا لأن تقلبات الطقس قد جردتهم من اللحم الفائض، وشدّت أعصابهم أكثر قليلًا، عاشوا في رتابة أنيقة، لم يعكر صفو سطحها قط أمور غبية تحدث تحت سطح الأرض بين الفينة والأخرى. كانت الأرواح المرهفة في تلك الأيام مثل لوحات مفاتيح مصمتة، يعزف عليها القدر دون صوت.

في هذا المجتمع المصغر، المبني من البيوت المتراصة تراصًا متينًا، ملأ إحدى أكبر المناطق آلُ رالستن وفروعهم. يعود أصل آل رالستن إلى إنجليز الطبقة المتوسطة، ولم يأتوا إلى المستعمرات ليموتوا كرمى لعقيدة، بل ليعيشوا للحصول على حساب مصرفي. وفاقت النتيجة آمالهم، وتخضّب دينهم بنجاحهم. فقد أسقطت كنيسة إنجلترا المشذبة -التي تقوم تحت الاسم الاسترضائي «الكنيسة الأسقفية للولايات المتحدة الأمريكية»- الإشارات الأكثر فظاظة في قداس الزواج، وأُغفلت المقاطع المتوعدة في المذهب الأثناسيوسي، ورأت أن قول «أبانا الذي» أكثر احترامًا من قول

«مَن» في الصلاة الربية[1]، وأنها أنسب لروح التراضي التي رسخ عليها آل رالستن. تحلّت القبيلة برمتها بالنكوص الفطري نفسه من الأديان الجديدة مثلما نكصوا من الأشخاص المهمَلين. ولأنهم تقليديون حتى النخاع، فقد جسدوا العنصر المحافظ الذي يربط المجتمعات مثلما تثبّت أعشابُ البحر الشاطئَ.

يبدو التقليديون من أمثال آل لوڤل أو آل هالسي أو حتى آل ڤاندرغريف، عند مقارنتهم بآل رالستن، لا مبالين غير آبهين بالمال، وطائشين في نزواتهم وترددهم. أدرك جون فردرك رالستن العجوز، المؤسس البدين للسلالة، الفرقَ وأكده لابنه فردرك جون، الذي استشعر فيه ميلًا خفيفًا نحو غير المجرب وغير النافع.

«ليجازف آل لاننغ وآل دوغونت وآل سپندر ويستطلعوا الأمر، فدم طبقة الأعيان يجري في عروقهم، ولا شأن لنا بذلك. انظر إليهم كيف يضمحلون: أعني الرجال. اسمح لأبنائك بالزواج من بناتهم، إن شئت (فهن يتمتعن بالعافية والجمال)، رغم إيثاري أن يتزوج أحفادي من آل لوڤل أو ڤاندرغريف، أو أي أسرة من سلالتنا. ولكن لا تسمح لأبنائك بالذهاب للتسكع قرب شبانهم، في سباق الخيول والجري في الجنوب إلى الـ... السپرنغز، والمقامرة في نيوأورلينز، وما إلى ذلك. هكذا تُنشئ أسرة وتحميها. وهذا ما فعلناه دومًا».

أصغى جون فردرك وأذعن وتزوج من آل هالسي، وحذا

---

(1) المذهب الأثناسيوسي: أحد مذاهب الكنيسة المسيحية. الصلاة الربية: «أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك/ ليأت ملكوتك/ لتكن مشيئتك/ كما في السماء كذلك على الأرض...»

حذو والده مستسلمًا. كان ينتمي إلى الجيل اليقظ من رجال نيويورك الذين بجّلوا هاملتن وخدموا جيفرسن[1]، وتحرّقوا شوقًا لتصميم نيويورك على غرار واشنطن، وعوضًا عن ذلك بنوها على هيئة شبكة، خشية أن يظنهم الناس الذين يزدرونهم سرًا «غير ديمقراطيين». ولأنهم أصحاب دكاكين إلى أبعد حد، فقد عرضوا في واجهات دكاكينهم السلع التي يكثر عليها الطلب، محتفظين بآرائهم الخاصة لمؤخرة المتجر، حيث تفقد شيئًا فشيئًا جوهرها ولونها بفعل قلة الاستعمال.

لم يبق للجيل الرابع من آل رالستن شيء من القناعات عدا حس حاد بالشرف في الشؤون التجارية والخاصة؛ عن حياة المجتمع والوضع الذي يستقون منه آراءهم اليومية من الصحف، والصحف التي يبغضونها. لم يفعل آل رالستن إلا القليل لتحديد مصير بلدهم، عدا تمويلهم القضية[2] عندما صار فعل ذلك مقبولًا. كانوا أقرباء لكثير من الرجال العظماء الذين بنوا الجمهورية، ولكن لم يجعل أي رالستن من نفسه عظيمًا حتى الآن. وكما قال جون فردرك العجوز إن الرضا بثلاثة بالمئة أفضل، فقد رأوا في البطولة صورة من صور المقامرة. ورغم ذلك فقد اكتسبوا ثقلًا في المجتمع لكثرة عددهم وتشابههم. يقول الناس «آل رالستن» إن أرادوا استحداث سابقة، وأقنع إيعاز السلطة هذا

---

(1) ألكسندر هاملتن: أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وتوماس جفرسن: ثالث رؤساء الولايات المتحدة.

(2) المقصود الثورة الأمريكية، التي أسفرت عن استقلال أمريكا عن الحكم البريطاني وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب دامت 8 سنوات.

الجيلَ الثالث بأهميته الكبيرة، وصار للجيل الرابع الذي ينتمي إليه زوج دليا رخاء الطبقة الحاكمة وتزمتها.

أدى آل رالستن، ضمن حدود حذرهم الواسع، التزاماتهم بوصفهم مواطنين محترمين أثرياء. فقد كانوا أعضاء في كل المؤسسات الخيرية القديمة، ومنحوا بسخاء للمؤسسات الناجحة، وكان عندهم أمهر الطهاة في نيويورك، وكلما سافروا خارج البلاد أوصوا على تماثيل للنحاتين الأمريكيين في روما، حيث ذاع صيتهم. عُدّ أول رالستن يعود بتمثال شابًا جامحًا، وحينما أشيع أن النحات قد نفذ عددًا من الطلبات للطبقة الأرستقراطية البريطانية، ساد العائلةَ شعورٌ بأن هذا أيضًا استثمار بثلاثة بالمئة.

رسخت زيجتان من آل ڤاندرغريف الألمان سمات التوفير والعيش الرغد، وأضحت شخصية رالستن العتيدة فطرةً حدّ أن دليا رالستن سألت نفسها أحيانًا إن هي أطلقت ابنها في البرية، أسينشئ نيويورك صغيرة هناك، ويكون عضوًا في كل مجالس الإدارة فيها؟

تزوجت دليا لوڤل من جيمس رالستن في سن العشرين. عُقد القران، الذي وقع في شهر سبتمبر من عام 1840، وفق المراسيم المتبعة، كما جرت العادة يومئذ، في حجرة الاستقبال في منزل العروس الريفي، فيما أصبح يقع الآن على ناصية الجادة (أ) والشارع الواحد والتسعين، المطل على الساوند. وقد اصطحبها زوجها (في عربة الجدة لوڤل صفراء اللون ذات الغطاء القماشي المهدّب) عبر الضواحي الممتدة والشوارع غير الأنيقة التي يظللها اللبلاب، إلى واحد من البيوت الجديدة في غريمرسي

پارك، الذي أخذت طلائع الجيل الأصغر تولع به، وهناك في عمر الخامسة والعشرين استقرت وصارت أمًا لطفلين، لها مصروف جيب سخي، وإجماع عام بأنها إحدى أجمل «العقيلات الشابات» (كما كن يدعين) وأكثرهن شعبية في زمنها.

كانت تفكر في هذه الأمور بهدوء وامتنان حين جلست ذات عصرية في غرفتها الجميلة في غريمرسي پارك. لقد كانت مقربة جدًا من آل رالستن العريقين ليكون عندها رأي واضح فيهم، مثلًا، إن سألها ابنهم ذات يوم أن تبدي رأيها فيهم، فقد عاشت في ظلهم خلية البال بقدر امرئ يعيش في ظل قوانين بلده. غير أن اهتزاز مفاتيح الأرغن المكتومة، والتساؤل الخفي الذي يخفق في سريرتها أحيانًا مثل الأجنحة يبعدها عنهم بين الفينة والأخرى، فتتمكن للحظة خاطفة من إمعان في النظر إلى علاقتهم بأمور أخرى. كانت اللحظة خاطفة دومًا، إذ عادت منها بسرعة، لاهثة يشوبها شيء من الشحوب، إلى طفليها وإدارة منزلها وفساتينها الجديدة وعزيزها جيم.

فكرت فيه اليوم بابتسامة ودودة، متذكرة قوله لها ألا تبخل بالمال على قبعتها الجديدة. ورغم أنها في الخامسة والعشرين، وصارت أمًا مرتين، فإن هيئتها لم تزل يانعة على نحو مدهش. وامتلاء الجسم، الذي كان مستحسنًا في الزوجة الشابة، مدّد الحرير الرمادي على صدرها، وجعل سلسلة ساعتها الذهبية الثقيلة -بعد أن تركت ملاذها في مشبك القديس پيتر الفسيفسائي، الذي ثبّت ياقتها ذات التقويرة الكبيرة- تتدلى تدليًا محفوفًا بالمخاطر في الفراغ الكائن فوق الخصر الدقيق المحزّم

بنطاق من القطيفة. لكنّ الكتفين في الأعلى استرختا استرخاء الفتوة تحت وشاحها الكشميري، وكل حركة من حركاتها سريعة كحركات البنات.

عاينت السيدة جيم رالستن باستحسان الوجهَ البيضوي متورد الوجنتين المحاط بالكشاكش الفاتحة للقبعة. وإذعانًا منها لأوامر زوجها، لم تبخل بالمال. كانت القبعة على هيئة عربة الكبريلة من القطيفة البيضاء، تربط بشريطين عريضين من الأطلس، يزينها المربوت المرصع بالكرستال. كانت قبعة زفاف طلبتها لحضور زفاف نسيبتها شارلوت لوڤل، الذي سيقام ذلك الأسبوع في كنيسة القديس مارك في البوويري. كانت شارلوت ستتزوج زواجًا مماثلًا لزواج دليا، فستتزوج من آل رالستن من فرع ويڤرلي پليس، وليس لشيء أن يكون أكثر من هذا ضمانًا ورسوخًا بل واعتيادًا. لم تعرف دليا لمَ خطرت لها الكلمة، إذ يصعب أن يكون أمرًا مسلمًا به، حتى بين الشابات من عشيرتها الصغيرة، أي أنهن يتزوجن «عادة» من آل رالستن. ولكن الاستقرار والأمان والانسجام مع النسق، جعله نمطًا من الزواج الذي تتنبأ به لنفسها بهدوء وخجل فتاةٌ جميلة في الجمع الأجمل.

أجل، وبعد ذلك؟

حسنٌ، ماذا؟ ما الذي يعنيه هذا السؤال الجديد؟ وبعد ذلك؟ عجبًا، ستقابل مطالب الشاب التي يتعذر استيعابها باستسلام وحيرة ودهشة، الشاب الذي منحته الفتاة خدًا متوردًا مقابل خاتم الخطبة، كما أن السرير المزدوج الكبير، والخوف من رؤيته يحلق ذقنه في الصباح التالي بهدوء، بكمي قميصه، عبر باب

حجـرة الثيـاب، والتملـص والتلميـح، وابتسـامات الرضـا، ونصـوص الأم المقتبسـة مـن الكتـاب المقـدس، والتذكيـر بعبـارة «أن أطيـع» فـي الغبـش البـراق لقـداس الزفـاف، وأسـبوع أو شـهر مـن الحـرج واحمـرار الخـدود، والارتبـاك والفرحـة الخجلـة، ثـم نشـوء الاعتيـاد، والهـدوء الرتيـب للأمـر الواقـع، والزوجـان الراقـدان بـلا أحـلام فـي السـرير الأبيـض الكبيـر، ونقاشـات الصبـاح الباكـر، والمـداولات عبـر بـاب حجـرة الثيـاب، التـي تحولـت مـرة إلـى حفـرة مشـتعلة تحـرق ملامـح البـراءة.

ثـم الأطفـال، الأطفـال الـذي يفتـرض بهـم «أن يعوضـوا عـن كل شـيء»، ولـم يفعلـوا - رغـم أنهـم كانـوا حبوبيـن، ولا يملـك المـرء أي فكـرة دقيقـة عمـا يفتقـر إليـه وينتظـر مـن الأطفـال سـدَّ هـذا النقـص.

بلـى، سـيكون قـدر شـارلوت لـوڤل مثـل قدرهـا؛ فقـد كان جـو رالسـتن شـديد الشـبه بنسـيبه جيـم (زوج دليـا)، ولـم تـر دليـا سـببًا يجعـل الحيـاة فـي بيـت الطـوب الضخـم فـي ويڤرلـي پليـس تختلـف عـن الحيـاة فـي المنـزل العالـي المبنـي مـن الحجـر الرملـي فـي غريمرسـي پارك. كلا، إن حجـرة نـوم شـارلوت لـن تكـون بجمـال حجـرة نومهـا.

نظـرت نظـرة الرضـا إلـى ورق الجـدران الفرنسـي، الـذي ماثـل الحريـر الممـوج، ولـه حـواف «مزينـة» وشـرّابات بيـن الحلقـات. كان السـرير المصنـوع مـن خشـب الماهوغنـي، المفـروش بشرشـف أبيـض مطـرز، منعكسًـا انعكاسًـا تناظريًـا فـي مـرآة صـوان الثيـاب الـذي يماثلـه. وعُلقـت لوحـة «الفصـول الأربعـة» الملونـة لليوپولـد

روبرت[1] فوق مجموعة من الصور الديجيرية للعائلة موضوعة في أطر مذهبة عميقة. وكانت الساعة المصنوعة من الذهب الفسيفسائي على هيئة راعية تجلس على جذل وعند قدميها سلة من الزهور، يفاجئها راعٍ يتسلل ويسرق قبلة، وكلبها ينبح عليه من بين أجمة ورد، ويتسنى للمرء معرفة مهنة العاشقين من قبعتيهما وانحناءتهما. كانت هذه الساعة الجريئة هدية الزفاف من عمة دليا، السيدة مانسن منغوت، الأرملة الجسورة التي عاشت في باريس واستُقبلت في قصر التويليري[2]. لقد عهدت بها السيدة منغوت إلى الشاب كلمنت سپندر، الذي عاد من إيطاليا لقضاء إجازة قصيرة بعد زواج دليا، الزواج الذي ما كان ليتم لو أن كلِم سپندر استطاع إعالة زوجة، أو لو أنه وافق على التخلي عن الرسم وعن روما من أجل نيويورك والعمل في المحاماة. طمأن الشاب -الذي بدا غريب الأطوار وأجنبيًا وساخرًا- العروسَ ضاحكًا بأن هدية عمتها «أحدث الصيحات في القصر الملكي». أما العائلة التي أعجبها ذوق السيدة مانسن منغوت رغم استنكارهم «أجنبيتها»، فقد عابت على دليا وضعها الساعة في غرفتها، عوضًا عن عرضها على رف المدفأة في حجرة الاستقبال. لكنها أحبت أن ترى الراعي الجريء يختلس قبلته عندما تستيقظ صباحًا.

لن تحصل شارلوت قطعًا على ساعة جميلة كهذه في حجرة نومها. غير أنها لم تعتد امتلاك الأشياء الجميلة، فأبوها الذي

---

(1) رسام سويسري.

(2) قصر ملكي سابق في باريس، كان واقعًا قبل تدميره بمحاذاة متحف اللوفر.

مات في عمر الثلاثين بذات الرئة، كان واحدًا من «آل لوڤل الفقراء». لم تستطع أرملته -التي أثقلت كاهلها مسؤولية أسرة من الصغار وعاشت طوال العام «في ضنك»- تقديم الكثير لابنتها الكبرى. ودخلت شارلوت المجتمع بثياب أمها المجددة، وانتعلت صنادل من الحرير وُهبت لها من خالة ميتة، و«بادرت بالرقص مع الجنرال واشنطن[1]». كان أثاث آل رالستن القديم، الذي رأته دليا يضمحل، سيبدو مترفًا في عيني شاتي، وسترى على الأغلب ساعة دليا الفرنسية المرحة جريئة بعض الشيء، بل «ليست جميلة تمامًا». لقد صارت شارلوت المسكينة شديدة الجد ومفرطة الاحتشام منذ أقلعت عن حضور الحفلات الراقصة، ونزعت إلى زيارة الفقراء! تذكرت دليا بعجب ما ينفك يتجدد التغييرَ المفاجئ الذي طرأ عليها [شارلوت]، واللحظة الحاسمة التي أجمعت فيها العائلة سرًا على أن شارلوت لوڤل ستكون عانسًا.

لم يكن هذا رأيهم حين ظهرت للمجتمع. ورغم أن أمها لم تستطع منحها أكثر من ثوب جديد واحد من الطرلطان، ورغم أن كل شيء في مظهرها يدعو إلى الأسى، من اللون الأحمر الفاقع لشعرها، إلى لون عينيها البني الفاتح -ناهيك بالدائرتين الحمراوين بلون القرميد على وجنتيها، كأنها لونتهما (يا لها من فكرة مستحيلة!)- فإن الخصر النحيل والرشاقة والضحكة المرحة قد غطت على هذه العيوب. وإن كان شعرها مزيتًا ومسرحًا من

(1) تعني جورج واشنطن أحد الآباء المؤسسين.

أجل حفلة مسائية، وبدا بني اللون، وانعكس بنعومة على وجنتيها الرقيقتين تحت إكليل من زهور الكاميليا الحمراء والبيضاء، فإن عددًا من الشبان المشهود لهم بالوسامة (ومنهم جو رالستن) قد وصفوها بالجميلة.

ثم أصابها المرض. أصيبت بالزكام في حفلة تزلج ليلية، وازدادت الدائرتان الحمراوان حمرة وأخذت تسعل. وانتشرت الأقاويل بأنها أصيبت بما أصاب أباها، فأرسلت على عجل إلى قرية بعيدة في جورجيا، حيث عاشت عامًا وحدها مع مربية عجوز. ولما عادت أدرك الجميع على الفور أن فيها شيئًا تغير. كانت شاحبةً وأنحفَ من ذي قبل، ووجنتاها شفافتين شفافية غريبة، وعيناها أغمق، وشعرها أكثر حمرة. وازدادت مظهرها غرابة بلبسها فساتين بسيطة على طراز ثياب الكويكر. لقد تخلت عن الحلي وسلاسل الساعات، ولبست العباءة الرمادية نفسها واعتمرت القبعة الصغيرة المعقودة دومًا، وأظهرت نزعة مفاجئة لزيارة المعوزين. فسّرت الأسرة ذلك بالقول إنها صعقت في أثناء العام الذي قضته في الجنوب بالانحطاط الفظيع «للفقراء البيض» وأطفالهم، وإن رؤيتها البؤس قد جعل عودتها إلى الحياة الخلية التي يعيشها أصدقاؤها أمرًا مستحيلًا. اتفق الجميع، بنظرات ذات مغزى، أن هذه الحالة الذهنية الغريبة «ستمضي بمرور الوقت»، وفي أثناء ذلك حصلت شارلوت من جدتها السيدة لوڤل العجوز، التي فهمتها أفضل من الآخرين، على شيء من المال لأجل فقرائها، وأعارتها غرفة في إسطبلات آل لوڤل (في مؤخرة بيت العجوز الواقع في شارع ميرسر) حيث

جمعت حولها، فيما سيدعى لاحقًا «بالحضانة النهارية»، بعض الأطفال المعدمين من الجوار. كان من بينهم رضيعة أثار أصلها فضولًا عظيمًا قبل سنتين أو ثلاث، عندما جلبتها سيدة تضع خمارًا في عربة أنيقة إلى كوخ سايرس واشنطن، العامل الزنجي الذي تغسل زوجته جاسمين الثياب لأسرة الطبيب لانسكل. وكان الطبيب لانسكل الممارس الطبي الأبرز في عصره، مطلعًا على التاريخ السري لكل أسرة من باتري إلى ميدان الاتحاد. ولكن رغم محاصرة المرضى الفضوليين له، فقد أعلن أنه لا يستطيع تحديد هوية «السيدة ذات الخمار» التي زارت جاسمين، أو أن يخمن أصل الورقة النقدية من فئة مئة دولار، المشبوكة بصدرية الطفلة.

لم تصل مئة دولار أخرى قط، ولم تعاود السيدة الظهور قط، لكن الطفلة عاشت معافاة سعيدة مع أطفال جاسمين. ولما تمكنت من المشي جيء بها إلى الحضانة النهارية التي تملكها شارلوت لوفل، حيث ظهرت (مثل رفاقها المعوزين) في ثياب قليلة قصت من ثياب شارلوت القديمة، وجوارب نسجت بيديها اللتين لا تكلان. مرت دليا، المنشغلة بطفليها، بالحضانة مرة أو مرتين، وغادرتها وهي تأمل أن تجد غريزة الأمومة عند شاتي متنفسها الطبيعي في الزواج. شعرت القريبة المتزوجة باضطراب بأن حبها لطفليها الجميلين حب معتدل معقول إن قيس بشغف شاتي القوي بالمتشردين في إسطبل الجدة لوفل.

ثم، دهش الجميع إذ خطبت شارلوت لوفل نفسها لجو رالستن. كان معروفًا أن جو «أعجب بها» في عام ظهورها، فقد كانت

راقصة بارعة ورقص معها جو، الطويل النحيل، دورات ورقصات سكوتش كثيرة. وتنبأ كل صناع الزيجات بحلول نهاية الشتاء أن ذلك سيثمر شيئًا. ولما استطلعت دليا الأمر من قريبتها، أشار جواب الفتاة المراوغ وملامحها المضطربة إلى أن خاطبها غيّر رأيه، ويجب ألا يُطرح مزيدٌ من الأسئلة. وقد تبين الآن أن بينهما حبًا قديمًا حقًا، أعقبه حدث مثير؛ سوء تفاهم، ولكن سُوي كل شيء، وكانت أجراس كنيسة القديس مارك تتأهب لتقرع في أسعد أيام شارلوت. «آه، حين تلد طفلها الأول»، ترنمت الأمهات من آل رالستن.

«شاتي!»، قالت دليا دافعة الكرسي إلى الوراء لما رأت انعكاس صورة قريبتها في المرآة فوق كتفها.

وقفت شارلوت لوڤل بالباب. «أخبروني بأنك هنا، لذا صعدت».

«طبعًا يا عزيزتي. يا لجمالك في فستان البوبلين! لقد قلت دومًا إنك تحتاجين إلى أقمشة فاخرة. يسرني أن أراك خلعت الكشمير الرمادي».

خلعت دليا، التي رفعت يدها، القبعة البيضاء عن شعرها الأسود اللامع وهزته قليلًا لتجعل حبات الكرستال تتلألأ.

«أرجو أنك أحببتها، إنها لحفل زفافك»، قالت ضاحكة.

وقفت شارلوت لوڤل بلا حراك. في ثوب أمها البوبلين بلون اليمامة، وقد حُزّم مؤخرًا بصفوف رفيعة من شرائط القطيفة القرمزية، وقطع الصدر لفاع مذيل من القاقوم، وقبعة من فرو السمور ذات ريش متدلٍ، فاكتست بشيء من طمأنينة المرأة المتزوجة وجلالها.

«وتعلمين أن شعرك أغمق يا عزيزتي»، أضافت دليا ولم تزل تمعن في النظر إليها متأملة.

«أغمق؟ إنه رمادي»، قالت شارلوت فجأة بصوتها الأجش. ودفعت إلى الخلف إحدى الخصل المرجّلة التي أطرت وجهها، وأظهرت خصلة بيضاء عند صدغها. «لا يجدر بك تخزين قبعتك إذ لن أتزوج»، أضافت بابتسامة أظهرت أسنانها البيضاء الصغيرة في لمحة خاطفة.

كانت دليا حاضرة الذهن بما يكفي لتنحية القبعة والمربوط جانبًا قبل أن تعانق قريبتها.

«لن تتزوجي؟ أأنت مجنونة حقًا يا شارلوت؟»

«ولمَ أكون مجنونة إن فعلت ما أراه صوابًا؟»

«ولكن الناس قالوا إنك ستتزوجينه منذ عام ظهورك. ولم يفهم أحد ما حدث بعدئذ. والآن... كيف لهذا أن يكون صوابًا؟ لا يمكنك قطعًا!»، قالت دليا حائرة.

«أوه... الناس!»، قالت شارلوت لوڤل ضجرة.

نظرت إليها قريبتها المتزوجة متعجبة. اهتز شيء في صوتها لم تسمعه دليا من قبل، أو في أي صوت بشري. بدا صداه يهز العالم المألوف، وانزلقت سجادة أكسمنستر تحت خفي دليا المنكمشين.

وقفت شارلوت لوڤل تحدق أمامها بجفنين مشدودين. وفي اللون البني الفاتح لعينيها رأت دليا البقع الخضراء التي تطفو فيهما عند الغضب أو الحماس.

«من أين جئت يا شارلوت بحق السماء؟»، سألت وهي تقود الفتاة نحو الأريكة.

«من أين جئت؟»

«أجل. تبدين كمن رأى شبحًا... جيش من الأشباح».

افترّت شفتا شارلوت عن الابتسامة الساخرة نفسها وقالت: «لقد رأيت جو».

«ثم؟ أوه يا شاتي»، قالت دليا وقد أدركت فجأة، «أنت لا تعنين أنك ستسمحين لأي شيء صغير في ماضي جو...؟ لا أعني أني سمعت أقاويل صغيرة أبدًا، ولكن إن كان ثمة...»، أخذت نفسًا عميقًا ثم واصلت إلى أقصى الحدود، «حتى لو سمعتِ أنه ... أن عنده طفلًا، لأقر بذلك قبل...»

هزت الفتاة رأسها نفيًا. «أعلم، لست بحاجة إلى المتابعة. «سيظل الرجال هم الرجال»، ولكن ليس هذا هو الأمر».

«أخبريني ما الأمر».

نقّلت شارلوت نظرها في أرجاء الغرفة الفاخرة المشمسة، كأن فيها صورة لعالمها، وذاك العالم سجنٌ عليها الهروب منه، فطأطأت رأسها.

«أريد الابتعاد»، قالت لاهثة.

«الابتعاد؟ عن جو؟»

«عن أفكاره، عن أفكار آل رالستن».

شمخت دليا بأنفها، فقد كانت من آل رالستن! «أفكار آل رالستن؟ لم أجدها أفكارًا شنيعة لا يطاق العيش معها»، ابتسمت ابتسامة لاذعة بعض الشيء.

«كلا، لكن الأمر مختلف في حالتك، إذ لم يطلبوا منك التخلي عن شيء».

«أي شيء؟»، ما الذي بحق السماء (تساءلت دليا) تملكه شارلوت لوڤل المسكينة يجعل أحدًا يطلب منها التخلي عنه؟ لقد كانت دومًا في موضع القبول أكثر من اضطرارها إلى الاستسلام.

«ألا يمكنك أن تشرحي لي يا عزيزتي؟»، ألحت دليا.

«أطفالي المساكين، يقول إن عليّ التخلي عنهم»، قالت الفتاة في همس مذهول.

«التخلي عنهم؟ التخلي عن مساعدتهم؟»

«بل رؤيتهم والاعتناء بهم. التخلي عنهم تمامًا. لقد جعل أمه تشرح لي. بعد... بعد أن ننجب أطفالًا... إنه يخاف... يخاف أن يلتقط أطفالنا شيئًا... سيعطيني المال طبعًا لأدفع لأحد ما... لنعين أحدًا يعتني بهم، ويجد هذا لائقًا»، قالت شارلوت باكية. وألقت قبعتها ومرغت دموع قهرها على المخدات.

جلست دليا في حيرة من أمرها، إذ كان هذا الأمر آخر ما يمكنها تصوره من بين كل المشكلات المحتملة. ولم تستطع، بكل سمات آل رالستن المكتسبة، إلا أن ترى قوة حجة جو، بل وجدت نفسها توافقه. لم ينسَ أحد في نيويورك موت الطفل الوحيد المسكين هنري ڤان در لويدن، الذي انتقل له الجدري في السيرك الذي أخذته إليه سرًا مربية مجردة من الخُلق. بعد تحذير كهذا، وجد الآباء أنهم محقون في حذرهم ضد العدوى. وكان الفقراء جاهلين ومهملين جدًا، وسيكون أطفالهم عرضة لالتقاط كل شيء حتمًا. كلا، إن جو رالستن محق قطعًا، وشارلوت

لا تفكر بعقل. غير أنه من غير المجدي قول هذا لها الآن، فسايرتها دليا مسايرة عفوية.

«ومع ذلك»، همست للأذن المنكبة، «إن كان هذا سيحدث بعد إنجابك... قد لا ترزقين بطفل لبعض الوقت».

«أوه، بل سيكون لي!»، رفعت رأسها عن المخدات في غم.

ابتسمت دليا في تفوق أمومي. «حقًا يا شاتي، لست أرى كيف لك أن تعرفي. لست تفهمين».

رفعت شارلوت لوقل نفسها. انفتحت ياقتها المخرمة وتدلت في لفافة على صدارها المجعد. وعبر فوضى شعرها لمعت الخصلة البيضاء منهكة، وطفت في عينيها البنيتين الفاتحتين البقع الخضراء الصغيرة مثل ورق شجر في بحيرة تراوت.

«فتاة مسكينة»، قالت دليا في نفسها، «كم تبدو هرمة وقبيحة! تبدو أشبه بعانس عجوز أكثر من أي وقت مضى، ولا يبدو أنها تدرك أدنى إدراك أنها لن تحظى بفرصة أخرى أبدًا».

«عليك أن تكوني عاقلة يا عزيزتي شاتي، فأطفال المرء يأتون في المقام الأول».

«هذا هو الأمر»، أمسكتها الفتاة من معصميها بقوة، «كيف لي أن أهجر طفلتي؟»

«طفل... طفل..؟»، اهتز عالم دليا تحتها ثانية، «أي من المشردين الصغار المساكين يا عزيزتي تسمينها طفلتك؟»، سألت بصبر.

نظرت شارلوت في عينيها، «أسمّي ابنتي طفلتي».

«ابنت...؟ حاذري، إنك تؤلمين رسغيّ يا شاتي!»، حررت دليا نفسها متكلفة الابتسام، «طفلتك؟»

«طفلتي الصغيرة. الطفلة التي كانت جاسمين وسايرس...»

«أوه...»، قالت دليا رالستن لاهثة.

جلست القريبتان صامتتين متقابلتين، لكن دليا أشاحت بنظرها. جال في ذهنها مشمئزة أن أمورًا كهذه، حتى إن كان لزامًا قولها، يجب ألا تقال في غرفة نومها، بالقرب من غرفة الأطفال النظيفة الواقعة على الطرف الآخر من الممر. تلقائيًا، مسدت الثنيات الشبيهة بالأرغن لتنورتها الحريرية، بعد أن جعدها عناق قريبتها. ثم نظرت ثانية إلى عيني شارلوت، واغرورقت عيناها بالدمع.

«أوه يا شاتي المسكينة... يا شاتي المسكينة!»، ومدت يديها إلى قريبتها.

2

واصل الراعي اختلاس قبلته من الراعية، واستمرت الساعة في الجِذل تدق الدقائق.

جلست دليا ذاهلة غافلة عن مرور الدقائق، وقريبتها متشبثة بها. لقد أخرسها الخوف والدهشة لدى معرفتها أن دمها يسري في عروق لقيطة مجهولة الهوية، طفلة «مئة الدولار» التي ظلت وقتًا طويلًا موضع أحاديث سمر نيويورك وتخميناتها. كان هذا أول تماسٍ لها مع الجانب الأدنى من الوجه الاجتماعي الناعم، وأصابها الغثيان لدى تفكيرها بحدوث أمور كهذه، وأنها -دليا رالستن- يتعين عليها سماعها في بيتها، ومن شفتي الضحية! لقد كانت شاتي ضحية من غير ريب. ولكن ضحية لمن؟ فهي لم تذكر اسمًا، ولم تستطع دليا طرح أي سؤال، فخوفها من ذلك ختم على شفتيها. عادت بذهنها إلى الوراء بسرعة تجول في ماضي شاتي، لكنها لم تر هيئة رجل إلا هيئة جو رالستن. وأن تجعل لجو صلة بالحادثة كان أمرًا لا يُصدّق طبعًا. أحد في الجنوب إذن؟ ولكن لا، فقد كانت شارلوت مريضة عند سفرها، وفي لحظة أدركت دليا حقيقة ذلك المرض واختفاء الفتاة. غير أن عقلها ارتد عن تحرزات كهذه، وعفويًا استقرت على أمر لم يزل بوسعها التشبث به؛ موقف جو رالستن من شحاذي شاتي. ما كان لجو قطعًا أن يسمح لزوجته أن تجازف بنقل أمراض معدية إلى بيتهما؛ فقد كان أرضًا آمنة للسكنى فيها. كان جيم سيشعر بالمثل، وكانت ستوافقه دون شك.

عادت بنظرها إلى الساعة. كلما نظرت إلى الساعة تذكرت كلم سپندر، ثم تساءلت فجأة- لو كانت الأمور مختلفة- ما الذي سيقوله لو أنها كشفت إعجابها به، مثلما فعلت شارلوت لجو؟ كان الأمر صعبًا تخيله، غير أن دليا رأت نفسها، بعد إجراء تعديلات في ذهنها، زوجة لكلِم، ورأت طفليها طفلين له، وتخيلت نفسها تسأله السماح لها بالاستمرار في الاعتناء بالمُشردين المساكين في إسطبل شارع ميرسر، وسمعت ضحكته بوضوح وجوابه المرح: «ولماذا تسألين بحق السماء يا إوزتي الصغيرة؟ أتظنينني فريسيًا؟»[1]

أجل، هكذا كان كلِم سپندر متسامحًا طائشًا لا يبالي بالعواقب، ويبادر دومًا إلى فعل الشيء اللطيف، وكثيرًا ما يترك الآخرين يدفعون الثمن.

«ثمة وضاعة في كلِم»، قال جيم مرة بأسلوبه الوقور. اعتدلت دليا رالستن وحضنت قريبتها أكثر. «أخبريني يا شاتي بالمزيد»، همست.

«ما من مزيد».

«أعني، عنك... هذا الشيء... هذا...»، كان صوت كلِم سپندر ما زال يرن في أذنيها، «أأحببت أحدًا؟»، قالت لاهثة.

«أجل، انتهى الأمر. والآن ليس لي إلا الطفلة... وبوسعي أن أحب جو بطريقة أخرى»، استقامت شارلوت لوقل متجهمة وشاحبة.

---

(1) من فئات اليهود وعرفوا بتشددهم وريائهم.

«أنـا بحاجـة إلـى المـال، لا بـد أن أحصـل عليـه لأجـل طفلتـي، وإلا أرسلوها إلـى الميتـم»، صمتـت. «ولكـن هـذا ليـس كل شـيء، إنـي راغبـة فـي الـزواج. أريـد أن أكـون زوجـة مثلكـن. سـأحب أطفـال جـو، أطفالنـا. إن الحيـاة لا تتوقـف...»

«كلا، لا أظـن ذلـك. ولكنـك تتحدثيـن كأنمـا... كأنمـا الشـخص الـذي اسـتغلك...»

«لـم يسـتغلني أحـد. كنـت وحيـدة وتعسـة، والتقيـت امـرأً وحيـدًا وتعسًـا. ليـس للجميـع مثـل حظـك. كنـا فقيريـن ولا يمكننـا الـزواج... ومـا كانـت أمـي لتوافـق. لـذا ذات يـوم... ذات يـوم قبـل أن يودعنـي...»

«أودعك؟»

«أجل، كان سيترك البلاد».

«غادر البلاد، وهو يعلم؟»

«أنـى لـه أن يعلـم؟ إنـه لا يعيـش هنـا، بل عـاد... عـاد لـرؤية أسـرته فحسب، لبضعة أسابيع».

ثم صمتت وزمت شفتيها الرفيعتين على سرها.

ساد الصمت، وحدقت دليا إلى الراعي الجسور.

«من أين عاد؟»، سألت أخيرًا بنبرة خفيضة.

«أوه، أيهمك هذا؟ لن تفهمي»، صمتت شارلوت في الكلمات التي أشارت فيها قريبتها المتزوجة بعطف إلى عفتها.

تـورد خـد دليـا علـى مهـل، إذ شـعرت بشـيء مـن الإذلال علـى إثـر التوبيـخ فـي ذلـك الجـواب المحتقِـر. رأت نفسـها خجلـة عاجـزة لا حـول لهـا بقـدر فتـاة جاهلـة فـي التعامـل مـع البغضـاء التـي ترميهـا بهـا شـارلوت. ولكـن بعـض البداهـة الأنثويـة القويـة تململـت داخلهـا واسـتيقظت فثبتـت عينيهـا علـى عينـي قريبتهـا.

«ألن تخبريني من كان؟»

«ما الفائدة؟ لم أخبر أحدًا».

«فما الذي أتى بك إلي إذن؟»

انفجر وجه شارلوت المتحجر بالبكاء، «من أجل طفلتي... طفلتي...»

لم تلق دليا لها بالًا. «وكيف أساعدك إن لم أعرف؟»، أصرّت بصوت قاسٍ جاف، وكان قلبها ينبض بعنف كأنه يمد يدين خانقتين إلى حنجرتها.

لم تجب شارلوت.

«من أين عاد؟»، كررت دليا بإصرار، وعندئذ بنحيب طويل رفعت الفتاة يديها وحجبت عينيها. «لقد حسب دومًا أنك ستنتظرينه»، نشجت، «ثم لما وجد أنك لم... وأنك ستتزوجين جيم... سمع بالأمر في أثناء إبحاره... لم يعرف إلى أن طلبت منه السيدة منغوت أن يحضر الساعة من أجل زفافك».

«كفى، كفى»، قالت دليا، وقد هبت واقفة. لقد دفعت شارلوت إلى الاعتراف ولما سمعته شعرت أنه ألقي على مسمعها بلا مبرر ولا لياقة.

أكانت هذه نيويورك، نيوريورك مدينتها، نيويورك الآمنة الودودة المنافقة؟ أكان هذا بيت جيمس رالستن؟ أهذه زوجته التي تصغي إلى اعترافات مخزية؟

وقفت شارلوت لوهلة بدورها. «عرفت ذلك... عرفت ذلك! إنك تفكرين في الأسوأ عوضًا عن الأفضل من أجل طفلتي... أوه، لماذا جعلتني أخبرك؟ عرفت أنك لن تفهمي: لقد أحببته

دومًا، منذ ظهوري، ولهذا لم أتزوج بأحد آخر. لكني علمت أني بلا أمل... لم ير أحدًا سواك. ثم حين عاد، قبل أربع سنوات، ولم تكوني موجودة من أجله، أخذ يلاحظ وجودي ويتلطف معي، ويحدثني عن حياته ورسمه...»، أخذت نفسًا عميقًا وصفا صوتها. «لقد انتهى هذا كله، انتهى. ولم أستطع أن أحبه ولا أن أكرهه. ليس عندي إلا الطفلة... طفلتي، وهو لا يعلم بأمرها... ولِمَ يفعل؟ إن الأمر ليس من شأنه، ليس من شأن أحد سواي. لكنك ترين الآن حتمًا أني لا أستطيع التخلي عن ابنتي».

وقفت دليا رالستن صامتة، مشيحة بوجهها عن قريبتها في خوف متعاظم. لقد فقدت كل إحساس بالواقع وكل الإحساس بالأمان والتعويل على الذات. كان في نيتها سد أذنيها عن مناشدة المرأة الأخرى، كما يدفن الطفل رأسه خوفًا من أهوال الليل. في نهاية المطاف وقفت وتحدثت بشفتين جافتين.

«ولكن ماذا تنوين أن تفعلي؟ لماذا جئت إلي؟ لماذا أخبرتني بكل هذا؟»

«لأنه أحبك!»، قالت شارلوت لوڤل متلعثمة، ووقفت المرأتان متقابلتين.

صعد الدمع شيئًا فشيئًا إلى عيني دليا، وتدحرج على وجنتيها ورطب شفتيها اليابستين. رأت من خلال الدمع هيئة قريبتها المنهكة، ترتجف وتتدلى مثل وجهٍ غارق تحت الماء. ومارت الأشياء التي لم تتوقع نصفها وأثارت شعورًا غريبًا في أعماقها المطمئنة. بدا الأمر للحظة، كأنما تخبرها المرأة الأخرى بسرٍّ في ماضيها هي، وتقول في كلمات فجة كل الصمت المرتعش لقلبها.

كان أسوأ ما في الأمر، كما قالت شارلوت، أن عليها فعل شيء الآن، وأنهما ليس عندهما يوم يضيعانه. كانت شاتي محقة. إن زواجها من جو مستحيل إن كان ذلك يعني التخلي عن الطفلة. ولكن، كيف تتزوجه دون إخباره بالحقيقة على أي حال؟ أيعقل أنه لن يهجرها إن سمع بالأمر؟ دارت كل هذه الأسئلة دورانًا مؤلمًا في ذهن دليا، وعبرها لمعت الصورة الملحّة للطفلة -ابنة كلِم سپندر- وهي تنشأ على الإحسان في كوخ للزنوج، أو تساق إلى إحدى الدور المخيفة التي تدعى ميتم الأطفال. كلا، إن الطفلة جاءت قبلًا. شعرت بذلك في كل ذرة من جسمها. ولكن ماذا عليها أن تفعل، وممن تطلب مشورة؟ وبم تنصح المرأة المحطمة التي جاءت إليها باسم كلمنت؟ نظرت دليا حولها بيأس، ثم استدارت نحو قريبتها.

«عليك أن تمنحيني وقتًا. عليّ أن أفكر. لا يجدر بك الزواج منه، غير أننا أعددنا كل الترتيبات وهدايا الزفاف... ستكون فضيحة... سيقتل هذا الجدة لوڤل».

«ما من وقت»، أجابت شارلوت بصوت خفيض، «عليّ أن أتخذ قرارًا الآن».

ضغطت دليا يديها على صدرها. «أقول لك إن عليّ أن أفكر. أرجو منك أن تعودي إلى البيت... أو، كلا، ابقي هنا. يجب ألا ترى أمك عينيك. لن يعود جيم إلى البيت إلا في وقت متأخر، يمكنك الانتظار في هذه الغرفة حتى أعود»، فتحت الصوان وأخذت قبعة عادية وخمارًا ثقيلًا.

«أبقى هنا؟ ولكن إلى أين تذهبين؟»

«لست أدري، أريد أن أمشي، أن أنال قسطًا من الهواء. أظنني أريد البقاء وحدي».

بسطت دليا، بقوة، وشاحها البيزلي وعقدت ربطة قبعتها وخمارها، ودست يديها المقفزتين في موفتها. من الأريكة حدجتها شارلوت صامتة دون حراك.

«ستنتظرين»، أصرت دليا عند الباب.

«أجل، سأنتظر».

أغلقت دليا الباب بهدوء ونزلت الدرج مسرعة.

3

لقد صدقت إذ قالت إنها لا تعرف إلى أين تذهب، فقد أرادت أن تبتعد عن وجه شارلوت الذي لا يطاق، وعن قربها من مأساتها. لعل التفكير يسهل في الخارج، في البراح.

لما حاذت سور المتنزه، رأت طفليها المتوردين يلعبان تحت أنظار مربيتهما، مع الأطفال المدللين للسكان الآخرين. اعتمرت الفتاة الصغيرة قبعتها المخملية الجديدة ذات النقوش المربعة، ووضعت اللفاع الأبيض. أما الصبي فاعتمر قبعته الهايلاند ووضع الحمالات القماشية العريضة. كم كانا سعيدين مرحين! استرقت المربية النظر إليها، لكنها هزت رأسها ولوحت لهم وذهبت مسرعة.

سارت وسارت عبر الشوارع المألوفة يغمرها ضوء الشمس الشتوية الساطعة. كان الوقت أول العصر، ساعة عودة الرجال إلى مكاتبهم، وكان في ميدان الاتحاد وإرڤنغ پليس بعض السابلة. عبرت دليا الميدان إلى برودوي.

كان بيت لوڤل في شارع ميرسر بيتًا ضخمًا قديم الطراز من الطوب، يحاذيه إسطبل كبير ينفتح على زقاق، كالذي سمعت دليا في رحلة شهر عسلهما إلى إنجلترا أنه يسمى «شارع خلفي». انعطفت إلى الزقاق ودخلت باحة الإسطبل، وفتحت الباب. في غرفة متداعية مطلية بالأبيض اثنا عشر طفلًا، اجتمعوا حول موقد يلعبون بلعبهم المكسورة. كانت المرأة الإيرلندية التي ترعاهم تقص ثيابًا صغيرة على طاولة من خشب الصنوبر

مكسورة الأرجل. رفعت وجهًا ودودًا، وقد عرفت بأن دليا هي السيدة التي جاءت برفقة الآنسة شارلوت مرة أو اثنتين لرؤية الأطفال.

توقفت دليا محرجة.

«لقد... لقد جئت أسأل إن كنتم بحاجة إلى لعب جديدة»، قالت متلعثمة.

«هذا ما نحتاج إليه يا سيدتي، والكثير من الأشياء الأخرى أيضًا، رغم أن الآنسة شارلوت تقول لي ألا أتسول من السيدات اللاتي يأتين لرؤية أحبائنا المساكين».

«أوه، يمكنك أن تطلبي مني يا بريجت»، أجابت السيدة رالستن باسمة، «دعيني أرَى أطفالك... لقد مضى وقت طويل منذ جئت إلى هنا».

كف الأطفال عن اللعب، وتجمعوا قرب مربيتهم، وحدقوا فاغري الأفواه إلى السيدة الغنية المخشخشة. أُلبست بنت صغيرة ذات عينين بنيتين فاتحتين، ووجنتين قرمزيتين ثوبًا من الألبكة بنقوش مربعة، مزينًا بأزرار من المرجان المزيف التي تذكرتها دليا. هذه الأزرار كانت على «أفضل فساتين» شارلوت في عام ظهورها. توقفت دليا وحملت الطفلة. كان شعرها الأجعد بنيًا، له لون عينيها حمدًا للسماء! لكن العينين فيهما البقع الخضراء نفسها التي تطفو في شفافيتهما. جلست دليا والبنت الصغيرة تقف على ركبتيها، وتتحسس سلسلة ساعتها بهدوء.

«أوه يا سيدتي، قد يلوّث حذاؤها تنورتك، فالأرض هنا ليست نظيفة تمامًا».

هـزت دليـا رأسـها وعانقـت الطفلـة. لقـد نسـيت الأطفـال الآخريـن المحدقيـن وراعيتهـم. كانـت الطفلـة الصغيـرة علـى ركبتيهـا مخلوقـة مـن مـادة مختلفـة؛ لـم تكـن بحاجـة إلـى صـوف الألبكـة ذي النقـوش المربعـة وأزرار المرجـان لتمييزهـا، فقـد نمـت خصـلات شـعرها البنـي فـي مواضـع علـى جبينهـا العالـي، مثـل كلِمنـت سـپندر تمامًـا. وضعـت دليـا خـدًا حـارًا علـى الجبيـن.

«أتريدين سلسلتي الصفراء الجميلة يا صغيرة؟»

أرادتها الطفلة.

فكـت السلسـلة الذهبيـة وعلقتهـا حـول عنـق الطفلـة. فصفـق الأطفـال الآخـرون وتحلقـوا، لكـن الطفلـة الصغيـرة، تتبسـم بهـدوء، واصلـت تحسـس الحلقـات فـي صمـت.

«أوه يـا سـيدتي. لا يمكنـك تـرك هـذه السلسـلة الجميلـة للصغيـرة تينـي. فعندمـا تعـود إلـى أولئـك السـود ...»

«ما اسمها؟»

«ينادونها تينا كما أحسب، لكنه لا يبدو اسمًا مسيحيًا!»

كانت دليا صامتة.

«أقـول إن وجنتيهـا شـديدتا الحمـرة. وتسـعل كثيـرًا. ودائمًـا مـا تصـاب بالـزكام. تعالـي يـا تينـي، دعـي السـيدة تذهـب».

وقفت دليا وهي تفك الذراعين الناعمتين.

«لا تريـدك أن تذهبـي يـا سـيدتي. لـم تـأت الآنسـة شـاتي اليـوم، والصغيـرة تشـعر بالوحـدة دونهـا. فهـي لا تلعـب مثـل الأطفـال الآخريـن، نوعًـا مـا... انظـري إلـى السلسـلة الجميلـة التـي حصلـت عليهـا... هيـا... هيـا الآن».

«إلى اللقاء يا كلمنتينا»، همست دليا لنفسها. قبلت العينين البنيتين الفاتحتين والشعر الأجعد، وأرخت خمارها على دموعها المنهمرة في باحة الإسطبل، فجففتها بمنديلها المطرز الكبير ووقفت حائرة. ثم قفلت عائدة بخطى واثقة.

كان البيت مثلما تركته، عدا أن الطفلين عادا، إذ سمعتهما يلهوان في غرفة الأطفال حين سارت إلى غرفتها. كانت شارلوت لوفل جالسة على الأريكة باستقامة متخشبة كما تركتها دليا.

«شاتي، شاتي... لقد فكرت في الأمر. اسمعي، أيًا كان ما سيحدث، يجب ألا تظل الطفلة مع أولئك الناس، فأنا أنوي تعهدها».

وقفت شارلوت طويلة بيضاء. وغدت العينان في وجهها النحيل داكنتين، وبدتا مثل ثقبين شبحيين في جمجمة. فتحت شفتيها لتتحدث، ثم أمسكت بمنديلها، وضغطته على فمها وتهاوت ثانية. سال خيط أحمر عبر المنديل إلى تنورتها البوبلين.

«شارلوت، شارلوت»، صرخت دليا وهي جاثية قرب قريبتها. انزلق رأس شارلوت إلى الخلف على المخدات، وتوقف النزيف. أغمضت عينيها، وجلبت دليا من طاولة الزينة مثقبة[1] وقربتها من منخريها الذابلين. عبقت الغرفة برائحة شذية لاذعة.

ارتفع جفنا شارلوت. «لا تخافي، ما زلت أبصق دمًا بعض الأحيان... ليس كثيرًا، فقد شفيت رئتي تقريبًا. لكنه الخوف...»

«كلا، كلا. لا مزيد من الخوف. قلت لك إني فكرت في الأمر. سيسمح لي جيم بتعهد الطفلة».

---

(1) قارورة لأملاح الشم.

رفعت الفتاة رأسها بعناد. «جيم؟ أأخبرته؟ أذهبت إليه؟»

«كلا يا عزيزتي. لقد ذهبت لرؤية الطفلة».

«أوه»، بكت شارلوت وهي تميل إلى الوراء ثانية. أخذت دليا منديلها ومسحت الدموع التي تنهمر على وجنتي قريبتها.

«لا يجدر بك البكاء يا شارلوت. عليك أن تكوني شجاعة. إنها طفلتك الصغيرة و... كيف يمكنك أن تفكري؟ ولكن عليك منحي وقتًا، عليّ أن أدير الأمر بطريقتي... ثقي بي فحسب».

تحركت شفتا شارلوت بوهن.

«الدمع... لا تجففيه يا دليا... أحب الإحساس به».

واصلت القريبتان اتكاء بعضهما على بعض دون كلام. دقت الساعة المذهبة لحساب حديثهما الصامت بالدقائق، ربع الساعة، نصفها، ثم ساعة. انقضى النهار وأظلم، واستطالت الظلال على زينة الأكسمنستر والسرير الأبيض العريض. وقرع الباب.

«الطفلان ينتظرانك لتلاوة صلاة الشكر قبل عشائهما يا سيدتي».

«حسن يا إليزا، دعيهما يتلواها لك. سآتي لاحقًا». ولما ابتعدت خطوات المربية، فكت شارلوت نفسها من عناق دليا.

«يمكنني الذهاب الآن»، قالت.

«ألست شديدة التعب يا عزيزتي؟ يمكنني أن أرسل في طلب عربة تأخذك إلى بيتك».

«كلا، كلا. سيثير هذا خوف أمي. كما أني أريد المشي في الظلام. يبدو العالم أحيانًا في نظري وهجًا مخيفًا، وظننت بعض الأيام أن الشمس لن تغيب، ثم يطلع القمر في الليل». وضعت

يديها على كتفي قريبتها، «أما الآن فالأمر مختلف. لن أكره النهار بعد الآن».

تبادلت المرأتان القبل وهمست دليا: «غدًا».

4

هجر آل رالستن العادات القديمة كارهين، ولكن إن تبنوا عادة جديدة، وجدوا استحالة في فهم السبب الذي يدعو الجميع لئلا يفعلوا الأمر نفسه في الحال.

لما اقترحت دليا، التي تنحدر من آل لوفل الأكثر تساهلًا، والميالين بطبعهم إلى التجديد، على زوجها أول مرة أن يُقدم الغداء في الساعة السادسة بدلًا من الثانية، غدا وجه الشاب المطواع صارمًا بقدر رالستن العجوز الأول في صورته الشخصية الكولونيولية المتجهمة. ولكن بعد يومين من المقاومة، وافق على رأي زوجته، وها هو يبتسم اليوم مزدريًا عناد الذين ما زالوا يتشبثون بتناول وجبة ثقيلة ووجبة شاي[1] منتصف اليوم.

---

(1) «لكن انتشار الشاي كوجبة، كما أصبح يطلق عليه، فقد انتشر أكثر مع الثورة الصناعية في بريطانيا، خصوصًا مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسبب المكننة وانتشار المصانع وتأثيرها في الحياة الاجتماعية في بريطانيا قبل غيرها من الدول الأوروبية. رجوع أبناء الطبقة العاملة متعبين من المصانع جعلهم يتناولون وجبة العشاء (Tea) مبكرًا في الساعات الأولى من المساء قبل توجههم في المساء إلى حاناتهم. وتضمنت الوجبة الخبز والزبدة واللحوم المقددة والمخللات وطبعًا الشاي، وهذه جميعها يطلق عليها (Tea) وكان يتناول هؤلاء وجبة الشاي على طاولة الطعام المخصصة لذلك والعالية الأرجل بطبيعة الحال، ومن هنا جاءت التسمية (High Tea) وكذلك جاء مع هذه التسمية سوء الفهم للكلمة حديثًا. أما الطبقات العليا والأرستقراطية فقد كانت هي الأخرى تتناول وجبة بعد الظهر ما بين الفطور والعشاء الكامل. نشرت هذه العادة في الأوساط الارستقراطية في لندن بعد انتقالها من قلعة بيلفور في شمال شرق إنجلترا إلى لندن. وكانت تتناول «وجبة الشاي» أي الشاي مع الحليب (وهو ما اقتبسه الإنجليز من الفرنسيين كما ذكرت المؤرخة مدام سيفين) والكعك والسندويشات والحلويات الأخرى على الطريقة الأوروبية، وتحديدًا الفرنسية، وعلى طاولة القهوة القصيرة في غرفة الاستقبال،

«لا أبغض شيئًا بقدر بغضي لضيق الأفق. ليأكل الناس متى اشتهوا، إن ضيق أفقهم هو ما لا أطيق».

كانت دليا تفكر في هذا حين جلست في حجرة الاستقبال (كانت أمها ستدعوها الردهة)، في انتظار عودة زوجها. كان عندها وقت كافٍ لتملّس جدائلها اللامعة وتلبس الفستان المموج المخطط باللونين الأبيض والأسود ذا حبات الكرز، وقد كان فستانها المفضل عنده.

كانت حجرة الاستقبال، بستائرها من دانتيلا نوتنغهام، وقد رفعت تحت أفاريز مزخرفة مذهبة، وطاولة الوسط الرخامية على قوائم من خشب الورد المحفور، وكراسيها القديمة ذات المساند، المصنوعة من الماهوغني والمغطاة بقماش الدمقس الحريري الفرنسي، باللون الأخضر التفاحي الفاقع، حجرةً تفخر بها أي زوجة شابة. أما الرفوف المصنوعة من خشب الورد على جوانب الأبواب المصرّعة، التي تؤدي إلى غرفة الطعام، فزُينت بأصداف استوائية ومزهريات فلسبار، وتمثال من المرمر لبرج بيزا المائل، وزوج من المسلات المصنوعة من قطع صغيرة من الرخام السماقي وحجر الحية، انتقاها الزوجان الشابان في المنتدى الروماني، وتمثال نصفي لكلايتي مصنوع من فخار

ومن هنا جاءت التسمية (Low Tea) إلا أن الكثير من المطاعم والفنادق، خصوصا الأمريكية منها، التبس عليها الأمر وربطت تعبير (High Tea) بشاي الصالونات الأرستقراطية، وربطت تعبير العالي بالطبقة وليس بالطاولة التي كانت تقدم عليها وجبة الشاي، بينما في الواقع فإن العالي كان يرمز إلى الطاولة وليس إلى الطبقة."
المصدر: مقال في جريدة الشرق الأوسط «الشاي في بريطانيا تشتهر به ولا تملكه» لعبد اللطيف جابر وجوسلين إيليا، أغسطس 2008 العدد 10841.

أبيض بلون الطباشير من مصنع دوسيڤر، وأربعة تماثيل عتيقة الطراز لآلهة الفصول الأربعة مصنوعة من پورسلين تشيلسي، التي تعين تركها بين التحف الأحدث لأنها تعود إلى الجدة رالستن الكبيرة. وعلى الجدران علقت لوحة «رحلة الحياة» لكول داكنة مطبوعة بالفولاذ، وبين النوافذ انتصب تمثال بالحجم الطبيعي «للعذراء الأسيرة»، الذي خُلد في رواية هوثورن «تمثال فون الرخامي»، صنعته النحاتة المشهورة هارييت هوسمر من أجل والد جيم رالستن. وعلى الطاولة وضعت كتب ذوات أغلفة منقوشة نقوشًا أنيقة، أحدها «أنهار فرنسا» لترنر، و«فاي الآثمة» لدريك، وحكايات كراب، إلى جانب كتاب الجمال الذي يحوي صورًا شخصية للنبيلات البريطانيات، اللاتي شاركن في مسابقة إيرل إغلنتن.[1]

لما جلست دليا هناك، أمام نار الفحم الحجري، في فتحة المدفأة المقوسة الرخامية السوداء، وبجانبها طاولة الأشغال

---

(1) المنتدى الروماني: ميدان عام كان يقع في مركز مدينة روما القديمة، وكان مركزًا للكثير من الأبنية الحكومية الرومانية المهمة آنذاك. كلايتي: أو كليتيا حورية مائية أسطورية، وهي أم أوقيانوس وتيثيس وعشيقة هليوس حسب الأساطير اليونانية. دوسيڤر مصنع شهير لصنع أواني البورسلين. الفصول الأربعة: مجموعة من التماثيل الحجرية يجسد كل منها فصلًا من بين التماثيل الموجودة في متحف الفن في إنديانا پولس. رحلة الحياة: لتوماس كول لوحة تجسد حكاية رمزية لمراحل حياة الإنسان الأربع (طفولة، شباب، كهولة، هرم). هوسمر: نحاتة أمريكية من المرحلة الكلاسيكية الحديثة. الإله فون أحد آلهة الحقول والقطعان لدى الرومان، وهي رواية كتبها هوثورن عشية اندلاع الحرب الأهلية. أنهار فرنسا للرسام جوزيف مالورد وليم تيرنر. فاي الآثمة: ديوان شعر لجوزيف رودمان دريك شاعر أمريكي رومانسي مات شابًا. حكايات كراب: ديوان شعر لجورج كراب، شاعر وجراح إنجليزي.

المصنوعة من خشب الكباد، وواحد من المصابيح الفرنسية يرمي نوره البهيج على طاولة الوسط، من تحت ظلة مهدبة بالكرستال، سألت نفسها كيف استطاعت في وقت قصير جدًا أن تخرج من دائرتها المعتادة من الآراء والتقاليد، أكثر بكثير من قبل، إلى ما وراء أفق آل رالستن. ولكن ها هي تطبق عليها ثانية، كأنما الزخرفة الجصية للسقف وأشكال الأثاث وقَصة فستانها قد خرجت من كِبر آل رالستن، وتحولت إلى حجر الأدمنت بلمسة من أيديهم.

لا بد أنها فقدت عقلها، قالت في نفسها، إذ ألزمت نفسها بشارلوت إلى هذا الحد، غير أنها – وهي تدور في حلقة المشكلة التي تواصل إطباقها- لم تجد مخرجًا آخر. لقد تعهدت بإنقاذ طفلة كلِم سپندر.

سمعت صوت مفتاح المزلاج (لم ينبض قلبها عاليًا هكذا من قبل)، ووضْع القبعة الطويلة على كونسول الردهة؛ أو لعلهما قبعتين؟ فُتح باب حجرة الاستقبال، ودخل شابان ملتفعان يلبسان معطفين واسعين، كلاهما جيم رالستن؛ إن أردنا الحق. لم تلحظ دليا من قبل الشبه الكبير بين زوجها وقريبه جو، وأوحى لها ذلك بأنها محقة في التفكير في آل رالستن جماعة.

ما كانت لتصبح زوجة شابة سعيدة رقيقة، لولا أن رأت جو نسخة معتدلة من زوجها جيم، وغضت الطرف عن عيوب الاستنساخ، غير أنه ظل شبهًا صاعقًا بين القوامين الرياضيين الطويلين، والوجهين القصيرين المتوردين واستقامة الأنفين والسبلات والحواجب، وزرقة الأعين الصريحة، والابتسامتين

الأنانيتين العذبتين. عدا أنه في اللحظة الراهنة؛ بدا جو شبيهًا بجيم وهو يعاني ألمًا في الأسنان.

«انظري يا عزيزتي، هذا شاب طلب أن يأكل معنا «حواضر البيت»»، ابتسم جيم بثقة زوج حسن التغذية، يعلم أن بوسعه إحضار صديق إلى البيت.

«يا للطفك يا جو! أتحسبه يقبل بحساء المحار والإوزة المحشوة؟»، ابتسمت دليا لزوجها.

«عرفت ذلك! قلت لك يا صديقي العزيز! قال إنه لا يقبل أن تتعبي نفسك من أجل العشاء. انتظر حتى تتزوج يا جوزيف رالستن»، وضع جيم كفًا أنيسةً على كتف قريبه المكتسية بالأخضر الداكن، وابتسم جو كأن الضرس يؤلمه.

«إن هذا لطف بالغ منك يا ابنة العم دليا، أن تستضيفيني هذا المساء. الحقيقة...»

«لنتناول العشاء أولاً يا صديقي إن لم تكن تمانع! ستطرد زجاجة البرغندي كل الشياطين الزرق. أعطِ ذراعك لقريبتك من فضلك، سأذهب لأتأكد من جلبهم النبيذ».

حساء المحار وسمك القاروس المحمر، والإوزة المحشوة وفطائر التفاح المقلية والفلفل الأخضر، أعقبتها واحدة من وصفات الجدة رالستن الشهيرة للكسترد المكرمل. ولم تنتبه دليا، في انشغال بالها، إلى الفخر السري بإنجازها. لا شك في أنه سيفي بالغرض لتأكيد الأقاويل بأن بوسع جيم رالستن إحضار صديق إلى البيت لتناول الطعام دون إخطار مسبق. عززت خمور آل لوفل ورالستن هذا الانطباع، وقد رق وجه جيم المنهك حين

أخذ نبيذ ماديرا يفعل فعله. لاحظت دليا التغيير عندما انضم الشابان إليها في حجرة الاستقبال.

«والآن يا صديقي العزيز، يحسن بك إخبارها القصة كلها»، نصحه جيم دافعًا نحو قريبه بكرسي ذي ذراعين.

أصغت الشابة المنحنية على أشغال الصوف، بجفنين مسبلين ووجنتين متوردتين. أمل جو أن تراه محقًا، لكونها امرأة متزوجة وأمًا، في الحديث إليها صراحة، وقد حصل على إذن زوجها لفعل ذلك.

«أوه، ابدأ حديثك، ابدأ حديثك»، دفعه جيم المنتشي بعد العشاء فوق بساط المصطلى.

أصغت دليا وفكرت، وتركت العريس يتخبّط في حديثه المحرج. توقفت إبرتها مثل سيف ديموقليس[1] فوق القنبية، وأدركت في الحال أن جو يعتمد على محاولتها استمالة شارلوت إلى وجهة نظره. لكنه مغرم جدًا؛ وعرفت أنه بكلمة منها سيذعن وتفوز شارلوت وتنقذ الطفلة وتتزوجه...

يا لسهولة الأمر! ترحيب ودود وعشاء لذيذ وخمر معتق وذكرى عيني شارلوت اللتين تغريان كل من نظر إليهما. طعن حسدٌ خفي

---

(1) كان ديموقليس في الحكاية خطيبًا متزلفًا في بلاط الطاغية ديونيسوس الثاني من سيراقوسة، في إيطاليا في القرن الرابع ق.م. ومن تزلفه للملك، غالى في وصفه لسعادة ديونيسوس وحظه. فعرض ديونيسيوس على ديموقليس أن يتبادلا مكانيهما، حتى يتذوق ديموقليس بنفسه حظ الملك، فقبلِ العرض. وجلس على عرش الملك محاطًا بكل الجاه والأبهة، إلا أن ديونيسيوس رتّب أن يعلّق سيف فوق العرش، مربوط من طرفه بشعرة واحدة من ذيل حصان. ولما أدرك ديموقليس ذلك، توسل إلى الملك أن يسمح له بترك العرش، لأنه لم يعد يتمنى أن يكون محظوظًا بتلك الدرجة.

الزوجةَ التي افتقرت إلى هذا الاكتشاف الأخير.

يا لسهولة الأمر. ولكن، ينبغي له ألا يكون! مهما حدث، ما كان بوسعها السماح بزواج شارلوت لوڤل وجو رالستن. كل تقاليد الشرف والنزاهة التي نشأت عليها تمنعها من التواطؤ في أمر كهذا. بوسعها أن تتخيل -وقد تخيلت قبلًا- بمعايير اليد الطولى التحديَ السريع البارع للمتمردات السبّاقات الذكيات على نظام المجتمع قاسي القلب. لكنها لم تكن لتتستر على كذبة، وبدا لدليا أن زواج شارلوت لوڤل من جو رالستن -قريب زوجها جيم- دون كشف ماضيها له انعدام مروءة بقدر ما يراه أي رالستن. وسينهي إخباره بالحقيقة الزواجَ إلى الأبد، كانت شاتي مدركة لهذا تمامًا. ما من مساواة في التسامح الاجتماعي بين النساء والرجال، ولم تتساءل دليا أو شارلوت عن السبب، بل أذعنتا لما يتعذر اجتنابه، ككل الشابات من طبقتهما.

كلا، لا مناص من المأزق. وبقدر ما كان جليًا أن واجب دليا يكمن في إنقاذ طفلة كلِم سپندر، جليًا جدًّا، فإنها عازمة على التضحية بعشيقته. ولما ألحت عليها الفكرة تذكرت بكاء شارلوت الحزين «أريد أن أتزوج مثلكن جميعًا»، فانقبض قلبها. ولكنه يجب ألا ينقبض.

«إنني أغض الطرف (كان جو يواصل بوحه) عن جهل فتاتي الحلوة وقلة خبرتها لنقائها الجميل. كيف لرجل أن يتمنى في زوجة المستقبل... ألا تكون كذلك؟ أتوافقني يا جيم؟ ودليا؟ لقد قلت لها، كما تعرفان، إنها ستحصل دومًا على مال مخصص لأطفالها الفقراء، إلى جانب مصروفها، ولها أن تعتمد على ذلك.

يا إلهي! إني على استعداد لكتابة عقد، أو اتفاقية أمام محامٍ إن أرادت ذلك. يعجبني كرمها وأقدره. ولكني أسألك يا دليا، كونك أمًا، أريد الآن رأيك الصريح من فضلك. إن رأيت أنه عليّ القبول إلى حد... أن أسمح لها بمواصلة إيلاء رعايتها الشخصية لهؤلاء الأطفال حتى... حتى...»، واصطبغت سيماء الأب المستقبلي حمرة الكبر، «حتى تستدعي اهتمامها واجبات أهم، بل إنني مستعد... إن أبلغتِها بهذا. وأعد...». تعهد جو، ممتزجًا فجأة بذكرى آخر كؤوسه. «أن أسوي الأمر مع أمي التي أحترم كبرياءها بلا شك، غير أني لن أسمح أبدًا أن تحول بيني وبين قناعاتي». نهض وابتسم لانعكاس صورته الشجاعة في مرآة المدخنة. «قناعاتي»، أجفل عند قولها.

«على رسلك، على رسلك!»، قال جيم منفعلًا.

منحت إبرة دليا القنبية وخزة حادة، ثم نحّت أشغالها جانبًا.

«أظنني أفهمكما كليكما يا جو. لو كنت مكان شارلوت لما استطعت التخلي عنهم قطعًا».

«اسمع يا صديقي العزيز!»، قال جيم فرحًا فخورًا بهذه الشجاعة والشهامة، بقدر فخره بروعة العشاء.

«أبدًا»، قالت دليا، «واللقطاء منهم خاصة. أحسب أن فيهم اثنين. يموت هؤلاء الأطفال دومًا عند إرسالهم إلى الملاجئ، وهذا ما يثير قلق شاتي».

«يا للأبرياء المساكين! كم أحبها لحبها إياهم! لا بد أن على هذه الأرض أوغادًا لم ينلهم العقاب. هلا أخبرتها يا دليا بأنني سأفعل ما...»

«رويـدك يـا صديقـي، رويـدك»، أسـكته جيـم بنظـرة تحذيـر آل رالسـتن.

«حسنٌ، ما أردت قوله، أي شيء معقول».

رفعت دليا يدًا آسرة، «سأخبرها يا جو؛ وستكون ممتنة. ولكن لا جدوى من هذا...»

«لا جدوى؟ ماذا أيضًا؟»

«لا شـيء سـوى هـذا: إن مـرض شـارلوت القديـم يعـود إليهـا، لقـد سـعلت دمًـا. لا يجـدر بكمـا الـزواج».

هكذا، قضـي الأمـر. وقفـت ترتجـف فـي كل عظـم منهـا، وشـعرت أن شـفتيها ابيضتـا. أفعلـت الصـواب؟ أرتكبـت خطـأ؟ أسـتعرف يومًـا؟

نظـر جـو المسـكين إلـى وجههـا شـاحبًا بقدرهـا، وتمسـك بظهـر كرسـيه وقـد انحنـى رأسـه إلـى الأمـام مثـل رجـل مسـن. تحركـت شـفتاه لكنهمـا لـم تنطقـا.

«يا إلهي!»، قال جيم متلعثمًا، «لكنك تدرك أن عليك الابتهاج يا صديقي».

«إنني حزينة جدًّا من أجلك يا جو. ستخبرك بنفسها غدًا»، تلعثمت دليا، أما زوجها فظل يبث المواساة الجادة.

«تقبل الأمر كالرجال يا صديقي. فكر في نفسك وفي مستقبلك. لا يمكن لهذا أن يحدث كما تعلم. إن دليا محقة، إنها محقة دومًا. يحسن بك إنهاء الأمر. عليك المواجهة بشجاعة عاجلًا غير آجل».

«عاجـلًا غيـر آجـل»، ردد جـو بابتسـامة مضنـى، وخطـر لدليـا أنـه فـي سـيرورة حياتـه الرغيـدة الطيبـة – مثـل زوجهـا جيـم- لـم يضطـر إلـى التخلـي عـن شـيء أراده قلبـه. كانـت مفـردات الإنـكار وإيماءاتـه المعهـودة غريبـة عليـه.

«لكني لا أفهم. لا يمكنني التخلي عنها»، قال وهو يطرف دمعة صبيانية.

«فكر في الأطفال يا صديقي العزيز. إنه واجبك»، أصر جيم ملقيًا نظرة فخر على هيئة دليا المعافاة.

في الحوار الطويل الذي أعقب ذلك بين القريبين؛ الجدل والجدل المضاد، والنصح العاقل والاحتجاج العقيم، اتخذت دليا موقف الحياد. عرفت النهاية جيدًا. لن يغرس العريس، الذي خشي أن تنقل عروسه إلى البيت عدوى من زياراتها إلى الفقراء، مرضًا في ذريته متعمدًا. لم يكن هذا كل شيء. لا بد أن كثيرًا من الحكايات الحزينة عن أمهات متن مبكرًا، تاركات أزواجهن وحيدين مع جمع من الصغار لرعايتهم قد ألحت على ذاكرة جو. أي من آل رالستن، أو آل لوڤل، أو آل لاننغ، أو آل آرتشر، أو آل ڤان در لويدن، ليس له بعض القبور التي يزورونها في المقبرة البعيدة؛ قبور لأقارب شباب «معتلين» أرسلوا للعلاج في إيطاليا معتدلة المناخ؟ كانت المقابر البروتستانتية في روما وپيزا تعج بأسماء من نيويورك؛ وكانت صورة تلك الرحلة المعروفة مع زوجة تحتضر شيئًا يثني أعند رالستن عن رأيه. ظلت دليا تردد لنفسها وهي تصغي طوال الوقت مطأطئة «هذا سهل، ولكن كيف أخبر شارلوت؟»

حين صافحها جو ذلك المساء مودعًا متلعثمًا، نادته بسرعة من عند العتبة «عليك أن تدعني أراها أولًا من فضلك. عليك الانتظار حتى ترسل في طلبك»، وأجفلت قليلًا لدى موافقته سريعًا. ولكن ما من خطاب منمق سيسهّل على شاب مواجهة ما ينتظر جو، وكانت نظرتها الأخيرة إليه نظرة شفقة.

أغلق الباب خلف جو، وأجفلت للمسة زوجها على كتفها.

«لم أعجب بك يومًا أكثر من إعجابي بك اليوم يا عزيزتي. دليا الحكيمة».

انحنى رأسها وتلقت قبلته ثم ابتعدت. وأدركت أن البريق في عينيه انجذاب لتورد خديها بقدر ما هو اعتراف بحكمتها.

أمسكت به وبينهما مسافة ذراع، «ماذا كنت ستفعل يا جيم لو أخبرتك عن نفسي ما قلته لجو عن شاتي؟»

أظهر عبوسٌ قليلٌ أنه يرى السؤال تافهًا، وليس من طباعها المعتادة، «تعالي»، وطوقتها ذراعه القوية.

ظلت واقفة بعيدًا عنه بعينين حزينتين «يا لشاتي المسكينة! لم يبق شيء الآن».

حزنت عيناه في شفقة سريعة، فهو في لحظات كهذه لم يزل ولدًا عاطفيًا تسهل السيطرة عليه.

«آه، حقًا. يا لشاتي المسكينة!»، تلمس طريقه نحو أقرب مواساة، «لحسن الحظ أن عندها هؤلاء الفقراء، أليس كذلك؟ أحسب أن المرأة يجب أن يكون لها أطفال تمنحهم الحب... أطفال آخرين إن لم يكونوا أطفالها!». كان جليًا أن المواساة قد سكنت ألمه في الحال.

«أجل»، وافقته دليا، «لا أرى لها راحة أخرى. وأنا متأكدة أن جو سيشعر بالمثل أيضًا. أما نحن يا عزيزي...»، وسمحت له الآن بأخذ يديها، «أما نحن يا عزيزي فيجب أن نحرص على أن تحتفظ بأطفالها».

«أطفالها؟»، ابتسم لضمير الملكية، «طبعًا. يا للفتاة المسكينة! ما لم ترسل إلى إيطاليا».

«أوه، لن يحدث ذلك. ومن أين لهم المال؟ كما أنها لن تترك العمة لوقل. لكني أظن يا عزيزي – إن تعين عليّ إبلاغها غدًا، إذ لست أتحرق شوقًا لفعل ذلك كما ترى- فلعلي أخبرها بأني سأتعهد تلك الطفلة التي تهتم لأمرها كثيرًا، الطفلة الفقيرة اللقيطة التي ليس لها اسم عائلة ولا بيت- فسأوفر جزءًا من مصروفي...»

طافت أيديهما معًا، ورفعت وجهها المتورد إليه. كان في عينيه دموع الرجال، آه يا لسعادته بصحتها وحكمتها وكرمها!

«لن تدفعي پنسًا من مصروفك أبدًا!»

تصنعت الخيبة والعجب. «تذكر يا عزيزي، إن كان يتعين عليّ أن أتخلى عنك!»

«قلت لن تدفعي پنسًا من مصروفك. ولكني سأعطيك أي مال تحتاجين إليه لمساعدة فقراء شاتي المساكين. حسنٌ، أيرضيك هذا؟»

«أيها الأحب! حين أفكر في أطفالنا في الطابق العلوي!»، تعانقا وقد ذعرا لهذا التصور.

5

رفعت شارلوت لوڤل وجهًا محمومًا عن الوسادة لدى سماعها وقع قدمي قريبتها.

عبقت الغرفة، المعتمة المغلقة، برائحة الكولونيا والبياضات النظيفة. كان على دليا، وهي تطرف بعينيها قادمة من شمس الشتاء الساطعة، تلمّس طريقها عبر شفق يحجبه عن العيان الماهوغني الداكن.

«أود أن أرى وجهك يا شاتي، إلا إن كان رأسك يؤلمك كثيرًا».

أشارت شارلوت بـ«كلا»، فرفعت دليا الستارة الثقيلة، وأدخلت شعاعًا من الضوء. وفيه رأت رأس الفتاة، شاحبًا على ملاءة السرير، وظهرت الحلقتان الحمراوان تحت الجفنين الداكنين. هكذا، تذكرت، بدت القريبة الفلانية المسكينة قبل أسبوع من رحلتها إلى إيطاليا!

«دليا»، قالت شارلوت لاهثة.

اقتربت دليا من الفراش، ووقفت تنظر إلى قريبتها بعينين جديدتين. أجل، لقد كان تحديد مصير شارلوت سهلًا الليلة الماضية كأنه مصيرها، ولكن الآن؟

«عزيزتي».

«أوه، تكلمي من فضلك»، قاطعتها الفتاة، «وإلا عرفت أن الآتي رهيب جدًا!»

«غاليتي شاتي، إن وعدتك بالكثير...»

«ألن يسمح لك جيم بتعهد الطفلة؟ عرفت ذلك! أسأظل أحلم بأشياء لا تتحقق؟»

جثت دليا، ودموعها تتهمر، قرب السرير ووضعت يدًا نضرة في قبضة الأخرى الحارقة.

«لا تقولي هذا يا عزيزتي. فكري أكثر في ما تحبينه».

«أكثر ما أحبه؟»، اعتدلت الفتاة في جلستها مستندة إلى مخداتها، وقد سرت فيها الحيوية حتى أصابع قدميها الساخنة.

«لا يمكنك الزواج من جو والاحتفاظ بتينا الصغيرة يا عزيزتي، أليس كذلك؟»

«بلى، لن أبقيها معي. بل ستعيش في مكان ما حيث أستطيع التسلل لرؤيتها... أوه، لقد تمنيت حماقات كهذه!»

«دعي عنك الحماقات يا شارلوت. أين تحتفظين بها؟ أترين طفلتك سرًا؟ وفي خزي فظيع دومًا؟ والخطأ بحق أطفالك الآخرين؟ أفكرت يومًا في كل هذا؟»

«أوه، إن رأسي المسكين لن يفكر! أتحاولين إخباري أن عليّ التخلي عنها؟»

«كلا يا عزيزتي. بل ألا تتزوجي جو».

تهاوت شارلوت على المخدة وعيناها نصف مغمضتين. «أقول لك إن عليّ أخذ طفلتي إلى البيت يا دليا. أنت منعمة جدًا ولن تفهمي!»

«إنك منعمة أيضًا يا شارلوت. ليس عليك التخلي عن طفلتك، بل ستعيش معك؛ ستعتنين بها من أجلي».

«من أجلك؟»

«ألم أعدك بأني سأتعهدها؟ ولكني لم أعدك بأن تتزوجي جو. غير أني سأؤمن بيتًا لطفلتك. حسنٌ، لقد تم لنا هذا، وستكونان معًا على الدوام».

تشبثت بها شارلوت وبكت، «ولكن جو، لا يمكنني إخباره، لا يمكنني!»، ثم تركت دليا فجأة، «لم تخبريه عن... عن طفلتي؟ لا أطيق إيذاءه هكذا!»

«أخبرته بأنك سعلت دمًا البارحة. سيراك قريبًا، إنه تعس جدًّا. لقد أجبرناه على أن يفهم أنه نظرًا إلى سوء حالتك الصحية فإن الخطبة قد فسخت بناء على رغبتك، فتقبل قرارك. ولكن إن ضعف أو ضعفتِ، فلن أستطيع فعل شيء لك ولا لتينا، تذكري هذا بحق السماء!»

فكت دليا قبضتها، واستندت شارلوت إلى الوراء صامتة مغمضة عينيها وزامّة شفتيها. استلقت هناك كأنها جثة. على كرسي قرب السرير، تدلى ثوب البوبلين مع القطيفة الحمراء الذي خيط بمناسبة خطبتها، وأطل من تحته خفان من الجلد بلون البرونز. يا لشاتي المسكينة! لم يسنح لها وقت كافٍ لتكون جميلة.

جلست دليا قرب الفراش بلا حراك، وعيناها على عيني قريبتها المغمضتين. لقد تابعت مسار دمعة شقت طريقها بين جفني شارلوت المشدودين، وتعلقت على الأهداب ولمعت ببطء على وجنتيها. حين بلغت الدمعة الشفتين المزموتين تكلمتا.

«أسأعيش معها في مكان ما، أهذا ما تعنينه، أنا وهي فحسب؟»

«أنت وهي فحسب».

«في بيت صغير؟»

«في بيت صغير».

أأنت متأكدة يا دليا؟»

«متأكدة يا غاليتي».

استندت شارلوت مرة أخرى على مرفقها ومدت يدًا تتلمس طريقها تحت الوسادة، وسحبت شريطًا ضيقًا تعلق فيه خاتمًا ألماسيًا.

«لقد خلعته سلفًا»، اكتفت بالقول وناولته لدليا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

القسم الثاني

6

بوسعك القول إن الجميع اتفقوا لاحقًا على أن شارلوت لوڤل ستكون عانسًا. كان ذلك جليًا حتى قبل مرضها، إذ كان فيها شيء من التزمت، رغم شعرها الأحمر بلون النار. هذا من حسن حظ الفتاة المسكينة، بعد اعتلال صحتها في شبابها. إذ تذكر معاصرو السيدة جيمس رالستن أن شارلوت لم تكن إلا شبحًا، تسعل نافثة رئتيها، وهذا هو قطعًا السبب وراء فك خطبتها لجو رالستن.

صحيح أنها تعافت بسرعة، رغم العلاج الغريب الذي تلقته. فلم يستطع آل لوڤل -كما عرف الجميع- تحمل نفقة إرسالها إلى إيطاليا، وقد كانت تجربتها السابقة في جورجيا فاشلة. لذا أرسلت إلى مزرعة تقع على نهر هدسن؛ وهو بيت صغير من أملاك جيمس رالستن، حيث عاشت خمس سنوات أو ستًّا مع خادمة إيرلندية وطفلة لقيطة. كانت حكاية اللقيطة حكاية غريبة أخرى في تاريخ شارلوت. فمنذ مرضها الأول، وهي في عمر الثانية أو الثالثة والعشرين، نشأ عندها ميل مهلك إلى الأطفال، والفقراء منهم خاصة. قيل -بل أشيع أن الطبيب لانسكل قال- إن غريزة الأمومة المكبوتة عُرفت بقوتها الشديدة في الحالات التي منعت فيها أمراض الرئة الزواجَ. ولذا، حين تعين على شارلوت أن تفك خطبتها لجو رالستن، والذهاب للعيش في الريف، وأخبر الطبيبُ الأسرةَ أن الأمل الوحيد في إنقاذها يكمن في عدم إبعادها تمامًا عن أطفالها الفقراء، بل في السماح لها باختيار أحدهم؛ أصغرهم وأحقهم بالشفقة، وتكريس نفسها لرعايته.

لذا أعارها جيمس رالستن بيت المزرعة الصغير، ورتبت السيدة جيم كل شيء، بموهبتها الرائعة في إتمام الأمور سريعًا. بل إنها تعهدت لنفسها بأن تعتني بالطفلة لدى موت شارلوت.

لم تمت شارلوت، بل عاشت وغدت قوية متوسطة العمر نشطة مستبدة. ولما تغيرت شخصيتها غدت مثل أي عانس؛ دقيقة ومتزمتة ومنهمكة في توافه الأمور، تضفي أهمية مفرطة على أصغر الملاحظات الاجتماعية العائلية، واشتهرت بكونها ربة منزل صارمة. وحين مات جيم رالستن بعد وقوعه من ظهر الحصان، وترك دليا- التي لم تزل شابة- مع صبي وبنت تنشئهما، بدا من الطبيعي أن تدعو الأرملة مكسورة الفؤاد قريبتها للعيش معها وأن تقاسمها مهمتها. لكن دليا لم تفعل يومًا شيئًا كما يفعله الآخرون. فعندما دعت شارلوت، تعهدت معها لقيطتها أيضًا. كانت طفلة داكنة الشعر ذات عينين بنيتين فاتحتين وأسلرب لاذع غريب لأطفال عاشوا مع الكبار مطولًا. سميت الفتاة الصغيرة تينا لوفل، فظُن أن شارلوت تبنتها. وقد نشأت في جو من المساواة والمحبة مع قريبيها الصغيرين من آل رالستن، ومع المرأتين اللتين رعتاها، كما يسعنا القول. ولكنها نادت دليا ماما، وشارلوت لوفل الخالة شاتي، يدفعها طبعها في التقليد، ولم يتجشم أحد عناء التصحيح لها. كانت طفلة آسرة ذكية، وتعجب الناس لحظ شارلوت حين اختارت من بين اللقطاء بنتًا مثيرة للاهتمام، (إذ ظُن عندئذ بأن عندها مأوىً ممتلئًا تختار منه).

ودهش العازب المسن اللطيف سلرتن جاكسن -وقد عاد من إقامة طويلة في باريس (أشيع أنها كانت على نفقة أرفع

الشخصيات) – بسحر تينا عندما رآها خارجة من قاعة الرقص، وسأل دليا الإذن بأن يأتي ذات مساء لتناول العشاء معها وحدها هي وصغارها. وأطرى الأرملة على الجمال اليانع لابنتها الشابة دليا. غير أن عيني الأم الثاقبتين أدركتا أنه كان يراقب تينا طوال الوقت. وأسرّ بعد العشاء للسيدات العجائز أن في الفتاة شيئًا «فرنسيًا جدًا» في تصفيف شعرها، وأنها لو كانت في عاصمة الأناقة، لوصفت بالأنيقة جدًا.

«أوه»، استنكرت دليا مبتهجة، أما شارلوت لوفل فقد انكبت على عملها بشفتين مزمومتين، لكن تينا التي كانت تضاحك قريبتها في الطرف الآخر من الغرفة، اقتربت من الكبار في لمح البصر.

«لقد سمعت ما قاله السيد سلرتن! بلى يا ماما سمعته، قال إنني أصفف شعري تصفيفًا أنيقًا. ألم أخبرك بهذا دومًا؟ أعلم أن الأفضل تركه يتموج كما يريد، بدلًا من تمليسه بالبندولين[1] مثل شعر خالتي...»

«تينا يا تينا.. أوَ تحسبين الناس معجبين بك دومًا؟»، اعترضت الآنسة لوفل.

«ولم لا أحسب ذلك إن كانوا معجبين بي؟»، سألت الفتاة ضاحكة، ثم أدارت عينيها الساخرتين إلى سلرتن جاكسن. «أخبر الخالة شارلوت ألا تكون عانسًا رهيبة!»

رأت دليا الدم يتصاعد إلى وجه شارلوت لوفل. لم يصبغ

(1) مستحضر صمغي لإبقاء الشعر أملس أو مجعدًا أو مموجًا.

دائرتين حمراوين على وجنتيها فحسب، بل نشر حمرة قوية على كامل سحنتها؛ من الياقة المثبتة بمشبك عتيق الطراز، إلى الشعر الأشمط (دون أي أثر للحمرة فيه)، وقد مسد صدغيها الغائرين.

في المساء نفسه، عندما صعدن للخلود إلى النوم استدعت دليا تينا إلى حجرتها.

«لا يجدر بك أن تتحدثي إلى الخالة شارلوت كما فعلت هذه الأمسية يا عزيزتي، فقد أظهرت احتقارًا... عليك أن تدركي أن هذا يؤذيها».

هيمن الندم على الفتاة. «أوه، أنا آسفة جدًا! ألأني قلت إنها عانس؟ لكنها عانس، أليس كذلك يا ماما؟ أعني في صميم روحها. لا أتخيل أنها كانت شابة يومًا، أو فكرت في الإعجاب واللهو والوقوع في الحب، أتصدقين؟ لهذا فإنها لا تفهمني أبدًا، ولكنك تفهمينني يا ماما الحبيبة الغالية»، وبإحدى حركاتها السريعة، كانت بين ذراعي الأرملة.

«يا صغيرة، يا صغيرة»، وبختها دليا برفق، مقبّلة التموجات الداكنة الناتئة في خمسة أماكن من جبهة الفتاة.

سمعتا في الممر وقع أقدام هادئ، ووقفت شارلوت لوهلة عند الباب. نظرت إليها دليا نظرة ترحيب من فوق كتف الفتاة دون أن تتحرك.

«ادخلي يا شارلوت. إني أؤنب تينا لأنها بدت مثل طفلة مدللة أمام سلرتن جاكسن. ماذا سيظنها؟»

«ربما ما تستحقه فحسب»، ردت شارلوت بابتسامة باردة. تقدمت تينا نحوها، ومست شفتاها الرفيعتان جبين الفتاة

الرقيق، حيث وقعت قبلات دليا الدافئة. «ليلة طيبة يا صغيرة»، قالت بنبرتها الجافة لصرفها.

أغلق الباب على المرأتين، وأشارت دليا إلى شارلوت لتجلس على الكرسي ذي الذراعين المقابل لكرسيها.

«لا أود الاقتراب من النار كثيرًا»، أجابت الآنسة لوڤل، واختارت كرسيًا قاسيًا وجلست مصالبة يديها. وقعت عينا دليا بشرود على الأصابع النحيلة الخالية من الخاتم، وتساءلت لماذا لم تضع شارلوت حلي أمها؟

«سمعتُ ما قلتِه لتينا يا دليا. لقد وبختها لأنها دعتني بالعانس».

جاء دور دليا ليحمر وجهها، «وبّختها لقلة احترامها يا عزيزتي. وإن سمعت ما قلته فلن تجديني قاسية جدًا معها».

«كلا، ما كنت قاسية جدًا معها. لم أرك يومًا شديدة القسوة مع تينا، بل على العكس...»

«أوتظنين أني أدللها؟»

«أحيانًا».

شعرت دليا باستياء لا سبب له. «ما الذي ساءك في ما قلت؟»

ردت شارلوت النظرة بثبات. «أفضّل أن تراني عانسًا على أن...»

«أوه»، غمغمت دليا، وفي واحدة من لحظات سرعة بديهتها، ولجت إلى الروح الأخرى، وقاست وحدتها المروّعة مرة أخرى.

«كيف...»، واصلت شارلوت بعناد، «ستراني سوى ذلك؟»

«فهمت... فهمت»، قالت الأرملة متلعثمة.

«عانس سخيفة ضيقة الأفق، ولا شيء أكثر»، أصرت شارلوت لوقل وهي تنهض، «وإلا لن أشعر بالأمان معها أبدًا».

«ليلة طيبة يا عزيزتي»، قالت دليا مشفقة. ثمة لحظات كرهت فيها شارلوت لأنها أم تينا، وفي لحظات أخرى -مثل هذه- انفطر قلبها لمشهد مأساوي لهذه الآصرة غير المعترف بها.

كأنما تكهنت شارلوت بما تفكر فيه.

«ولكن لا تشفقي عليّ! إنها ابنتي»، همست وهي تخرج.

7

شعرت دليا رالستن أن الأحداث الحقيقية لحياتها لم تبدأ إلا عندما عقد صغيراها قرانهما -بأمان ولياقة- اللذين لا عيب فيهما في نيويورك. تزوج الصبي أولًا، واختار فتاة من آل ڤاندرغريف، كان شريكًا صغيرًا في مصرف أبيها في ألباني. واختارت دليا (كما تنبأت أمها) جون جونيَس، الأعقل والأكثر رزانة بين شبان آل هالسي الكثيرين، وتبعته إلى بيت والديه بعد سنة من زواج أخيها.

وبعد أن غادرت دليا الصغيرة البيت في غريمرسي پارك، صار احتلال تينا مركز الصدارة في مسرح أحداثه الصغير أمرًا محتومًا. بلغت تينا سن الزواج، وكانت محط الإعجاب، ولاحقها كثيرون، ولكن أي أمل لها في العثور على زوج؟ لم تناقش المرأتان المراقبتان هذا الأمر بينهما، لكن دليا رالستن- التي تفكر فيه يومًا بعد يوم، وتهجس به عند خلودها إلى الفراش ليلًا- عرفت أن شارلوت لوڤل، في الساعة عينها، قد حملت الأمر نفسه معها إلى الطابق العلوي.

نادرًا ما اختلفت القريبتان في الرأي علانية في أثناء سكناهما معًا ثماني سنوات. بل قيل إنه ليس في علاقتهما شيء صريح. أما دليا فستقول خلاف ذلك؛ إذ بعد أن اطلعت إحداهما على سريرة الأخرى، سيكون غريبًا أن يحجب بينهما حجاب. غير أنها أدركت أن جهل تينا بأصلها يجب أن يستمر بأي ثمن، وأن شارلوت لوڤل الحادة المحبة الكتومة، لم تعرف أمانًا أكبر من حبس نفسها في صمت دائم.

ولما ظلت على صمتها الذي فرضته على ذاتها طوال هذا الوقت، فقد فوجئت السيدة رالستن لدى طلبها [شارلوت]، بعد زواج دليا الصغيرة، السماح لها بالانتقال إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لغرفة تينا في الطابق الأدنى، وقد فرغت بعد مغادرة العروس.

«لكنك لن ترتاحي كثيرًا هناك يا شاتي. أفكرت في هذا؟ أم هذا بسبب الدرج؟»

«كلا، ليس الدرج»، أجابت شارلوت بفظاظتها المعهودة. كيف لها أن تستغل الحجة التي ذكرتها دليا، إن كانت تعرف أنها [شارلوت] لم تزل قادرة على صعود ثلاث قُلبات مثل فتاة؟ «بل لأني أريد أن أكون قريبة من تينا»، قالت بصوت خفيض صرف مثل وتر غير مدوزن.

«أوه، حسنٌ جدًا، كما تريدين». لم تستطع السيدة رالستن أن تحدد سبب شعورها بالضيق من الطلب، ما لم يكن ذلك لأنها عزّت نفسها بفكرة تهيئة الغرفة الفارغة لتكون حجرة جلوس لتينا. لقد عزمت على صبغها باللونين الزهري والأخضر الفاتح مثل زهرة تتفتح.

«إلا إن كان ثمة ما يمنع... طبعًا»، قالت شارلوت كأنها قرأت أفكار دليا.

«لا شيء البتة، سوى... حسنٌ. لقد نويت مفاجأة تينا بتأثيث الغرفة لتكون خدرًا صغيرًا، فتضع كتبها وأشياءها وتستقبل صديقاتها».

«إنك لطيفة جدًا، ولكن لا يجدر بتينا أن يكون لها خدر». أجابت الآنسة لوفل ساخرة، وقد بدت البقع الخضر في عينيها.

«حسنٌ جدًا، كما تريدين»، أجابت دليا بنبرة الضيق ذاتها، «سأنقل متاعك غدًا».

وقفت شارلوت بالباب. «أواثقة أنت بأنه ما من سبب آخر؟»

«سبب آخر؟ ولمَ يكون ثمة سبب آخر؟»، تبادلت المرأتان النظرات بشيء من العداء، واستدارت شارلوت لتذهب.

ما إن انتهى الحديث حتى شعرت دليا بالاستياء من نفسها لإذعانها لرغبة شارلوت. لمَ يتعين عليها أن تستسلم دومًا، وهي سيدة البيت، التي يجب القول إن تينا وشارلوت تدينان لها بحياتهما، أو على الأقل كل ما جعلها تستحق العيش؟ ورغم ذلك، كلما ظهر أمر يتعلق بالفتاة، كانت شارلوت الغالبة ودليا المغلوبة دومًا. وبدا كأنما شارلوت بأسلوبها العنيد الكتوم عازمة على الاستفادة من كل فائدة لهذه التبعية؛ ما يجعل اعتراض امرأة بطبع دليا أمرًا مستحيلًا.

وفي الحقيقة، فقد تطلعت دليا، أكثر مما ظنت، إلى الأحاديث الهادئة مع تينا التي سيناسبها الخدر الصغير. كان من عادة السيدة رالستن في أثناء سكنى ابنتها في الغرفة، أن تقضي ساعة هناك كل مساء تتحدث فيها مع الفتاتين وهما تغيران ثيابهما، وتصغي إلى تعليقهما على أحداث اليوم. لقد عرفت سلفًا ما ستقوله ابنتها دومًا، غير أن آراء تينا ووجهات نظرها كانت صدمة لذيذة لها. لم تكن آراء غريبة فريدة فحسب، بل كانت في لحظات كأنها تنبع من الأعماق السحيقة لماضي دليا. إذ عبرت عن مشاعر

لـم تفصـح عنهـا يومًـا، وأفـكار لـم تجاهـر بهـا لنفسـها؛ فتقـول تينـا أحيانًـا أشـياء تخيلـت دليـا رالسـتن نفسـها تقولهـا لكلمنـت سـپندر فـي مناجـاة للنفـس فـي الماضـي البعيـد.

وهـا قـد وُضـع حـد لهـذه الأحاديـث المسـائية. إن طلبـت شـارلوت أن ينقـل متاعهـا إلـى جـوار ابنتهـا، ألـن يكـون ذلـك لرغبتهـا حقًـا فـي إنهائهـا؟ لـم يخطـر لدليـا مـن قبـل أن تأثيرهـا فـي تينـا محـل استياء، وقـد أنـار هـذا الاكتشـاف ضـوءًا أسـفل الـوادي الـذي فصـل المرأتيـن دومًـا. لكـن دليـا أنّبـت نفسـها بعـد هنيهـة علـى نسـبها مشـاعر الغيـرة إلـى قريبتهـا، أليـس حريًـا بهـا أن تعزوهـا إلـى نفسـها؟ لشـارلوت، وهـي أم تينـا، كل الحـق فـي أن ترغـب فـي أن تكـون قـرب ابنتهـا، قربهـا بمعنـى الكلمـة، فبـأي حـق تعتـرض دليـا علـى هـذا الامتيـاز الطبيعـي؟ أمـرت فـي الصبـاح التالـي أن ينقـل متـاع شـارلوت إلـى الغرفـة المجـاورة لغرفـة تينـا.

عندمـا حـان موعـد النـوم تلـك الليلـة، صعـدت تينـا وشـارلوت معًـا، ومكثـت دليـا فـي حجـرة الاسـتقبال، متذرعـة بـأن عندهـا رسـائل تكتبهـا. فـي الحقيقـة، لقـد خشـيت المـرور بالبـاب، حيـث اعتـادت، مسـاء إثـر مسـاء، أن تتربـص بهـا ضحـكات الفتاتيـن الفتيـة، فـي أثنـاء نـوم شـارلوت نـوم العانـس فـي الطابـق الأعلـى. وأحسـت دليـا بغصـة لأنهـا سـتحرم مـن الوسـيلة التـي تمكنهـا مـن الاحتفـاظ بتينـا.

عنـد ارتقائهـا الـدرج بعـد سـاعة، أدركـت وهـي تشـعر بالذنـب أنهـا تصـدر ضجيجًـا قـدر مـا اسـتطاعت علـى طـول السـجادة الثقيلـة فـي الممـر، ووقفـت وقتًـا أطـول ممـا تدعـو إليـه الحاجـة إلـى إخـراج مصبـاح الغـاز علـى بسـطة الـدرج. وتلـكأت ونصّبـت أذنيهـا لتسـمع

الأصوات من البابين المتجاورين اللذين تنام خلفهما شارلوت وتينا. ولو سمعت أحاديث وأصواتًا من خلفهما، لتألمت في سرها. لكنها لم تسمع شيئًا، ولم تر ضوءًا من تحت البابين. من الجلي أن شارلوت بأسلوبها الميثودي الصارم قد تمنت ليلة سعيدة لابنتها، وخلدت إلى الفراش من فورها كالمعتاد. ربما لم تعجبها عادة تينا في الوقت الطويل لتغيير الثياب، الذي يتخلله المرح والأسرار. ولا بد من أنها طلبت الغرفة المجاورة لغرفة ابنتها، لأنها أرادت لابنتها أن تنام قسطًا كافيًا للمحافظة على جمالها.

كلما حاولت دليا معرفة السر وراء أفعال قريبتها، عادت من مغامرتها ذليلة خجلة من الدوافع الوضيعة التي وجدت نفسها تنسبها إلى شارلوت. كيف لها، وهي دليا رالستن التي كانت سعادتها واضحة وظاهرة للعيان، أن تحسد شارلوت المسكينة على سر أمومتها الناقصة؟ لقد كرهت نفسها لهذا الحسد كلما استشعرته، وحاولت التكفير عنه بأسلوب رقيق، ومراعاة قلقة لمشاعر شارلوت. لكن المحاولات لم تنجح دومًا، وتساءلت دليا أحيانًا إن كانت شارلوت تستاء من أي إظهار للشفقة لأنه تلميح إلى حظها العاثر. إن أسوأ ما في معاناة كمعاناتها، أنها تسبب الألم للمرء لدى أقل لمسة.

قلبت هذه الأفكار دليا، وهي تغير ثيابها بهدوء أمام المرآة المزينة بالمخرمات، المرآة التي عكست صورتها عروسًا، فسمعت قرعًا خفيفًا. فتحت الباب ووقفت عنده تينا في ثياب النوم، وخصلات شعرها الداكن تنسدل على كتفيها.

مدت دليا ذراعيها وقلبها ينبض سعادة.

«أردت أن أقول لك ليلة سعيدة يا ماما»، همست الفتاة.

«طبعًا يا عزيزتي»، وطبعت دليا قبلة طويلة على جبينها المرفوع، «اذهبي الآن، وإلا أقلقت راحة خالتك. تعلمين أن نومها سيئ وعليك أن تكوني هادئة كالفأر إذ أصبحت جارتك».

«أجل، أعلم»، أذعنت تينا بنظرة حزينة كانت نظرة تذمر.

لم تسأل مزيدًا من الأسئلة ولم تتلكأ، ورفعت يد دليا التي أمسكتها للحظة إلى خدها، ثم خرجت بهدوء كما جاءت.

«ولكن لا بد أنك لاحظت أن تينا تغيرت. ألا ترين ذلك؟»، أصرت شارلوت لوڤل وهي تضع صحيفة ذا إيڤننغ پوست جانبًا.

كانت المرأتان جالستين وحدهما قرب نار حجرة الاستقبال في غريمرسي پارك. أما تينا فقد ذهبت للعشاء مع قريبتها الشابة السيدة جون جونيَس هالسي، وستصحبها في وقت لاحق إلى الحفلة الراقصة في بيت آل ڤاندرغريف، ووعدها آل جون جونيَس بأخذها منها إلى البيت. كانت السيدة رالستن وشارلوت، وقد أنهتا عشاءهما مبكرًا، ستقضيان الأمسية الطويلة وحدهما. وقضت عادتهما في مناسبات كهذه، أن تقرأ شارلوت الأخبار بصوت عالٍ على قريبتها المنشغلة بالتطريز؛ غير أنهما الليلة، وفي أثناء انتقال شارلوت المتقن من خبر إلى آخر، دون أن تغفل واحدًا أو تتخطاه، شعرت دليا لسبب ما برغبتها في استغلال غياب ابنتها.

انحنت السيدة رالستن على غرزة في مطرزتها البيضاء الرقيقة، رغبة في كسب الوقت.

«تغيرت تينا؟ منذ متى؟»، سألت.

وأتى الرد بسرعة: «منذ أن صار لاننغ هالسي يكثر من القدوم إلى هنا».

«لاننغ؟ لقد ظننته يأتي من أجل دليا»، قالت السيدة رالستن مستغرقة في التفكير، وهي تتحدث خبط عشواء لكسب مزيد من الوقت.

«لا بـد أن تظنـي كل زائـر يأتـي مـن أجـل دليـا»، ردت شـارلوت بجفـاء، «ولكـن مـا دام لاننـغ مسـتمرًا فـي تحيـن كل فرصـة ليكـون برفقـة تينـا...»

رفعـت السـيدة رالسـتن رأسـها واسـترقت نظـرة خاطفـة إلـى قريبتهـا. لقـد لاحظـت تغيـر تينـا فعـلًا، كمـا تتغيـر الزهـرة فـي لحظـة غامضـة، فتحمـر البتـلات المغلقـة مـن الداخـل. لقـد ازداد جمـال الفتـاة وخجلهـا وصمتهـا، ومرحهـا دون سـبب فـي أحيـان أخـرى. لكـن دليـا لـم تربـط تغيـرات المـزاج بحضـور لاننـغ هالسـي، أحـد الشـبان الكثيريـن الذيـن ترددوا إلـى البيـت قبـل زواج دليـا. بـل إن السـيدة رالسـتن ثبتـت نظرهـا فـي لحظـة مـا علـى الوسـيم لاننـغ فـي شـيء مـن الخـوف. مـن بيـن كل الأنسـباء المجحدريـن والضخـام مـن آل هالسـي، كان الوحيـد الـذي تتـردد أم حكيمـة أن تعهـد إليـه بابنتهـا، ولا يعـرف مـن سـبب لذلـك عـدا أنـه الأوسـم والأكثـر أُنسًـا مـن الآخريـن، ومَـن لا يلتـزم مواعيـده غافـلًا عـن الحقيقـة. كان كلِـم سـيندر هكـذا، ومـاذا لـو أن دليـا الشـابة...؟

لكـن أم دليـا الصغيـرة اطمأنـت سـريعًا، فالفتـاة ماكـرة ومثيـرة، ولـم تثـر اهتمامهـا وسـامة مماثلـة مـا لـم تعززهـا صفـات أكثـر متانـة. ولمـا كانـت رالسـتنية حقـة، فقـد أرادت الفضائـل الرالسـتنية، فاختـارت أجـدر شـبان هالسـي بعـروس مـن آل رالسـتن.

شـعرت السـيدة رالسـتن بـأن شـارلوت تنتظرهـا أن تتحـدث. «سـيصعب علينـا اعتيـاد فكـرة زواج تينـا»، قالـت بهـدوء. «لسـت أدري مـاذا سنفعل، نحـن العجوزيـن، وحدنـا فـي هـذا البيـت الخالـي، لأنـه سـيكون بيتًـا فارغًـا عندئـذ. لكنـي أحسـب أن علينـا مواجهـة الأمـر».

«إنني أواجهه حقًا»، قالت شارلوت لوڤل بوقار.

«ألا يعجبك لاننغ؟ أعني زوجًا لتينا؟»

طوت الآنسة لوڤل صحيفة المساء، ومدت يدًا نحيلة لتتناول شغل الصنارة. ونظرت إلى قريبتها عبر طاولة الأشغال المصنوعة من خشب الكباد. وقالت: «لن تكون تينا صعبة المنال جدًا».

«أوه...»، اعترضت دليا وقد احمر وجهها.

«دعينا نسمِّي الأمور بمسمياتها»، واصلت الأخرى بحياد، «إن هذا أسلوبي في الحديث دومًا. ومن عادتي ألا أقول شيئًا كما تعلمين».

أومأت الأرملة إشارة الموافقة، فتابعت شارلوت، «هذا أفضل. ولكني عرفت أن الوقت سيحين، وسيتعين علينا مناقشة هذا الأمر».

«نناقش هذا الأمر؟ أنا وأنت؟ أي أمر؟»

ساد الصمت. تنفست الصعداء دليا رالستن، التي تستجيب دومًا إلى أدنى التماس لصدقها. سينكسر الثلج في صدر شارلوت أخيرًا.

«عزيزتي»، غمغمت دليا، «تعلمين كم تهمني سعادة تينا. أفي ذهنك خاطب آخر، ما دمت لا توافقين على لاننغ هالسي زوجًا لها؟»

ابتسمت الآنسة لوڤل إحدى ابتساماتها الشاحبة. «لا علم لي بوقوف صف منهم أمام الباب. كما أني لا أرفض لاننغ هالسي زوجًا لها. شخصيًا أجده مقبولًا جدًا، وأفهم افتتانه بتينا».

«آه... أتينا منجذبة إليه؟»

«أجل».

نحّت السيدة رالستن أشغالها جانبًا، وتأملت بفكر عميق وجه

قريبتها ذي الخطوط الحادة. لم تجسد شارلوت لوڤل يومًا صورة نمطية للعانس أكمل مما فعلت في أثناء جلوسها هناك، مستقيمة الظهر، على كرسيها القاسي بمرفقين دقيقين، وإبرتين تقعقعان، ونقاشها أمر زواج ابنتها بهدوء.

«لست أفهم يا شاتي. أيًا ما كانت عيوب لاننغ – ولا أظنها كبيرة- فإني أقاسمك إعجابك به، فهو...»، صمتت السيدة رالستن، «ما الذي يستهجنه الناس فيه؟ غالبًا، مثلما تناهى إلى مسامعي، أنه لا يستطيع اختيار مهنته. وإن رأي نيويورك في هذا لضيق الأفق، كما نعرف. قد يكون للشباب ميول أخرى... فنية أو أدبية... وقد يجدون صعوبة في الاختيار».

احمر وجها المرأتين قليلًا، وحدست دليا أن الذكرى نفسها التي خبطت صدرها قد خبطت صدر شارلوت المسطح.

تكلمت شارلوت. «أجل، أدرك ذلك. لكن التردد في اختيار المهنة قد يؤدي إلى التردد في قرارات أخرى».

«ماذا تقصدين؟ لست تعنين قطعًا أن لاننغ...»

«لم يطلب لاننغ تينا للزواج».

«أوتظنينه مترددًا؟»

صمتت شارلوت. قطعت الصمتَ القعقعةُ المنتظمة لإبرتها، كما قطعته قبل سنوات دقات الساعة الباريسية على مدفأة دليا. شعرت دليا بشيء من التوتر الخفي في الجو لما عادت ذاكرتها إلى ذلك المشهد.

تحدثت شارلوت. «لم يعد لاننغ مترددًا، لقد قرر ألا يتزوج تينا. لكنه قرر أيضًا ألا ينقطع عن رؤيتها».

سرعان ما احمر وجه دليا. فقد استاءت وتعجبت من عبارات شارلوت المبهمة، التي تخرج بتقتير من شفتيها البخيلتين.

«أنت لا تعنين أنه طلب يدها ثم تراجع؟ لا أظنه قادرًا على إهانة كهذه بحق تينا».

«لم يهن تينا، لكنه أخبرها بأنه لا يقوى على نفقات الزواج. ولن يعطيه والده إلا بضع مئات من الدولارات في العام، حتى يختار مهنته، وستكون هذه المخصصات عرضة للإيقاف إن تزوج مخالفًا رغبة والديه».

حان دور دليا لتلزم الصمت. إن الماضي يُبعث من جديد بعثًا ساحقًا في كلمات شارلوت. وقف كلمنت سپندر أمامها مترددًا، معدمًا، مقنعًا... آه، لو أنها اقتنعت!

«يؤسفني حدوث هذا لتينا. ولكن ما دام لانِنغ محترمًا وانسحب دون منح آمال زائفة، فلا بد أن نأمل... أن نأمل...»، صمتت دليا دون أن تعرف ما الذي عليهما أن تأملاه.

وضعت شارلوت أشغال الصنارة جانبًا. «تعلمين كما أعلم يا دليا أن كل شاب يقع في غرام تينا سيجد أسبابًا مقنعة كهذه كيلا يتزوجها».

«أترين أعذار لانِنغ ذرائع فحسب؟»

«قطعًا. وهذه أول حجة من الحجج التي سيتذرع بها أخلافه، إذ سيكون له أخلاف قطعًا، فتينا فاتنة».

«آه»، غمغمت دليا.

ها قد أصبحتا وجهًا لوجه مع المشكلة التي- عبر سنوات الصمت والتملص- ظلت قريبة من السطح بقدر جثة دفنت على

عجل! أخذت دليا نفسًا عميقًا آخر، كأنها تتنفس الصعداء. لقد علمت دومًا أن العثور على زوج لتينا سيكون صعبًا، بل يكاد يكون مستحيلًا. وبقدر ما تمنت سعادة تينا، فإن شيئًا من الأنانية البريئة همس لها بأن حياتها ستكون أقل وحدة، وأقل انعدام معنى، إن اضطرت الفتاة إلى مقاسمتها إياها. ولكن كيف تقول هذا لأم تينا؟

«أرجو أنك تبالغين يا شارلوت. قد يكون ثمة أشخاص غير مبالين... ولكن تينا لن تكون تعسة هنا قطعًا، ونحن نحبها حبًا جمًا».

«تينا عانس؟ أبدًا»، نهضت شارلوت لوقل بسرعة، وقبضتا يديها تخبطان على طاولة الأشغال الرفيعة. «سيكون لطفلتي حياتها... حياتها... مهما كلفني ذلك...»

تعاظم تعاطف دليا. «أفهم ما تشعرين به. أود ذلك أنا أيضًا، رغم صعوبة رحيلها عنا. ولكن لا حاجة بنا إلى العجلة، ولا داعي لاستباق الأمور، فالصغيرة لم تبلغ العشرين بعد. انتظري...»

وقفت شارلوت أمامها بلا حراك، مثل خط عمودي. في لحظات كهذه، جعلت دليا تتخيل الطمي يصارع للانبثاق من الصوّان، ولم يبدُ في داخله أثر للنيران.

«أنتظر؟ وماذا لو لم تنتظر؟»

«ولكنه انسحب... ماذا تعنين؟»

«لقد تخلى عن الزواج بها، لا لقائها».

نهضت دليا بدورها مرتجفة وقد احمر وجهها.

«شارلوت! أتعلمين إلامَ تلمحين؟»

«أجل، أعلم».

«لكنه شائن جدًّا. لن تقدم فتاة محترمة...»

ماتت الكلمات على شفتي دليا. ثبتت شارلوت لوقل نظرها دون رحمة وقالت: «إن الفتيات لسن دومًا محترمات كما تصفينهن».

استدارت السيدة رالستن بهدوء نحو كرسيها، وقد سقط إطار مطرزتها على الأرض فانحنت بشدة لرفعه. وتدلى قربها قوام شارلوت النحيل، قاسيًا كالقدر.

«لست أدري ما الذي نجنيه من كلام كهذا يا شارلوت أو حتى الإشارة إليه؟ لا بد أنك تثقين بابنتك».

ضحكت شارلوت وقالت: «لقد وثقت بي أمي».

«كيف تجرئين؟ كيف تجرئين؟»، قالت دليا، لكنها أخفضت عينيها وشعرت برعشة ضعف في حلقها.

«أوه، إني أجرؤ على كل شيء من أجل تينا، حتى بالحكم عليها كما هي»، همست أم تينا.

«كما هي؟ إنها كاملة!»

«لنقل إذن إن عليها دفع ثمن عيوبي. وكل ما أريده ألا تضطر إلى دفع الثمن غاليًا».

جلست السيدة رالستن صامتة. تخايل لها أن شارلوت قد تكلمت بصوت كل الأقدار المخيفة، الملتفة تحت السطح الآمن للحياة، وما من جواب على صوت كهذا سوى الإذعان الخائف.

«يا لتينا المسكينة!»، قالت همسًا.

«أوه، لست أنوي أن أجعلها تعاني! ليس من أجل هذا انتظرت... انتظرت. لقد ارتكبت أخطاء أدركها الآن، ولا بد من إصلاحها. لقد كنت كريمة معنا، وعلينا الرحيل».

«ترحلان؟»، قالت دليا لاهثة.

«أجل. لا تظني أني جاحدة. لقد أنقذت طفلتي مرة، أو تحسبين أن بوسعي النسيان؟ لكنه دوري الآن، أنا من عليّ حمايتها ولا يكون هذا إلا بإبعادها عن كل شيء هنا، عن كل ما عرفته. وبوسعي فعل هذا. لقد عاشت طويلًا في الأوهام، وهي مثلي. لن ترضيها الأوهام».

«أوهام؟»، رددت دليا بإبهام.

«أوهامها. الشبان الذين يحبونها ولا يمكنهم الزواج بها، البيوت التي ترحب بها، إلى أن يرتاب أهلها في مؤامرة تحاك على أخ أو زوج، أو أن تتلقى إهاناتهم. كيف تخيلنا، أعني كلتينا، أن الطفلة قد تنجو من الكارثة يومًا؟ لقد فكرت بسعادتها الراهنة فحسب، ومن كل المنافع، لكلتينا، في الإقامة معك. لكن هذه العلاقة مع الشاب هالسي قد فتحت عينيّ. يجب أن أبعد تينا، يجب أن أذهب للعيش في مكان ما، حيث لا يعرفنا أحد، حيث نكون بين الناس العاديين ونعيش حياة عادية. في مكان ما حيث يمكنها العثور على زوج وتأسيس أسرة».

صمتت شارلوت، فقد تحدثت بنبرة رتيبة سريعة، كأنها تكرار، لكن صوتها انكسر ورددت متألمة: «أنا لست جاحدة».

«أوه، دعينا لا نتحدث عن الامتنان! فأي مكان له بيني وبينك؟»

نهضت دليا وأخذت تذرع الغرفة قلقة. لقد أرادت أن تتوسل شارلوت، أن تستعطفها لئلا تتعجل، أن تصور لها قسوة انتزاع تينا من كل عاداتها ومعارفها، وأخذها بعيدًا دون تفسير، «لتعيش حياة عادية بين أناس عاديين».

ما احتمال خضوع شابة رائعة جدًّا لقدر كهذا، أو العثور على زوج مقبول في ظروف كهذه؟ قد لا يأتي هذا التغيير إلا بمأساة. كانت دليا قليلة الخبرة فلم تتصور ما قد يحدث لفتاة مثل تينا، وقد حرمت فجأة من الحياة الجميلة. ولكن طافت بمخيلتها المعذّبة رؤى مبهمة للتمرد والهرب، ولسقطة مريعة يتعذر إصلاحها، أكبر من سقطة شارلوت.

«إن هذا قاسٍ، إن هذا قاسٍ»، قالت تحدث نفسها، أكثر من حديثها لشارلوت.

أما شارلوت، فعوضًا عن أن ترد، اكتفت بالنظر إلى الساعة.

«أتعلمين كم الساعة الآن؟ لقد تجاوز الوقت منتصف الليل. يجب ألا أبقيك ساهرة من أجل فتاتي الحمقاء».

اعترض قلب دليا. لقد رأت أن شارلوت أرادت اختصار الحديث، وأن تفعل ذلك بتذكيرها أن لأم تينا وحدها الحق في تحديد مستقبل تينا. في تلك اللحظة، ورغم اعتراض دليا على الحديث عن الامتنان، بدت شارلوت لوهلة وحشًا للجحود، ووقف الكلام على طرف لسانها إذ أرادت أن تصرخ: «ألم تمنحني كل هذه السنوات حصة في تينا؟»، لكنها في اللحظة نفسها وضعت نفسها مكان شارلوت، وشعرت بمخاوف الأم القوية على ابنتها. حق لشارلوت أن تستاء من أدنى محاولة في السر لاغتصاب السلطة التي لم تتمكن من فرضها علانية. أدركت دليا، بدفقة شفقة، أنها حرفيًا الوحيدة على سطح الأرض التي يسع شارلوت أمامها أن تمارس دور الأم. «يا للمسكينة! أوه... دعيها تفعل!»، قالت في سرها.

«ولكن لمَ تنتظرين تينا؟ إن عندها مفتاحًا، وستعيدها دليا إلى البيت».

لم تجب شارلوت لوفل في الحال. بل لفت أشغال الصنارة ونظرت بحدة إلى أحد الشمعدانات على رف المدفأة، وتقدمت لتعديله. ثم حملت حقيبة أشغالها.

«أجل. كما قلت، لماذا على أي أحد أن ينتظرها؟»، وتنقلت في الغرفة وأطفأت المصابيح، وغطت النار مطمئنة نفسها أن النوافذ مزلّجة. راقبتها دليا بحياد، ثم أشعلت القريبتان شمعتي غرفتيهما، وصعدتا الدرج عبر البيت المظلم. بدت شارلوت عازمة على ألا تلمح إلى موضوع حديثهما، ووقفت على بسطة الدرج محنية رأسها لقبلة دليا ما قبل النوم.

«أرجو أنهم قد أشعلوا نار مدفأتك»، بهيئة مدبرة المنزل الماهرة، ولدى تأكيد دليا المتعجل، همست الاثنتان في الوقت نفسه «ليلة طيبة»، واستدارت شارلوت في الممر المؤدي إلى غرفتها.

9

كانت نار مدفأة دليا مشتعلة، ومبذلها يستدفئ على كرسي ذي ذراعين قرب المصطلى. لكنها لم تغير ثيابها ولا جلست، فقد ملأها حديثها مع شارلوت بقلق عميق.

وقفت لبضع لحظات وسط الغرفة تنقّل نظرها في ما حولها. لم يتغير شيء قط في الغرفة التي عزمت، حتى وهي عروس، على تغييرها. إذ بهتت أحلامها في التجديد منذ زمن بعيد. وجعلها الفتور العميق الطاغي تنظر إلى نفسها بوصفها ضميرًا غائبًا، تعيش حياة قُدرت لامرأة غيرها؛ امرأة لا تشبه في شيء دليا لوفل المفعمة بالحياة، التي دخلت هذا البيت وهي تضج بالخطط والرؤى.

وأدركت أن الخطأ لم يكن خطأ زوجها، إذ كان بوسعها، بقليل من التدبير وقليل من التملق الفوز في أي مسألة، كما فازت في القضية الكبرى في ضم اللقيطة تحت جناحها. غير أن لا شيء، بعد هذا الانتصار، بدا جديرًا بالمحاولة. إن مرأى تينا الصغيرة أول مرة قد همش حياة دليا رالستن برمتها، ولم تعد تكترث بشيء آخر إلا رفاه زوجها وطفليها، ورأت أمامها مستقبلًا مزدحمًا بالواجبات التي أدتها ببهجة وإخلاص. لكن حياتها انتهت، وشعرت بأنها نائية مثل راهبة منعزلة.

كان التغيير عميقًا داخلها تتعذر رؤيته. وأبدى آل رالستن سرورهم بخضوع دليا العزيزة، إذ غدا كل إذعان تنازلًا، وغدت عقيدة العائلة أقوى عبر براهين كهذه على استمراريتها. حين

نظرت دليا حولها، إلى اللوحة المنقوشة لليوپولد روبرت، وصور العائلة الديجيرية وخشب الورد والماهوغني، أدركت أنها تنظر إلى جدران قبرها.

لقد حدث التغيير في اليوم الذي أفشت لها شارلوت لوڤل بسرها المروع، وهي ملتفة على الأريكة. حينها سمعت دليا للمرة الأولى، بنشوة مشوبة بالخوف، القوى العمياء للحياة تتلمس طريقها وتبكي تحت قدميها. لكنها عرفت في ذلك اليوم أيضًا أنها مقصية عنها، ومحكوم عليها أن تعيش بين الظلال. لقد تجاوزتها الحياة وتركتها تعيش بين آل رالستن.

حسنٌ إذن! ستظهر أحسن ما فيها وما في آل رالستن. كان الوعد سريعًا وجسورًا، واستمرت في مراقبته زهاء عشرين عامًا. في مرة واحدة فحسب لم تكن من آل رالستن، بل كانت ذاتها، مرة كانت جديرة بالاهتمام. وها قد تردد صوت التحدي نفسه مرة أخرى، في لحظة بدت مرة أخرى جديرة بأن تعاش. ليس من أجل كلمنت سپندر – يا للمسكين كلمنت، فقد تزوج قبل سنوات من قريبة عادية الطلعة قوية العزم لاحقته في روما وحاصرته بألفة لا تلين، وأجبرت كامل أهل نيويورك من المسافرين في الرحلة الكبرى على شراء لوحاته بابتسامة استسلام. كلا، ليس من أجل كلمنت سپندر، ولا شارلوت ولا حتى تينا، بل من أجلها هي، دليا رالستن، من أجل حلمها الضائع وواقعها المفقود، ستطيح بحواجز آل رالستن ثانية وتخرج إلى العالم.

أقلق تأملاتها صوت خافت في البيت الصامت. أصخت السمع، فسمعت باب شارلوت لوڤل وتنورتها التحتية المنشاة

تحف نحو بسطة الدرج. سطع ضوء من تحت الباب ثم تلاشى، فقد تجاوزت شارلوت باب دليا في طريقها نحو الأسفل.

واصلت دليا استماعها دون أن تتحرك. لعل شارلوت الحريصة نزلت لتتأكد أن الباب لم يكن مزلجًا، أو أنها غطت نار المدفأة. إن كان ذاك مبتغاها فسرعان ما ستسمع خطوها عائدة. ولكن لا وقع أقدام، وتبين لها شيئًا فشيئًا أن شارلوت نزلت لتنتظر ابنتها. لماذا؟

كانت غرفة دليا في مقدمة البيت، فمشت على السجادة السميكة ورفعت الستائر وطوت المصاريع الداخلية بحذر. وفي الأسفل الباحة الفارغة بيضاء من نور القمر، وقد لمعت جذوع أشجارها من الثلج الجديد المتلألئ. نامت البيوت المقابلة في الظلام، ولم يكسر بياض السطح خطوة، ولم يشب الشارع الجميل أثر عجلات العربات. وفي الأعلى، سماء ملأى بالنجوم تسبح في نور القمر.

عرفت دليا أن اثنتين من الأسر في المنازل المجاورة في غريمرسي پارك قد ذهبتا إلى الحفلة الراقصة، أسرة پترس ڤاندرغريف، وأنسباؤهم الشبان من پارملي رالستن. أما أسرة لوسيس لاننغ، فقد دخلوا عام حدادهم الثالث على والدة السيدة لوسيس (كان ذاك صعبًا على ابنتها كيت، ذات الثمانية عشر عامًا، وألا تتمكن من «الظهور» إلى المجتمع، وقد بلغت الواحدة والعشرين). وكانت الشابة السيدة مارسي منغوت تنتظر مولودها الثالث، لذا احتجبت عن أعين العامة لما يقارب العام. أما ساكنو الميدان الآخرون، فلم يكونوا من المميزين أو المدعوين.

ضغطت دليا جبينها على لوح الزجاج. وقبل أن تنعطف العربات الطويلة عند الناصية، اهتز الميدان النائم تحت وقع الحوافر والضحكات الرنانة، وعلت الوداعات الشابة من درجات الباب. ولكن لماذا كانت شارلوت تنتظر ابنتها في الأسفل في العتمة؟

دقت الساعة الباريسية معلنة الساعة الواحدة. عادت دليا إلى الغرفة وأذكت النار، وحملت وشاحًا التفت به وعادت إلى مراقبتها. آه، لا بد أنها شاخت لتشعر بالبرد في هذه اللحظة! وذكّرها هذا بما يحمله المستقبل لها: آلام الرثية والأعصاب والتصلب والأسقام الكثيرة. ثم إنها لم تسهر يومًا لمراقبة نور القمر بين ذراعي حبيب تدفئانها.

لم يزل الميدان صامتًا. لا بد أن الحفلة الراقصة توشك أن تنتهي، فأكثر الحفلات الراقصة مرحًا لا تستمر طويلًا بعد الواحدة صباحًا، وكان طريق العودة من يونڤرستي پليس إلى غريمرسي پارك قصيرًا. اتكأت دليا على الكوة وأنصتت.

تردد صوت وقع الحوافر، الذي كتمه الثلج، في إيرڤنغ پليس، ووقفت عربة آل پترس ڤاندرغريف أمام المنزل المقابل. ترجلت فتيات آل ڤاندرغريف وأخوهن وصعدوا العتبات. وقفت العربة ثانية بعد بضعة أبواب، ونزل عند الباب آل پارملي رالستن الذين أعادهم أنسباؤهم. لا بد أن العربة التالية التي انعطفت عند الناصية عربة جون جونيَس تحمل تينا.

دقت الساعة المذهبة معلنة الواحدة والنصف. تعجبت دليا، وهي تعلم أن دليا الصغيرة لم تتأخر يومًا في الحفلات الراقصة مراعاة لساعات عمل جون جونيَس، لا بد أن تينا أخرتها. وراود

السيدة رالستن شيء من الاستياء من طيش تينا لتأخير قريبتها. لكن هذا الإحساس انمحى سريعًا بموجة قوية من العطف. «لا بد لنا أن نذهب إلى مكان ما ونعيش حياة عادية بين أناس عاديين». إن نفذت شارلوت تهديدها، وتعرف دليا حق المعرفة أنها ما كانت لتتحدث لو لم تعقد العزم، فسترقص تينا المسكينة عندئذ آخر رقصة ڤالس لها.

مرت ربع ساعة أخرى. ولما وجد البرد سبيلًا إلى دليا عبر وشاحها، رأت شخصين ينعطفان في الميدان الخالي من إيرڤنغ پليس. كان أحدهما شابًا يعتمر قبعة أوپرا ويلبس معطفًا أنيقًا. وتشبث بذراعه قوام ملفوف ومغطى جعل دليا تتردد حتى سقط عليه ضوء الناصية. فتعجبت أنها لم تميز خطوات تينا الراقصة وعادتها في إمالة رأسها قليلًا نحو الجانب، لتنظر إلى الأعلى إلى الشخص الذي تحدثه.

تينا، تينا ولاننغ هالسي، يعودان مشيًا وحدهما في الساعات الأخيرة من حفل آل ڤاندرغريڤ الراقص! كان وقوع حادث أول ما تبادر إلى ذهن دليا؛ لا بد من أن العربة تعطلت، أو أن ابنتها شعرت بالتعب فاضطرت إلى العودة. ولكن كلا، كانت سترسل عندئذ العربة إلى تينا، ولو وقع حادث من أي نوع لأسرع الشبان لإعلام السيدة رالستن. لكنهما في الليل الجميل القارس سارا الهوينى مثل عاشقين في فسحة غابة منتصف الصيف، ولوطئ خفا تينا الرقيقان زهور الربيع عوضًا عن الثلج.

أخذت دليا ترتعش مثل فتاة. لقد حصلت في إلماحة خاطفة على جواب لسؤال كان موضع تخميناتها السرية مطولًا. كيف

لعاشقين مثل شارلوت وكلمنت سپندر أن يحتالا للقاء؟ ماذا خبأ معتزل لاتمين من مباهجهما السرية؟ كيف أمكن -حرفيًا- لأحداث كهذه أن تقع في مجتمع صغير مختصر ينتمون إليه كلهم؟ ما جرؤت دليا يومًا أن تسأل شارلوت هذا السؤال، فقد آثرت في لحظات ألا تعرف، بل ألا تجازف بالتخمين. ولكنها الآن فهمت من نظرة. كم مشت شارلوت لوڤل، المقيمة وحدها في المدينة مع جدتها المتساهلة، عائدة إلى البيت من حفلات مسائية مع كلمنت سپندر؟ وكم مكثت معه في البيت المعتم في شارع ميرسر، حيث لا أحد يتجسس عليهما سوى عجوز صماء وخدمها المسنين، وكلهم ينامون نومًا عميقًا في الطابق العلوي! رأت دليا، لدى تفكيرها في هذا، حجرة الاستقبال الكالحة التي كانت غابة لهما ينيرها القمر، حجرة ذات ثريا ملفوفة وأرائك قاسية من طراز إمپاير وتماثيل لا أعين لها على رف المدفأة، لم تعد السيدة العجوز لوڤل تنزل إليها. تخيلت شعاع نور القمر يسقط على طيور التم والأكاليل على السجادة الباهتة، وفي ذلك الضوء الثلجي شاب وشابة يتعانقان.

أجل. لا بد أن ذكرى كهذه قد أثارت ريبة شارلوت، وجسدت مخاوفها، فأنزلتها في العتمة لتواجه المذنبين. ارتجفت أوصال دليا لسخرية المواجهة. لو علمت تينا! ولكن في نظر تينا، لم تزل شارلوت ما عزمت أن تكونه منذ زمن طويل؛ صورة للعانس المتزمتة. وتخيلت دليا كيف سيحدث المشهد في الطابق السفلي بهدوء ولياقة، فلا عجب ولا توبيخ ولا تعريض، بل ابتسام وتجاهل متعمد للأعذار.

«ماذا يا تينا؟ أعدت سيرًا مع لاننغ؟ أيتها الصغيرة الطائشة... في هذا الثلج الرطب! آه، فهمت... كانت دليا قلقة على الصغيرة، وغادرت مبكرًا، ووعدتك بإرسال العربة ولم تفعل؟ حسنٌ يا عزيزتي، أهنئك لعثورك على لاننغ ليحرص على إيصالك إلى البيت... أجل، سهرت لأني لم أتذكر إن كنت أخذت مفتاح المزلاج أم لا، أرأيت يومًا خالة عجوزًا حمقاء مثلي؟ ولكن لا تخبري أمك يا عزيزتي، وإلا وبختني لأني نسّاءة جدًا، وللبقاء في الأسفل في هذا البرد. أأنت متأكدة من أن المفتاح بحوزتك؟ آه، بحوزة لاننغ؟ شكرًا لك يا لاننغ، هذا لطف منك! ليلة سعيدة، أو ربما علينا قول صباح الخير؟»

ولما وصلت دليا إلى هذا الحد في تمثيلها الصامت لنجوى شارلوت، صُفق الباب في الأسفل، وابتعد الشاب لاننغ هالسي عابرًا الميدان. ورأته دليا يقف على الرصيف المقابل وينظر إلى واجهة البيت ثم يستدير متلكئًا. لقد استغرق ذهابه ما حسبته دليا من الوقت تمامًا. ورأت بعد قليل ضوءًا يمر تحت بابها، وسمعت الحفيف المنشى لتنورة شارلوت، وعرفت أن الأم وابنتها قد وصلتا إلى غرفتيهما.

أخذت تخلع ثيابها، ببطء وحركة متخشبة، ثم نفخت على شمعتها وجثت قرب سريرها، مخفية وجهها.

10

عاشـت دليـا، وهـي مسـتلقية سـاهرة حتـى الصبـاح، كل تفصيـل مـن اليـوم المشـؤوم، عندمـا تعهـدت ابنـة شـارلوت. كانـت هـي الأخرى طفلـة عندئـذ، ولـم يكـن عندهـا أحـد تلجـأ إليـه، ولا أحـد يشـجعها علـى قرارهـا، أو ينصحهـا كيـف تنفـذه. لا بـد أن الخبـرات المتراكمـة لعشـرين سـنة منذئـذ قـد هيأتهـا للطـوارئ، وعلمتهـا أن تنصـح الآخريـن بـدلًا مـن البحـث عـن هديهـم. لكـن سـنوات الخبـرة هـذه أثقلـت كاهلهـا مثـل سـلاسـل تربطهـا برقعتهـا مـن الحيـاة، وأدهشـها الفعـل الحـر بوصفـه أخطـر ويتعـذر تخيلـه أكثـر ممـا أقدمـت عليـه أول مـرة. فـلا بـد مـن الأخـذ بعيـن الاعتبـار الكثيـر مـن الأشـخاص (أخذهـم بعيـن الاعتبـار كان مصطلـح آل رالسـتن)؛ ابنيهـا وأبنائهمـا والأسـرتين اللتيـن صاهراهمـا، مـاذا سـيقول آل هالسـي؟ ومـاذا سـيقول آل رالسـتن؟ هـل أصبحـت إذن مـن آل رالسـتن بعـد كل هـذا؟

جلسـت بعـد بضـع سـاعات فـي مكتبـة السـيد العجـوز لانسـكل، وعيناهـا علـى بسـاطه المسـخم مـن سـميرنا. لـم يعـد الطبيـب يمـارس مهنتـه منـذ سـنوات، بـل واصـل عيـادة مرضـى قليليـن، وتقديـم المشـورة فـي الحـالات الصعبـة. لكنـه ظـل قويًـا فـي مملكتـه السـابقة، مثـل البابـا أو حكيـم فـي الطـب يعـود إليـه المرضـى الذيـن شـفاهم مـن مـرض أجسـامهم طلبًـا للاستشـفاء الروحـي. واتفـق النـاس علـى أن الطبيـب لانسـكل كان حكيمًـا. غيـر أن مـا جذبهـم إليه سـرًا سـمعته بأنـه لا يخشـى شـيئًا، فـي أكثـر المجتمعـات عشـائرية. حيـن جلسـت دليـا تراقـب قوامـه الضخـم ذا الشـعر الفضـي يـذرع الغرفـة متفكـرًا

بين صنوف من الكتب الطبية المجلدة بجلد العجل، وتماثيل المجالد المحتضر وأوغستس الشاب[1] تلقاها هدايا من مرضى شاكرين، شعرت بالطمأنينة التي أشاعها حضوره الجسدي.

«كما ترى، عندما تعهدت تينا في البدء، لعلي لم أفكر تمامًا...»

وقف الطبيب خلف مكتبه ووضع قبضته عليه بخبطة لطيفة.

«حمدًا للرب أنك لم تفعلي! ففي البلدة ما يكفي من التفكير دون تفكيرك يا دليا لوفل».

رفعت رأسها بسرعة «لماذا دعوتني دليا لوفل؟»

«حسنٌ، لأنني اليوم يساورني شك في أنك كذلك»، رد بحذق، فقابلت قوله بضحكة رشيقة.

«ربما، لو أني لم أكن كذلك قبلًا... أعني لو أني كنت دومًا رالستنية متعقلة حكيمة، لكان ذلك أنفع لتينا في النهاية».

هوى الطبيب لانسكل بهيكله المتورم على الكرسي ذي الذراعين خلف مكتبه، وابتسم لها عبر نظارته المعدنية «أكره النفع في النهاية، فهو مثل لحم ضأن بارد في يومه الثالث».

تفكرت، «أدرك قطعًا أنني لو تبنيت تينا...»

«نعم؟»

«سيقول الناس...»، اكتسى عنقها بحمرة قانية، وغطت وجنتيها وحاجبيها، وسرت كالنار تحت شعرها المفروق فرقًا أنيقًا.

أومأ برأسه: «نعم».

---

(1) تمثال من الرخام يعرض في متاحف كاپلوتين وهو نسخة عن تمثال من البرونز يعود إلى المرحلة الهلنستية. وأوغستس الشاب: تمثال يجسد وريث يوليوس قيصر، للنحاتة الأفروأمريكية إدمونيا لويس.

«أوه...»، ازداد احمرارها، «إنها ابنة جيم».

هـز الطبيـب لانسـكل رأسـه ثانيـة. «هـذا مـا سـيظنونه علـى الأرجـح. ومـا ضـر لـو فعلـوا؟ أعـرف جيـم؛ ولـم يسـألك أي سـؤال عندمـا تعهـدت الطفلـة لكنـه عـرف ابنـة مـن تكـون».

رفعت إليه عينين مذهولتين: «عرف؟»

«أجـل. جـاء إلـي. حسـنٌ، خرقـت سـرية المهنـة لصالـح الطفلـة. هكـذا حصلـت تينـا علـى بيـت. لـن تزدرينـي، أليـس كذلـك؟»

«أوه أيها الطبيب لانسكل»، اغرورقت عيناها بدموع الألم، «عرف جيم ولم يخبرني؟»

«بلـى. لا يتبـادل النـاس الكثيـر مـن الأسـرار هـذه الأيـام، أليـس كذلـك؟ لكنـه أعجـب بـك أيمـا إعجـاب لمـا فعلتـه، وإن افترضـت- وأحسـبك سـتفعلين- أنـه الآن فـي عالـم المعرفـة الكاملـة، فلـمَ لا تسـلّمين بأنـك نلـت إعجابـه أكثـر لمـا أنـت مقدمـة علـى فعلـه؟ قطعًـا»، ختـم الطبيـب قولـه متهكمًـا، «يـدرك أهـل الجنـة أن الإقـدام علـى فعل شـجاع، علـى الأرض، فـي عمـر الخامسـة والأربعيـن أصعـب بكثيـر مـن فعلـه فـي الخامسـة والعشـرين».

«آه، هذا ما كنت أفكر فيه هذا الصباح»، أقرت.

«حسـنٌ، سـتثبتين العكس عصـر اليوم». نظـر إلـى سـاعته ووقـف ووضـع يـدًا أبويـة علـى كتفهـا. «دعـي النـاس يفكـرون كيفمـا شـاؤوا، وأرسـلي إلـيّ دليـا الصغيـرة إن سـببت لـك المتاعـب. تعلميـن أن ابنـك لـن يفعـل، ولا جـون جونيَـس. لا بـد أن مـن اختـرع فكـرة الجيـل الثالـث والرابـع كان امـرأة..»

أطلت خادمة مسنة، ونهضت دليا لكنها وقفت بالباب.

«أفكر في إرسال شارلوت إليك».

«شارلوت؟»

«ستكره ما أنا عازمة على فعله كما تعلم».

رفع الطبيب لانسكل حاجبيه الفضيين. «أجل، شارلوت المسكينة! أحسبها غيرى، وهنا تتضح مسألة الجيل الثالث والرابع جوهريًا. يتعين على أحد أن يدفع الثمن دومًا».

«آه، ليت تينا لا تفعل».

«هذا ما ستدركه شارلوت مع الوقت. لذا فإن طريقك سالكة». قادها خارجًا نحو غرفة الطعام، حيث جلس بعض الفقراء وبعض المرضى المسنين ينتظرونه.

بدا طريق دليا سالكًا حقًا، حتى استدعت شارلوت وحدها إلى غرفتها عصر ذلك اليوم. كانت تينا مستلقية تعاني صداعًا؛ وقد كانت هذه حجة مقبولة للشابات اللاتي يقاسين مآزق عاطفية، فيهدئن بها قلق الكبار.

تبادلت دليا وشارلوت العبارات المعهودة في أثناء وجبة منتصف اليوم، لكن دليا لم تزل تشعر أن قرار قريبتها نهائي. أكدت أحداث الليلة الفائتة رأي شارلوت في أن الوقت قد حان لقرار كهذا قطعًا.

أغلقت الآنسة لوفل باب غرفة النوم برصانتها المتحفظة، وتقدمت نحو الأريكة المزهّرة التي تتوسط النافذتين.

«أأردتِ رؤيتي يا دليا؟»

«أوه، نعم. لا تجلسي هناك»، قالت السيدة رالستن عفويًا.

حدجتها شارلوت. أيعقل أنها لا تذكر دموع الألم التي لطخت بها هذه المخدات؟

«كلا».

«كلا؟ اقتربي مني. أظنني لا أسمع جيدًا أحيانًا»، شرحت دليا متوترة، مقربة كرسيًا من كرسيها.

«آه»، جلست شارلوت، «لم ألحظ ذلك. ولكن إن كنت كذلك، فقد جنّبك سماع في أي ساعة من الصباح عادت تينا من بيت آل ڤاندرغريف الليلة الماضية. لن تغفر لنفسها- وهي الطائشة- إن ظنت أنها أيقظتك».

«لم توقظني»، وقالت دليا في سرها، «إن عقدت شارلوت العزم، فلن أستطيع زعزعتها».

«أحسب أن تينا استمتعت كثيرًا في الحفلة الراقصة»، واصلت القول.

«إنها تدفع ثمن ذلك صداعًا. إن إثارة كهذه لا تناسبها. لقد أخبرتها...»

«أجل»، قاطعتها السيدة رالستن، «لقد طلبت صعودك لنكمل حديث الليلة الماضية».

«نكمله؟» ظهرت الدوائر الحمر على وجنتي شارلوت الجافتين. «أيجدر بنا ذلك؟ أحسب أن عليّ إخبارك بأني عزمت أمري. وأحسبك ستقرين بأني أعرف الأفضل لتينا».

«أجل طبعًا. ولكن ألن تسمحي لي على الأقل أن يكون لي نصيب في قرارك؟»

«نصيب؟»

مالت دليا إلى الأمام واضعة يدًا دافئة على أصابع قريبتها المتشابكة.

«لقد طلبت مني مساعدتك ذات يوم، قبل سنوات هنا في هذه الغرفة يا شارلوت، وكنت واثقة بقدرتي. ألن تؤمني بذلك مرة أخرى؟»

تصلبت شفتا شارلوت. «أحسب الوقت حان لمساعدة نفسي».

«على حساب سعادة تينا؟»

«كلا، ولكن لأجنبها تعاسة أكبر».

«ولكن سعادة تينا هي كل ما أبتغي يا شارلوت».

«أوه، أعلم. لقد فعلت كل ما بوسعك لأجل طفلتي».

«كلا، ليس كل شيء». نهضت دليا ووقفت أمام قريبتها بشيء من الوقار. «لكني سأفعل الآن»، بدا الأمر كأنها تلت عهدًا.

رفعت شارلوت نظرها إليها وبريق القلق في عينيها المتعبتين.

«إن كنت تقصدين أنك ستؤثرين في آل هالسي، فإني شاكرة لك، وسأظل شاكرة لك دومًا. لكني لا أريد لطفلتي زواجًا إجباريًا».

احمر وجه دليا لسوء فهم قريبتها، وبدا لها أن هدفها الكبير يجب أن يكتب على وجهها. «سأتبنى تينا. سأمنحها اسمي»، قالت.

حدجتها شارلوت ببرود «تتبنينها؟ تتبنينها؟»

«ألا تدركين يا عزيزتي الفرق الذي سيصنعه ذلك؟ لديك أموال أمي؛ أموال آل لوڤل. إنها ليست بالثروة الطائلة، لكن جيم أراد دومًا لهذا المال أن يعود إلى آل لوڤل. وابنتي دليا وأخوها مكتفيان تمامًا. فلا سبب يحول دون أن تتحول ثروتي الصغيرة إلى تينا. ولمَ لا تُعَرف بأنها تينا رالستن؟»، صمتت دليا، «أظن – بل أنا واثقة– أن جيم كان سيوافق على ذلك أيضًا».

«يوافق؟»

«ألا تدركين أنه عندما سمح لي بتعهد الطفلة، فقد خمن كل ما سينجم عن ذلك وقَبِل به؟»

وقفت شارلوت أيضًا. «شكرًا لك يا دليا، ولكن يجب ألا ينجم عنه شيء أكثر، سوى تركنا لك، تركنا لك الآن. أنا واثقة بأنه هذا ما سيوافق عليه جيم».

تراجعت السيدة رالستن خطوة أو اثنتين. لقد ثبّط همتها تصميم شارلوت البارد، ولم تعثر على رد فوري.

«آه. إن التضحية بسعادة تينا أسهل عليك من التضحية بكبريائك؟»، قالت.

«كبريائي؟ ليس لي الحق في أي كبرياء، إلا في طفلتي. ولن أضحي بها أبدًا».

«لا أحد يطلب منك ذلك. إنك لا تفكرين بعقل. وأنت قاسية. كل ما أريده أن تسمحي لي بمساعدة تينا، وتتحدثين إليّ كأني أنازعك على حقوقك».

«حقوقي؟»، ردت شارلوت الكلمة بضحكة باهتة، «وما حقوقي؟ ليس لي حقوق لا أمام القانون ولا في قلب طفلتي».

«كيف لك أن تقولي أشياء كهذه؟ تعلمين كم تحبك تينا».

«أجل، شفقة كما اعتدت أن أحب خالاتي العوانس. كان لي اثنتان، أتذكرين؟ لقد حذرونا دومًا -نحن الأطفال- ألا نقول شيئًا يفزع الخالة جوزي أو الخالة توني، مثلما سمعتك تقولين لتينا تلك الليلة...»

«أوه...»، همست دليا.

واصلت شارلوت لوقل الوقوف أمامها، عنيدة صلبة لا تلين. «كلا. لقد مضى هذا منذ زمن بعيد. أريد إخبارها بكل شيء وأخذها بعيدًا».

«أتخبرينها عن مولدها؟»

«لم أخجل من ذلك قط»، قالت شارلوت لاهثة.

«إنك تضحين بها إذن، أتضحين بها من أجل رغبتك في السيطرة؟»

تواجهت المرأتان وقد استنفدت كلتاهما سلاحها. رأت دليا، عبر ارتعاشات غضبها، غريمتها ترتجف ببطء وتتراجع وتتهاوى بهمس مكسور على الأريكة. دفنت شارلوت وجهها في المخدات متشبثة بها بيدين قويتين. كانت عاطفة الأمومة الجياشة التي ألقت بها على هذه المخدات يومًا، تحنيها أكثر في ألم الإنكار، وحسبت دليا أنها تسمع البكاء القديم.

«ولكن كيف أتخلى عن طفلتي؟»، فتلاشى استياؤها الآني وانحنت على كتفي الأم المنهكتين.

«لن تتخلي عنها هذه المرة يا شاتي. ألا يمكننا أن نواصل حبها معًا؟»

لم تجب شارلوت، وظلت مستلقية صامتة وقتًا طويلًا بلا حراك، تخفي وجهها. كأنها تخشى إدارته نحو الوجه المنحني عليها. لكن دليا أخذت ترى استرخاء العضلات الممدودة شيئًا فشيئًا، ورأت إحدى ذراعي قريبتها تتحرك واهنة وتبحث. أخفضت يدها لليد الباحثة، فأمسكت بها وضغطتها إلى شفتي شارلوت.

كان مزمعًا إقامة زفاف تينا لوڤل -وقد أصبحت كلمنتينا رالستن- ولاننغ هالسي في شهر يوليو. أعلنت الخطبة في شهر أبريل الماضي فحسب، وبدأت عجائز القبيلة بالاستياء لابتذال خطبة قصيرة كهذه. اتفق بالإجماع في نيويورك ذلك العصر على «ضرورة منح الشباب فرصة ليتعارفوا»، رغم أن العدد الأكبر من الأزواج الذين يشكلون مجتمع نيويورك قد لعبوا معًا في طفولتهم، وولدوا لآباء يعرف بعضهم بعضًا منذ زمن بعيد. غير أن قانونًا غامضًا من قوانين اللياقة يقضي بأن ينظر إلى حديثي الخطبة بأنهم حديثو التعارف أيضًا. كانت الأمور مختلفة في الولايات الجنوبية، إذ كانت الخطبة المندفعة والزواج بالهرب شائعين في سجلات تاريخها. لكن هذا الاندفاع أقل انسجامًا مع الدم الراكد لنيويورك، حيث لم يزل إيقاع الحياة مدوزنًا على التأني الألماني.

غير أن أحدًا لم يدهش كثيرًا للتغاضي عن التقاليد لحالة استثنائية كحالة تينا رالستن. فقد عرف الجميع أنها ليست تينا رالستن، بقدرنا أنا وأنت، إلا إن أراد المرء أن يصادق على الأقاويل حول الماضي الذي لا يخالطه شك للمسكين جيم، ومروءة أرملته. لكن رأي الأغلبية على العكس من هذا. إذ كره الناس اتهام رجل ميت بتهمة لن يستطيع تبرئة نفسه منها، وأجمع آل رالستن، رغم معارضتهم الكلية لما فعلته السيدة جيمس رالستن، على يقينهم بأنها ما كانت لتتبنى تينا إن كان هذا سيعني إلصاق وصمة بزوجها الراحل.

كلا، ربمـا كانـت الفتـاة مـن آل لـوفْل، رغـم أن هـذه الفكـرة لـم تلـق تصديقًـا، لكنهـا ليسـت مـن آل رالسـتن قطعًـا. فعيناهـا البنيتـان وطيشـها قـد أقصتهـا مـن القبيلـة، قبـل الحاجـة إلـى أي إقصـاء رسـمي. بـل رأى بعـض النـاس مـا أكـده الطبيـب لانسـكل دومًـا مـن صعوبـة معرفـة أصلهـا، وأنهـا مثـل إحـدى الأحجيـات التـي لا تُحـل وتثيـر حيـرة المجتمعـات المتحفظـة واسـتياءها بيـن الحيـن والآخـر، وأن تبنـي دليـا رالسـتن لهـا كان دليـلًا آخـر علـى تحـزب آل لـوفْل، إذ تعهـدت السـيدة رالسـتن الطفلـة لتعلق قريبتهـا شـارلوت بهـا. إن قلنـا إن ابـن السـيدة رالسـتن وابنتهـا فرحـا بتبنـي تينـا، فسـيكون فـي الأمـر مبالغـة. لكنهمـا امتنعـا عـن التعليـق، مخففيـن مـن أثـر نـزوة أمهمـا بصمتهمـا الوقـور. كانـت عـادة نيويـورك القديمـة أن تحجـب الأسـر غرابـة أحـد أفرادهـا. ولمـا كان المـال «كافيًـا للجميـع»، فسـينظر إلـى الوريثيـن علـى أنهمـا جشـعين مبتذليـن لاعتراضهمـا علـى منـح مبلـغ صغيـر مـن التركـة الكبيـرة.

ومـع ذلـك، كانـت دليـا رالسـتن منـذ لحظـة تبنيهـا لتينـا مدركـة تمـام الإدراك موقـف ابنيهـا المختلـف. فقـد عاملاهـا بصبـر وأبويـة، كمـا يُعامـل قاصـر غُفـرت لـه زلـة صبيانيـة، لكنـه يجـب أن يخضـع للرقابـة المشـددة عقـب ذلـك، وعاملهـا المجتمـع بالـدلال والحمايـة نفسـهما.

إن لهـا أسـلوبًا خاسـمًا فـي الاضطـلاع بالأمـور (كان سـلرتن جاكسـن أول مـن قـال ذلـك)، منـذ أن خالفـت تلـك المـرأة العنيـدة، مانسـن منغـوت، وصيـة زوجهـا. لكـن طريقـة السـيدة رالسـتن مختلفـة يصعـب تحليلهـا. فمـا فعلتـه السـيدة مانسـن منغـوت بقـوة التهكـم

والقدح والإصرار والسعي جيئة وذهابًا، حققته السيدة رالستن دون أن ترفع صوتها أو تحيد عن الدرب المعهود. وعندما أقنعت جيم رالستن بتعهد الطفلة اللقيطة، فقد حدث ذلك بأدنى جهد، ولم يعلم أحد متى أو كيف، وكانا في اليوم التالي هانئي البال مسرورين كعادتهما. ثم هذا التبني! لقد اتبعت النهج نفسه، كما قال سلرتن جاكسن، وتصرفت كأن تبنيها تينا أمر مفهوم، وكأنها تتعجب من عجب الناس لفعلها. وأمام عجبها، بدا استغرابهم أمرًا غبيًا أقلعوا عنه شيئًا فشيئًا.

في الواقع، كان خلف طمأنينة دليا صخب الشك والريبة. لكنها تعلمت مرة أن المرء بوسعه فعل أي شيء (حتى القتل ربما) إن لم يسعَ لتبريره، ولم تنس الدرس قط. لم تشرح يومًا تعهد اللقيطة، ولا عزمت على تبرير تبنيها. بل مضت في شأنها كأن شيئًا لم يكن أو يجب شرحه، وساعدها الإرث الطويل من الاحتشام الرصين في حفظ تساؤلاتها لنفسها.

كانت التساؤلات في حقيقة الأمر تهتم بالرأي العام أقل من اكتراثها بأفكار شارلوت لوڤل. فقد أظهرت شارلوت، بعد اللحظة الأولى من الاعتراض الحزين، امتنانًا مؤلمًا مثيرًا للشفقة. وكان لديها سبب في ذلك، إذ أضحى موقف تينا شديد الوضوح. أظهرت تينا، في الأيام الأولى التي أعقبت حفل آل ڤاندر غريف، وجهًا مكفهرًا حزينًا، ذكّر دليا بانعكاس صورة شارلوت لوڤل الرهيبة قبل سنوات في مرآة غرفة دليا. كان الفصل الأول من تاريخ الأم قد كتب في عيني البنت، ولا بد أن دم سپندر الذي يسري في عروق تينا سيعجل بحدوث العاقبة. اكتشفت دليا، خائفة مشفقة،

في أثناء مراقبتها الصامتة في هذه الأيام القلائل، صدق مخاوف شارلوت. إذ كادتا تفقدان الفتاة، ويجب ألا يقع هذا الخطر ثانية مهما كان الثمن.

كان سلوك آل هالسي، في عمومه، مثيرًا للإعجاب. أراد لاننغ الزواج من ربيبة دليا رالستن، التي عرف أنها ستحمل اسم أمها بالتبني بعد وقت قصير وسترث ثروتها. وإلام يطمح فرد من آل هالسي أكثر من مصاهرة آل رالستن؟ لقد تصاهرت الأسرتان دومًا. بارك الأبوان هالسي الزواج باندفاع أظهر أن عندهما مخاوفهما أيضًا، وأن الراحة لرؤية لاننغ «مستقرًا» أكبر من عائدات الزواج المحتملة، رغم أنهما بعد الاتفاق، لن يقرا لنفسيهما بوجود هذه العائدات. كان من عادة نيويورك القديمة أن تبعد من تفكيرها كل ما من شأنه أن يتداخل مع اللياقة المثالية لترتيباتها.

تنبأت شارلوت لوقل بكل هذا وأدركته. وقبلت الوضع –في ساعات خلوتها مع دليا– ورأته واحدًا من القائمة الطويلة للنعم التي وهبت لخاطئة غير مستحقة. ولعل إحدى عباراتها قد أشارت إلى قبولها. «لن يساورها الشك على الأقل»، لقد غدا أعظم أهداف المرأة المسكينة ألا تخمن طفلتها الآصرة التي تربط بينهما.

لكن عزاء دليا الكبير كان رؤية تينا. مشت المرأة الكبيرة، التي تشكلت حياتها كلها وتلونت بانعكاس خفيف لسعادة مرفوضة، ذاهلة في نور النعمة المقبولة. شعرت أحيانًا، لما رأت وجه تينا تغير، أن دمها يسري فيه، كأنها تستطيع قراءة كل فكرة وإحساس

يغذيان الدفق الصاخب. كان حب تينا حبًا عاصفًا، تتخلله صروف الزمان من النشوة والإحباط، والاستياء وإذلال الذات. ورأت دليا أمام عينيها بجلاء شديد كل الأحلام والتوق والخيالات لشبابها المخنوق.

لم تكن معرفة رأي الفتاة بتبنيها أمرًا سهلًا. فقد منحت في عمر الرابعة عشرة النسخة الراهنة لأصلها، وقبلت بها دون اكتراث، مثلما تقبل طفلة سعيدة حقيقة بعيدة غير محتملة لا تغير من ترتيب الأمور المألوف. وتقبلت أمر التبني بالروح نفسها، وأدركت أنها منحت اسم آل رالستن لتسهيل أمر زواجها من لاننغ هالسي. وانتاب دليا إحساس بأن كل التساؤلات الثانوية قد دفنت بامتنان عظيم. «لقد اعتبرتك أمي دومًا، وها قد أصبحت أمي حقًا أيتها الغالية». همست تينا ووجنتها على وجنة دليا، فضحكت قائلة: «حسنٌ، ما دام بوسع المحامين جعلي كذلك!» لكن الأمر وقف عند هذا الحد، وجرفه تيار سعادة تينا. كانوا في تلك الأيام كلهم؛ دليا وشارلوت بل ولاننغ الشهم، مثل أعواد قش تدوّم في سيل تنيره الشمس.

حملهم السيل الذهبي قدمًا، أقرب إلى اليوم الموعود فأقرب، وتعجبت دليا الغارقة في التحضير للزفاف، من فتورها [في أثناء تحضيرها لزفاف ابنتها] عندما طلبت وعاينت من كل شيء اثنتي عشرة قطعة. لم يسرّع النبضَ شيءٌ في زفاف دليا الصغيرة الهادئ، ولكن لما اقترب زفاف تينا اتسع الخيال مثل العمر. أُزمع إقامة حفل الزفاف في بيت لوڤل، البيت القديم المطل على الساوند، حيث تزوجت دليا لوڤل، وحيث اعتادت قضاء

الصيف منذ وفاة أمها. ورغم أن المنطقة اتسعت بشبكة من الشوارع المعبدة، فإن البيت القديم ذي الشرفة الرقيقة المعمدة، ما زال يطل على مرج غير مقصوص وشجيرات مورقة تمتد إلى الشوارع الضيقة لهِل غيت. احتفظت حجرة الاستقبال بأرائك قصِفة هزيلة وطاولات كونسول وخزائن من طراز شيراتن، وقيل إن التخلص منها من أجل أثاث حديث الطراز ليس مجديًا، إذ إن نمو المدينة جعل بيع المنزل أمرًا حتميًا في النهاية.

كانت تينا ستتزوج في حفل منزلي، مثل السيدة رالستن، رغم امتعاض المجتمع الأسقفي من احتفالات كهذه، التي اعتبرت السهم الأخير للمعمدانيين والميثوديين والموحدين، وغيرهم من الطوائف التي تفتقر إلى المذبح في الكنائس. وفي زفاف تينا، شعرت دليا وشارلوت بأن الخصوصية العظمى لحفل زفاف في البيت أعاضت عن سمته المدنية، ورحب آل هالسي بقرارهما. وتبعًا لذلك استقرت السيدات في بيت لوڤل قبل نهاية يونيو. وشوهد كل صباح مركب آل هالسي الشراعي يمخر عباب الخليج، وتطوى أشرعته عند مرسى آخر المرج.

لم يمر في ذاكرة امرئ شهر أجمل من يونيو ذاك. لم يرسل الورد البلدي والبليحاء العطرية أسفل الشرفة قط أنفاسًا صيفية كهذه عبر النوافذ الفرنسية الطويلة، ولم تكن أشجار البرتقال كثيرة العقد التي أخرجت من دفيئة البرتقال المقنطرة القديمة كثيرة الزهر هكذا، ونشرت كومات التبن على المرج نفحات من الجزيرة العربية.

جلست دليا رالستن، عشية حفل الزفاف، على الشرفة تراقب طلوع القمر عبر الساوند. كانت متعبة من التحضيرات الأخيرة

الكثيـرة، وحزينـة لرحيـل تينـا. سـيفرغ البيـت فـي المسـاء التالـي، وسـتجلس هـي وشـارلوت وحيدتيـن قـرب المصبـاح المسـائي، حتـى يأتـي المـوت. كانـت شـكاوى كهـذه حمقـاء، إذ لـم تكـن «تشـبهها»، كمـا ذكـرت نفسـها. ولكـن كثيـرًا مـن الذكريـات تململـت وهمسـت وقلبهـا منهـك. ولمـا أغلقـت البـاب علـى حجـرة الاسـتقبال الصامتـة – التـي تحولـت إلـى كنيسـة صغيـرة- والمذبـح الـذي علقـت عليـه المخرمـات، ومزهـريـات المرمـر الطويلـة تنتظـر زهورهـا البيضـاء وزنابـق يونيـو، وشـريط السـجاد الأحمـر الـذي يقسـم صفـوف الكراسـي الممتـدة مـن البـاب إلـى المذبـح، راودهـا إحسـاس أن العـودة إلـى بيـت لـوڤل مـن أجـل الزفـاف خطـأ. رأت نفسـها ثانيـة، فـي ثوبهـا المصنـوع مـن المُـل الهنـدي، ذي الخصـر العالـي المطـرز بزهـور الربيـع، وصندلهـا المنبسـط مـن الحريـر، وخمارهـا المخـرم البلجيكـي، ورأت انعـكاس صورتهـا فـي مـرآة الحائـط الرقيقـة حيـن غـادرت هـذه الغرفـة متعلقـة بـذراع جيـم رالسـتن الفرحـة، والنظـرة المذعـورة التـي تبادلتهـا مـع صورتهـا قبـل أن تتخـذ موقفهـا تحـت جـرس الـورود البيضـاء فـي الردهـة، وابتسـامها للجمـع المهنـئ. آه، يـا للصـورة المختلفـة التـي ستعكسـها المـرآة غـدًا!

تـردد وقـع خطـو قدمـي شـارلوت لـوڤل النشـطة فـي الداخـل، وخرجـت وانضمـت إلـى السـيدة رالسـتن.

«ذهبـت إلـى المطبـخ لأخبـر مليسـا غرِمـز أن تعـد مئتـي طبـق مـن المثلجـات علـى الأقـل».

«مئتـان؟ أجـل، عليهـا ذلـك بقـدوم كل الأصدقـاء مـن فيلادلفيـا»، تفكـرت دليـا، «ومـاذا عـن مناديـل المائـدة؟»، سـألت.

«سيكون عندنا ما يكفينا، بإضافة مناديل عمتك سيسيليا ڤاندرغريف».

«أجل. شكرًا لك يا شارلوت على تجشمك العناء».

«أوه»، احتجّت شارلوت بتهكمها الحاد، وشعرت دليا بالسخرية في شكر الأم على انشغالها بتفاصيل زفاف ابنتها.

«اجلسي يا شاتي»، همست وقد أحست أن وجهها احمر لحماقتها.

جلست شارلوت على أقرب كرسي وعلى وجهها أمارات التعب.

«سيكون يومًا جميلًا غدًا»، قالت وهي تمعن في النظر إلى السماء الهادئة.

«أجل. أين تينا؟»

«كانت متعبة جدًا، فأرسلتها إلى الأعلى لتنال قسطًا من الراحة».

بدا هذا مناسبًا جدًا، فلم تجب دليا في الحال، وبعد صمت قالت: «سنفتقدها».

كان رد شارلوت غمغمة حادة.

ظلت القريبتان صامتتين، شارلوت تجلس مستقيمة الظهر كعادتها، ويداها النحيلتان ممسكتان بذراعي الكرسي العتيق الطراز. أما دليا فتغوص في أعماق كرسي وثير ذي ذراعين. تبادلت الاثنتان آخر الملاحظات حول تحضيرات غدٍ، ولم يبق شيء يقال عن عدد الضيوف، وإعداد شراب الپنش والترتيبات لثياب القس، وعرض الهدايا في أفضل الغرف الفارغة.

ظل أمر واحد لم يمسّ بعد. انتظرت دليا، وهي تراقب وجه قريبتها المتجهم جانبيًا، عند الشفق الذائب، أن تتحدث شارلوت، لكنها ظلت صامتة.

«لقد فكرت»، قالت دليا وصوتها مشوب بالخوف، «أن عليّ الآن...»

«أن عليك الآن...؟»

«حسنٌ. أن أصعد إلى تينا بضع دقائق قبل أن تخلد إلى النوم».

ظلت شارلوت صامتة. كان جليًا أنها عزمت على ألا تتجشم عناء مساعدتها.

«غدًا»، واصلت دليا القول، «سنكون في عجلة منذ أولى لحظات اليوم، وفي خضم كل المقاطعات والإثارة لست أرى متى سيتسنى لي...»

«يتسنى لك؟»

شعرت دليا بأنها تزداد احمرارًا خلال الشفق. «حسنٌ. أحسبك توافقينني الرأي في ضرورة قول شيء للصغيرة حول الواجبات والمسؤوليات الجديدة التي... ماذا يقال عادة في مثل هذه اللحظات؟»، أنهت كلامها متلعثمة.

«أجل، فكرت في ذلك»، أجابت شارلوت ولم تقل المزيد، لكن دليا أحست في صوتها بنبرة اعتراض غريب، يظهر من تلقاء نفسه في اللحظات الحاسمة من حياة تينا. ولمْ تفهم لمَ تغدو شارلوت في أوقات كهذه قصية وغامضة، ولم تر في هذه اللحظة سببًا يدعو تغير المزاج إلى إفساد ما رأته واجبها. لا

بـد أن تينـا تتطلـع إلـى هـدي يـد دليـا فـي الحيـاة الجديـدة، مثلمـا تطلعـت هـي إلـى أن تفضـي إليهـا بنصـف الأسـرار، فيكـون وداعًـا حقيقيًـا لابنتهـا المتبنـاة. كان نبـض قلبهـا أسـرع مـن عادتـه قليـلاً، فنهضت ودخلت من البـاب الزجاجي المفتوح إلـى حجرة الاسـتقبال المظلمـة. وأرسـل القمـر، مـن بيـن أعمـدة الشـرفة، حزمـة عريضـة مـن الضـوء عبـر صفـوف الكراسـي، وسـطع علـى المذبـح المكلـل بالمخرمـات وشـمعداناته ومزهرياتـه الفارغـة، وحـدد انعـكاس دليـا الثقيـل فـي مـرآة الحائـط.

عبرت الغرفة متجهة نحو الردهة.

«دليـا!»، تـردد صـوت شـارلوت خلفهـا. اسـتدارت دليـا وعاينـت المرأتـان بعضهمـا بعضًـا فـي الضـوء الكاشـف. بـدا وجـه شـارلوت كمـا بـدا فـي اليـوم الفظيـع حيـن رأتـه دليـا فجـأة فـي المـرآة مـن فـوق كتفهـا.

«أكنت ذاهبة الآن لتتحدثي إلى تينا؟»، سألت شارلوت.

«أنا... أجل... إن الساعة تقارب التاسعة. حسبت...»

«أجـل، أفهمـك». بذلـت الآنسـة لوڤل جهـدًا واضحًـا للسـيطرة علـى الـذات. «وأرجـو أن تفهمينـي أيضًـا يـا دليـا إن طلبـت منـك ألا تفعلـي».

نظـرت دليـا إلـى قريبتهـا بإحسـاس غامـض مـن النفـور؛ أي لغـز جديـد سيكشـفه هـذا الطلـب الغريـب؟ ولكـن لا. لـن تسـمح بشـك كهـذا أن يـدور فـي ذهنهـا، لقـد كانـت واثقـة مـن تينـا!

«أعتـرف أنـي لا أفهمـك يـا شـارلوت. لا بـد أنـك تدركيـن حاجـة الفتـاة إلـى نصـح أمهـا عشـية زفافهـا، أم...»

«أجل، أدرك ذلك»، وسحبت شارلوت نفسًا سريعًا، «ولكن السؤال من منا أمها؟»

تراجعت دليا عفويًا. «أي منا؟»، قالت متلعثمة.

«أجل. أوه، لا تظني أنها المرة الأولى التي أسأل نفسي فيها هذا السؤال! اسمعي، أريد أن أكون هادئة ولا أنوي العودة إلى الماضي. لقد قبلت كل شيء، كل شيء بامتنان. إلا الليلة، الليلة فحسب».

شعرت دليا بدفق من الشفقة يطغى على كل إحساس آخر، كلما تبادلت الحقائق مع شارلوت لوڤل. غص حلقها بالدمع، وظلت صامتة.

«أكون أمها الليلة فحسب»، ختمت شارلوت حديثها.

«شارلوت! لن تخبريها بذلك، ليس الآن!»، قالت دليا دون تفكير.

ضحكت شارلوت ضحكة خافتة. «وإن فعلت، أستكرهين الأمر بهذا القدر؟»

«أكرهه؟! يا لها من كلمة بيننا!»

«بيننا؟ لكنها الكلمة التي كانت بيننا منذ البداية، منذ بداية الأمر! منذ اليوم الذي عرفت فيه أن كلمنت سپندر لم ينفطر قلبه لأنه ليس بكفؤ لك، منذ أن وجدت ثأرك ونصرك في إبقائي تحت رحمتك وفي أخذ الطفلة مني!» اشتعلت كلمات شارلوت من أعماق نيران الجحيم، ثم خمدت الشعلة وطأطأت رأسها، ووقفت أمام دليا بكماء مشدوهة.

كان أول ما أتت به دليا أن تراجعت بازدراء، إذ غمرتها الرقة والعطف والرغبة في المساعدة والمؤازرة في الوقت الذي اعتملت فيه هذه الشرور في صدر الأخرى! كأن دخانًا مسمومًا قد اجتاح منظرًا صيفيًا رائعًا.

كانت أحاسيس كهذه يعقبها عادة ردة فعل عطوفة، لكنها لم تشعر بشيء من ذلك بل تملكها إنهاك مطلق.

«أجل»، قالت ببطء، «أظن أحيانًا أنك كرهتني منذ البداية، كرهتني لكل شيء حاولت فعله من أجلك».

رفعت شارلوت رأسها بحدة «تفعلينه لأجلي؟ ولكنك فعلت كل ما فعلت من أجل كلمنت سپندر!»

حدجتها دليا بشيء من الخوف «إنك فظيعة يا شارلوت. بشرفي إني لم أفكر في كلمنت سپندر لسنوات».

«آه، لكنك فعلت... لكنك فعلت! لقد فكرت فيه دومًا كلما فكرت بتينا، فيه ولا أحد غيره! لا تكف المرأة عن التفكير برجل أحبته، بل تفكر فيه لسنوات لاحقة، بشتى الطرق غير المتعمدة، وبالتفكير في كل صنوف الأمور؛ في الكتب واللوحات وغروب الشمس، في زهرة أو شريطة، أو ساعة على رف المدفأة». انفجرت شارلوت تضحك ضحكة ساخرة، «كان هذا ما راهنت عليه كما ترين، ولهذا أتيت إليك ذلك اليوم، إذ أيقنت أني أمنح تينا أمًا ثانية».

بدا الدخان المسموم يطوّق دليا ثانية. إن وقوفهما، هي وشارلوت وهما المسنتان المتعبتان، أمام مذبح عرس تينا، وتبادلهما الحديث بكراهية بدا أمرًا مذلًا وشائنًا إلى حد يفوق الوصف.

«يا لك من امرأة لئيمة! إنك لئيمة!»، قالت.

ثم تبدد السديم المشؤوم، ومن خلاله رأت القوام المنهك المثير للشفقة للأم التي لم تكن أمًا، التي شعرت بأنها سلبت حقًا مقابل كل هبة قبلتها.

«ليس هنا! يجب ألا نتحدث هكذا هنا».

ابتعدت الأخرى عنها «أينما شئت، فأنا لست نيّقة!»

«ولكن الليلة يا شارلوت، عشية زفاف تينا؟ أليس كل مكان في هذا البيت مفعم بها؟ كيف لنا أن نستمر في تراشق أشياء قاسية في أي مكان؟» كانت شارلوت صامتة، وتابعت دليا في صوت أكثر ثقة، «لا شيء مما تقولينه سيجرحني وقتًا طويلًا. ولا أريد جرحك ولم أرغب في ذلك قط».

«تقولين هذا وأنت لم تتركي شيئًا إلا فعلته لإبعادي عن ابنتي! أتحسبين الأمر هينًا وأنا أسمعها تناديك أمي كل هذه السنوات؟ أوه، أعلم أعلم. لقد اتفقنا على ألا تعرف... ولكنك لو أنك لم تتدخلي بيننا لما كان عندها سواي، ولأحست بي مثلما يحس الطفل بأمه، ولتعين عليها أن تحبني أكثر من أي أحد آخر. ثم بكل رفقك وكرمك انتهى بك الأمر إلى سلبي طفلتي. ورضخت لكل ذلك من أجلها، لأني علمت أن عليّ فعل ذلك. لكنها الليلة تنتمي إليّ، لا أطيق أن تدعوك أمي هذه الليلة».

لم تجب دليا على الفور. وبدا لها أنها سبرت أغوار عاطفة الأمومة للمرة الأولى، ووقفت ذاهلة أمام الأصداء التي رددتها.

«لا بد أنك تحبينها كثيرًا حتى تقولي لي أشياء كهذه»، همست، ثم بجهد أخير: «أجل، إنك على حق. لن أصعد إليها، بل لا بد

أن تذهبي أنت».

تقدمت شارلوت نحوها مندفعة، ولكن دليا عبرت الغرفة، بيد مرفوعة كأنها تدافع عن نفسها، وخرجت إلى الشرفة ثانية. حين تهاوت في كرسيها سمعت باب حجرة الاستقبال يفتح ويغلق، ثم وقع قدمي شارلوت على الدرج. جلست دليا وحدها في الليل، وقد تبددت آخر قطرة من رحابة صدرها، وحاولت أن تبعد شارلوت عن ذهنها المشتت. ماذا يحدث في الأعلى هذه اللحظة؟ بأي اعترافات مريعة ستشوه أحلام العروس تينا؟ حسنٌ، لم يكن ذلك بشيء للتخمين أيضًا. لقد أدت هي، دليا رالستن، دورها وبذلت أقصى ما استطاعت، ولم يبق شيء الآن إلا أن تحاول أن تسمو بروحها فوق الإحساس المرير بالفشل.

كان في شيء مما قالته شارلوت عنصر غريب من الحقيقة. أي رجم بالغيب منحتها إياه عاطفة أمومتها! كأن لغيرتها مليون مجسّ. أجل، صحيح أن حلاوة عشية زفاف تينا وهدوئها قد امتلأت لدى دليا برؤى من ماضيها غير الحقيقي. فقد صالحها بهدوء، وشيئًا فشيئًا مع ذكرى ما فقدته. كانت كل هذه الأيام تعيش حياة الفتاة، كانت تينا، وتينا ذاتها الفتية ودليا لوقل البعيدة. والآن صار بوسع دليا، للمرة الأولى، دون خجل أو توبيخ للذات، ودون ندم أو حرج، أن تنصاع لرؤى الحب المنسي، الذي أشاح عنه خيالها دومًا. لقد اتخذت خيارها في شبابها، وقبلته في نضجها، وفي فرحة هذا الزفاف، التي كانت فرحتها على نحو غامض، وجدت العوض عن كل ما فقدته، ولكنها لم تتخل عنه قط.

أدركت دليا أن شارلوت أحست بهذا كله، وغمرها هذا الإدراك باستياء شديد. قالت شارلوت منذ زمن بعيد إن كلمنت سپندر لم يكن لها حقًا، وها قد أحست بالإحساس نفسه تجاه طفلة كلمنت سپندر. ولما تسللت الحقيقة إلى دليا، رق قلبها بالعطف القديم على شارلوت، ورأت أن التدخل في مصير شخص آخر إثم فظيع، أو أن تسلب أرقّ اللمسات حقَّ أي كائن بشري في أن يحب ويعاني على هواه. وقد تدخلت دليا في حياة شارلوت مرتين، ولا بد أن تكون شارلوت عدوتها. لو أنها لا تنتقم لنفسها بجرح تينا!

عادت أفكار الأم بالتبني إلى الغرفة الصغيرة البيضاء في الأعلى. لقد عزمت على أن تطبع نصف الساعة برفقة تينا بأفكار عطرة كالزهور التي ستجدها قربها عند استيقاظها، ولكن...

عادت دليا من شرودها. كان على الدرج وقع أقدام، هذه شارلوت تنزل عبر المنزل الصامت. نهضت دليا وفي نفسها تعتمل رغبة خفية في الهرب. شعرت بأن عليها ألا تواجه عيني قريبتها، فانعطفت عند زاوية الشرفة آملة ألا تجد مصاريع غرفة الطعام مزلجة، فتتسلل إلى غرفتها دون أن تُرى. لكن شارلوت كانت بجانبها في لحظة.

«دليا!»

«آه، أهذه أنت؟ كنت سأخلد إلى الفراش»، لم تستطع دليا إبقاء شيء من القسوة في صوتها طوال حياتها.

«أجل. لقد تأخر الوقت، ولا بد أنك متعبة». صمتت شارلوت وفي صوتها ألم وقلق.

«أنا متعبة»، أقرت دليا.

في الصمت المضاء بنور القمر، تقدمت شارلوت نحوها ووضعت لمسة خائفة على ذراعها.

«ليس قبل أن تري تينا».

تجمدت دليا «تينا؟ لكن الوقت متأخر! أليست نائمة؟ ظننتك ستمكثين معها حتى...»

«لست أدري إن كانت نائمة»، صمتت شارلوت، «لم أكن هناك، لكن الغرفة مضاءة».

«لم تكوني هناك؟»

«كلا. وقفت في الممر وحاولت...»

«حاولت؟»

«أن أفكر في شيء، شيء أقوله لها دون... دون أن تعرف»، أسكتها النشيج لكنها تابعت بجهد أخير. «لا جدوى. لقد كنتِ محقة، لا شيء أقوله لها. إنك أمها الحقيقية، فاذهبي إليها. إنه ليس خطأك أو خطئي».

«أوه»، قالت دليا.

تشبثت بها شارلوت في تذلل عييّ. «قلت إني لئيمة. أنا لست بلئيمة، لقد كانت ابنتي وهي طفلة!»

وضعت دليا ذراعًا حول كتفها.

«اصمتي يا عزيزتي، سنذهب إليها معًا».

أذعنت الأخرى للمستها في الحال، وصعدت المرأتان الدرج جنبًا إلى جنب. زامنت شارلوت خطوتها الرصينة مع حركات دليا المتحفظة، وقطعتا الممر نحو غرفة تينا. لكن شارلوت لوهْل وقفت وهزت رأسها: «كلا. أنت»، همست واستدارت مبتعدة.

استلقت تينا في فراشها وذراعاها متقاطعتان تحت رأسها، وعيناها السعيدتان تعكسان السعة الفضية للسماء وقد ملأت النافذة، وابتسمت لدليا عبر حلمها.

«علمت أنك ستأتين».

جلست دليا قربها وتشابكتا الأيدي على اللحاف. لم تقولا الكثير، بل إن علاقتهما لم تحتج إلى الكلمات. لم تعلم دليا كم جلست قرب الفتاة وأسلمت نفسها لسحر الساعة بنور القمر.

لكنها فجأة تذكرت شارلوت، وحيدة خلف باب غرفتها المغلق، تراقب وتقاسي وتصغي. يجب ألا تطيل دليا هذه المراقبة الحزينة من أجل سعادتها، فانحنت لتقبل تينا قبلة النوم ثم وقفت عند الباب وعادت أدراجها.

«عزيزتي! ثمة أمر واحد وأخير».

«أجل»، همست تينا عبر حلمها.

«أريدك أن تعديني...»

«بكل شيء، بكل شيء يا أمي العزيزة!»

«حسنٌ إذن. حين تغادرين غدًا، في اللحظة الأخيرة، أن تعلمي...»

«أجل».

«بعد أن تودعيني وتودعي الجميع... عندما يساعدك لاننغ على ركوب العربة...»

«أجل».

«أن تمنحي قبلتك الأخيرة للخالة شارلوت. لا تنسي، آخر قبلة».

النهاية

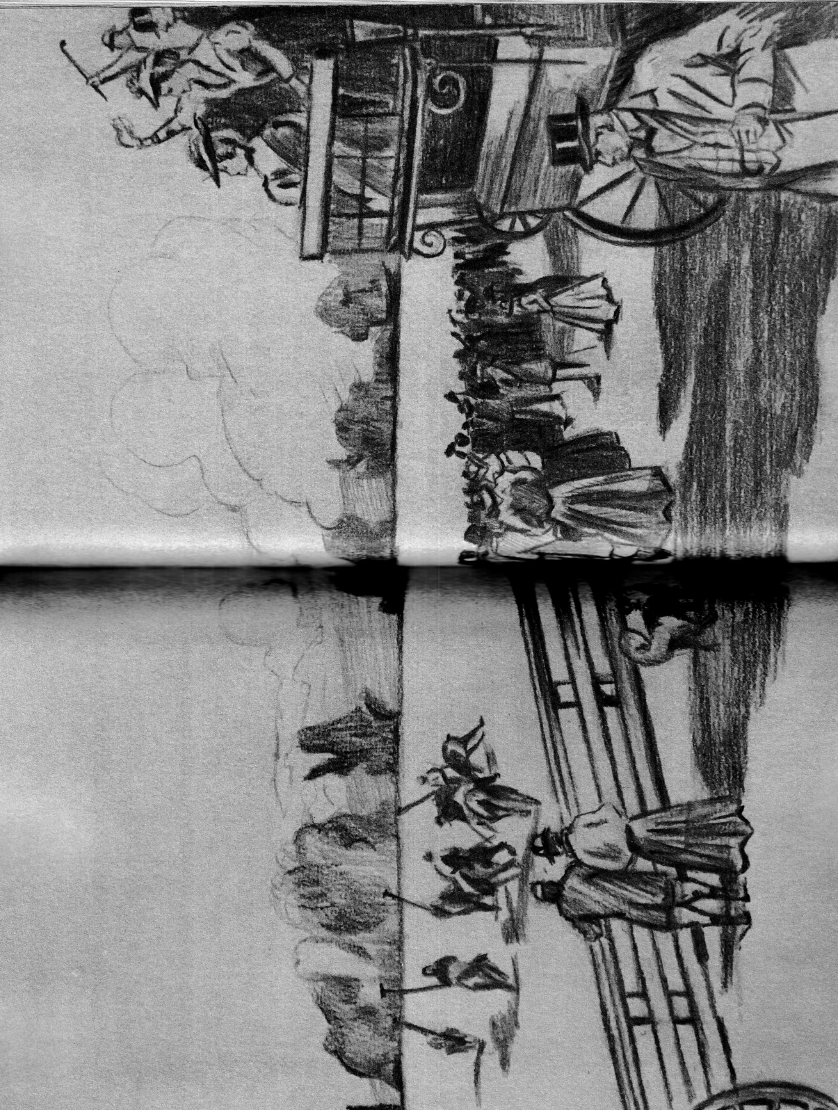

الشرارة
(الستينيات)

1

«أيها الأحمق!»، قالت زوجته وألقت بأوراقها. أشحت بوجهي بسرعة، كي أتحاشى رؤية وجه هَيْلي دِلين، رغم أني لا أدري لمَ أردت تحاشي ذلك، بل لا أدري لماذا تصورتُ -إن فعلت حقًا- أن رجلًا في عمره ومكانته سيلحظ ما يطرأ على التقاسيم التافهة بمعنى الكلمة لشاب مثلي.

أشحت بوجهي حتى لا يرى أن دعوته بالأحمق تجرحني، وإن كان مزاحًا. حسنٌ، لقد كانت نصف مزحة على الأقل، لكني كثيرًا ما وجدته أحمق، وبقدر ما كان لعبي البوكر رديئًا، فإني أعرف من اللعبة ما يكفي للقول إن لعبه -عندما لا يوليه انتباهه- يستحق تمامًا هذا الغضب من زوجته. لست أدري لمَ ساءتني ثورتها، ولا لمَ وددت، بعد أن قوبلت ثورتها بقهقهة صاخبة من «آخر رفاقها» الشاب بولتن بايرن، أن أصفع ذلك الخسيس الصغير، ولا لمَ، عندما أطلق هيْلي دِلين، الذي من عادته أن يفهم المزاح شيئًا فشيئًا، ضحكته الخفيضة المفعمة بالحيوية استحسانًا، لماذا أردت، أكثر من أي شيء آخر، أن أمحو المشهد برمته من ذاكرتي. لماذا؟

جلسوا هناك، كما أراهم غالبًا، في مكتبة جاك ألستروب الفاخرة الخالية من الكتب (أنا واثق بأن الرفوف الفاخرة خلف الأبواب الزجاجية فارغة)، حين تكثف الغسق الشاحب خلف النوافذ ليغدو أزرق فوق مروج لونغ آيلند وغاباتها وشريط بحري ينيره القمر. لم ينظر أحد يومًا إلى ذلك، إلا ليخمن حالة الطقس

اليوم التالي من أجل لعب البولو، أو الصيد أو سباق الخيل، أو أي شكل من نشاطات الموسم التي تتطلب أن ينسجم معها وجه الطبيعة؛ لم ينتبه أحد للغسق، أو للقمر أو للظلال الزرقاء؛ خاصة هيّلي دِلين. يومًا بعد يوم، ليلة في إثر ليلة، جلس متسمرًا إلى طاولة پوكر أحد ما، يتحسس أوراق اللعب شارد الذهن.

أجل، هكذا كان الرجل. إنه لم يعلم -كما قيل مرة على لسان جهبذ في الفخامة- عمله السخيف، الذي يقضي بتسكعه في أثر زوجته، ولعبه البوكر مع أصدقائها، والضحك على هرائها وهرائهم. لا عجب أن السيدة دِلين ساخطة أحيانًا. فهي لم تطلب منه أن يتزوجها، كما قالت! كلا على الأرجح؛ إذ يتذكر كل مجايليهم الصدمة التي أحدثها. حين رآها أول مرة- في المسرح أتصوره يقول:

- من تلك؟ هناك؛ ذات الشعر الكثيف؟

- أوه، ليلا غريسي؟ يا إلهي، إنها ليست جميلة حقًا...

- حسنٌ، سأتزوجها.

- تتزوجها؟ لكن أباها هو الوغد العجوز بِل غريسي... الرجل...

- سأتزوجها.

- الرجل الذي اضطر إلى هجر كل الأندية...

- سأتزوجها.

وفعل، وكانت هي، إن شئت، مَن أبقته تابعًا لها، تُقبِل وتتمنّع، إلى أن يظهر شاب مدعٍ، كان يفكر فيها، ثم اتخذ قراره أخيرًا بألا يفعل.

هكـذا كان زواج هيلّـي دِليـن، وهكـذا، فـي تصـوري، أسـلوبه فـي إدارة معظـم الأحـداث فـي حياتـه التافهـة الخرقـاء. هبّـات كبيـرة مـن التهـور -عواصـف لا يمكنـه السـيطرة عليهـا- ثـم فتـرات طويلـة مـن الهـدوء الرتيـب، خلالهـا، كمـا أوحـى لـي شـيء مـا، اسـتيقظ النـدم والحسـرة القديمـة وتململت تحـت السـطح المتراخـي لطبعـه. ومـع ذلـك، ألسـت أضفـي مسـحة رومانسـية علـى حالـة شـائعة؟ اسـتدرت مـن النافـذة لأنظـر إلـى تلـك المجموعـة. نثـرت الشـموعُ المجلوبـة إلـى طـاولات الپوكـر بحيـراتٍ مـن النـور فـي أنحـاء الغرفـة المعتمـة، وفـي شـعاعها بـرز شـعر دِليـن الخشـن مثلمـا يبـرز جـرفٌ مـن سـهل مزهـر. لعـل ذلـك بسـبب كثافتـه وثقلـه ولونـه الداكـن. أو لعلـه بسـبب عمـره الكبيـر، إذ لا بـد أنـه يكبـر زوجتـه ومعظـم أصدقائهـا بخمسـة عشـر عامًـا علـى أي حـال. لـم أسـتطع النظـر إليـه دون الإحسـاس بأنـه ينتمـي إلـى مـكان آخـر، ليـس إلـى مجتمـع آخـر، بـل عصـر آخـر. فممـا لا شـك فيـه أن المجتمـع الـذي عـاش فيـه لاءمـه تمامًـا، إذ تقاسـم هـو وجماعتـه الصغيـرة كل تسـاليها مبتهجًـا، فركـب الخيـل ولعـب الپولـو وصـاد وقـاد عربتـه الرياعيـة مـع أفضلهـم (سـتدرك مـن إشـارتنا الأخيـرة أننـا لـم نـزل فـي التسـعينيات البائـدة). ولا اسـتطعت تخميـن أي مشـاغل أخـرى يفضلهـا، إن كان لـه الخيـار. ورغـم إعجابـي بـه فلـم أسـتطع تخيّـل أن ليـلا غريسـي هـي مـن أخضعتـه إلـى مـا تريـد. مـاذا سـيختار أن يفعـل لـو لـم يلتقهـا تلـك الليلـة فـي المسـرحية؟ يـا إلهـي، أحسـب أنـه سـيلتقي امـرأة مثلهـا ويتزوجهـا. كلا، لـم يكمـن اختلافـه فـي ميولـه، بـل فـي شـيء أعمـق. ولكـن مـا العميـق فـي الرجـل إن لـم يكـن ميولـه؟

في عصر آخر، إذن، لعله سيفعل شيئًا مماثلًا لما يفعله الآن؛ التبطل، وممارسة تمارين عنيفة جدًا، والإفراط في الأكل أكثر مما يناسبه، والضحك على الهراء نفسه، وتبجيل – بالنمط المعتاد الرتيب من التبجيل نفسه- صنف النساء نفسه، سواء أكانت تلبس القرينول أم التنورة المطوقة أم الپپلوس[1]، أم جلود البهائم- ولا يهم كثيرًا في أي نظام اقتصادي وضعها المرء. سوى أنه في ذلك العصر الآخر قد يكون ثمة مخارج لملكات أخرى، هاجعة الآن بل لعلها ضامرة، ولكن لا بد – أجل، لا بد حقًا- أن لها علاقةً ببنية تلك الجبهة العريضة الودودة، والأنف البارز، والغمازة العميقة التي خددت وجنته بين الفينة والأخرى بالضياء. أأثرت الغمازة في أحد سوى ليلا غريسي؟

حسنٌ، لعلي كنت أنا الأحمق، لو أنها علمت ذلك؛ أحمق لإيماني بزوجها، لأن أفتن به، وأن يضيق صدري من أجله، في حين أنه، لثلاثين سنة، لم يكن إلا هيْلي دِلين الذي يستخف به الجميع، ويسرّون لرؤيته وينسونه في التو واللحظة. استدرت من تأملي لبنية ذلك الرأس الكبير، ونظرت إلى زوجته. ما زال رأسها يشبه شيئًا في طور النمو، شيئًا يزهر، رأس فتاة يطوّقه السديم. فضحت الشموع الرقيقة التجاعيد في وجهها، وصباغ شفتيها، والپروكسيد على شعرها، لكن ذلك كله لم يقلل من ملاحة تقاطيعها، أو التصابي الكامن في عينيها، المحلقتين من

(1) القرينول: قماش قطني قاسٍ لتبطين الثياب. الپپلوس: ثوب أشبه بالشال تلبسه نساء الإغريق.

أعماقهما مثل نايادة دهشة[1]. كان فيها براءة جلية، كالتي تتمتع بها النساء اللاتي قضين وقتهن في مراكمة التجارب العاطفية. وإذ نظرتُ إلى الزوج والزوجة، متقابلين هكذا على أوراق اللعب، عجبتُ أكثر فأكثر أنها هي من يأمر وهو من يطأطئ رأسه. ستدرك من هذا أنني ما زلت صغيرًا.

صغيرٌ جدًا، حقًّا، للحد الذي تبدّى لي فيه هيلي دلين في أيام الدراسة حقيقة واقعة، وصرحًا مكتملًا؛ مثل كنيسة ترنتي، أو خزان الإمداد لنادي نكربوكر. لن يتخيله نيويوركي من جيلي يتغير أو يزول أكثر من هذه المباني القصِفة. ولذا ظللت أستخف به حتى عدتُ بعد انقضاء أيامي في هارڤرد، بعد مدة من التجوال في العالم لأستقر في نيويورك، فطلع عليّ من جديد كأنه شيء لم يُفهم تمامًا، وأكثر إثارة مما ظننت.

لست أقول إن الأمر أرّقني، فلدي أعمالي (في مكتب يقع وسطَ المدينة)، ومباهج عمري؛ كنت شديد الانشغال في اكتشاف نيويورك. ولكن بين الفينة والأخرى تلقي أحجية آل دلين بنفسها بيني وبين اهتمامات أخرى، كما حدث الليلة لأن زوجته وبخته، وضحك وظنها طريفة. وفي أوقات كهذه أجد نفسي متأثرًا ومتحمسًا أكثر من أي شيء عرفته عنه، أو لاحظته فيه، لأبرر هذا الانفعال.

---

(1) هي أيضًا ما يعرف بالنومفة في الأساطير الإغريقية، وهي روح نسائية للطبيعة، خالدة أو تتمتع بعمر طويل، وتقيم في أماكن خاصة أو في الظواهر الطبيعية. (معجم الأساطير اليونانية والرومانية، جيني مارك ترجمة أحمد عبد الباسط حسن ومراجعة محمد حمدي إبراهيم، المركز القومي للترجمة الجزء الثاني، ص355)

انتهت اللعبة، وقُرع جرس تغيير الثياب [من أجل العشاء]. قُرع ثانية الآن بإلحاح رصين، وآثر ألستروپ، المتراخي أكثر من الآخرين، ألا يتأخر ضيوفه أكثر من نصف ساعة عن العشاء.

«أقول... ليلا!»، احتج أخيرًا.

وتهدلت الخصل الذهبية على رقاقاتها. «أجل، أجل، انتظر لحظة. عليك أن تدفع عني يا هيلي. هيا، أنا ذاهبة!»، وضحكت ودفعت بكرسيها إلى الوراء.

نهض دلين، وهو يضحك أيضًا، كسلًا. وهرع بايرن ليفتح الباب للسيدة دلين؛ وخرجت السيدات الأخريات معها. حمل دلين، بعد أن سدد ديونها، حقيبتها ذات القماش المشبّك الذهبي وعلبة السجائر وتبعها.

استدرت نحو نافذة مطلة على المرج. كان عندي وقت لأريّض ساقيّ ريثما تعمل ملاقط التجعيد والمساحيق بجد في الأعلى. انضم إليّ ألستروپ، ووقفنا نحدق إلى السماء الرقيقة الشعثاء، إذ طلعت فيها أولى النجوم ثم توارت.

«اللعنة! يبدو الطقس سيئًا من أجل مباراتنا غدًا!»

«أجل، ولكن يا لها من رائحة زكية يضفيها المطر القادم على الأشياء!»

ضحك، «إنك متفائل، مثل هيلي العجوز».

قطعنا المرج نحو الغابة.

«ولمَ مثل هيلي العجوز؟»

«أوه، إنه فيلسوف أصيل. لم أره يومًا يزعج أحدًا، أرأيته؟»

«كلا. لا بد أن هذا ما يجعله يبدو حزينًا جدًّا»، قلت.

«حزين؟ هيلي؟ عجبًا، كنت أقول لتوي...»

«أجل، أعرف. ولكن الأشخاص الوحيدين الذين لا يزعجون أحدًا هم الذين لا يهتمون، واللامبالاة هي أكثر التسالي حزنًا. أود أن أراه يستشيط غضبًا يومًا ما».

أطلق مضيفي صفيرًا خافتًا وعلق بقوله: «بحق الرب، أحسب أن الريح تغير وجهتها نحو الشمال. وإن حدث...»، فبلل إصبعه ورفعها في الهواء.

عرفت أنه ما من جدوى في إبداء الرأي مع ألستروب، لكني جربت سبيلًا آخر. «ما الذي فعله دلين بنفسه طوال هذه السنوات بحق السماء؟»، سألته. كان ألستروب أربعينيًّا أو نحو ذلك، وأقدر مني لسني عمره التي تفوق سنيّ على أن يلقي نظرة على أصل إلى المشكلة.

لكن المحاولة بدت أكبر منه. «عجبًا، أي سنين؟»

«حسنٌ، منذ أن ترك الكلية».

«يا إلهي! أنَّى لي أن أعلم؟ لم أكن هناك. لا بد أن هيلي قد تجاوز الخمسين».

بدت هائلة نظرًا إلى شبابي، كأنها حقبة جيولوجية. وهذا لاءمه بصورة ما، إذ بوسعي تخيله ينجرف أو يمتلئ بالطمي، أو شيء يمكن قياسه بالحِقب، بمعدل مليمتر في كل قرن.

«كم مضى على زواجه؟»، سألت.

«لست أعلم هذا أيضًا، أستطيع القول إنها قرابة العشرين عامًا. فالأبناء يكبرون، وكلا الولدين في غروتن. لا بد أن أقر أن ليلا لا تبدو عجوزًا من بعض النواحي».

«حسنٌ، إذن، ما كان عمله منذ زواجه؟»

«عجبًا، وماذا تعين عليه أن يعمل؟ لقد كان لديه ما يكفي من المال دومًا ليفعل ما يشاء. لديه نصيبه في المصرف طبعًا. يقولون إن ذلك الحما المحتال، الذي يرفض رؤيته، يحصل منه على مال كثير. تعلم أنه رقيق القلب جدًّا. لكني أظن أن بوسعه تغيير ذلك كله. ثم إنه عضو في عدد من المجالس؛ مأوى العميان، ومعونة الأطفال، وجمعية الرفق بالحيوان وغيرها. وما من شيء يفوق هذا».

«ولكن ليس هذا ما قصدته»، ألححت بالقول.

نظر إليّ ألستروپ في الظلام. «لست تقصد النساء؟ لم أسمع قط... ولكن لا يمكن للمرء أن يعرف بذلك على الأرجح. إنه امرؤ كتوم».

قفلنا عائدين لنغير ثيابنا للعشاء. أجل، هذه هي الكلمة التي أردتها؛ لقد كان امرأً كتومًا. حتى ألستروپ المتخلف أحس بذلك. ولكن أهو كتوم عمدًا، بسبق الإصرار، أم عفويًا، فطريًا؟ هنا مكمن الغموض.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

2

أقيمت مباراة البولو الكبيرة اليوم التالي. كانت أول مباراة في الموسم، وقفز مقياس الحرارة، آخذًا الملاحظة بعين الاعتبار، ليكون الجو معتدلًا بعد ليلة من الأمطار.

انكب كل أهل الجادة الخامسة ليروا مباراة نيويورك ضد هامستد. كانت المروج المجزوزة جزًا جميلًا ومدرج النادي حديث الطلاء مرقشة بثياب الربيع ومزهرة بالشمسيات، وطوقت العربات والمركبات الأخرى التي لا تحمل أرقامًا الجانب البعيد من الملعب.

ما زال هيلي دلين يلعب البولو، رغم أنه أصبح بدينًا جدًا ولا بد أنّ توفير مطية تناسبه تكلفه كثيرًا. لم يعد يُحسَب واحدًا من أبرز اللاعبين، بل إنه في هذه الأيام الأخيرة، عندما غدت اللعبة علمًا دقيقًا، لا أكاد أفهم أي نفع سيأتي به شخص بدين مثله. ولكن في الفجر البعيد لهذه اللعبة جعلته ثقته ورشاقة ضرباته يعد ظهيرًا مفيدًا، إلى جانب إجلاله كرمى للدور الذي أداه في التعريف باللعبة وتأسيسها.

أتذكر قليلًا عن بدايات اللعبة، التي تشبه كثيرًا مما رأيت. لم ألعبها قط، ولا أملك مالًا لذلك. كان أعظم اهتماماتي هو المشهد المقام في طقس مايو، وخشخشة ثياب الربيع على المرج، إحساس الشباب، والمرح والحبور، والرجال والنساء يحوكون أشكالهم تحت السماء المتواطئة. وبين الفينة والأخرى تقاطعهم لحظة من «أوه» سريعة تدير كل النظرات الحيرى إلى

الاتجاه نفسه، حين يندفع خطان براقان من الرجال والخيول عبر الخضرة، مصففين شعورهم متمايلين ولامعين خارجًا كالنجوم، ثم يعودون أدراجهم. لكن هذا يدوم للحظة فحسب، ثم تطوف الأعين ثانية، وتبدأ الأحاديث ويفعل الشباب والإغواء ما يحلو لهما إلى أن توقظهم الصدمة التالية من نشوتهم.

كنت واحدًا من هؤلاء المتفرجين المتعارضين. لم يسلّني مشاهدة البولو لوقت طويل، ورأيت قليلًا منها بقدر الفتيات الجميلات الجاثمات قرب عشاقهن على العربات ومدرج النادي. لكن تطوافي الغامض جلبني بمحض الصدفة إلى السياج الأبيض الذي يطوق الملعب، وهناك، في حشد من المتفرجين، لمحت ليلا دلين.

دهشت وأنا أقترب لما رأيت أحدًا مألوفًا يبعد كتفه عنها. ما زال بوسع المرء أن يرى بل غريسي العجوز كثيرًا في الأرض المحاذية لمجازات السباق الكبيرة، لكني تساءلت كيف دخل نطاق نادي پولو أنيقًا. ها هو هناك، من غير شك، ومن ينسى ذلك الصدر المنتفخ تحت معطف السباق الأنيق البالي، والقبعة العالية الرمادية المدفوعة إلى الوراء دومًا من خصل شعره الأصحر، ومزيج الوضاعة والاختيال الذي جعل نظرته السائلة مثيرة للشفقة؟ بين الأجسام التي انبثقت هنا وهناك مثل أطلال محذرة من مستوى مميت لاحترام نيويورك القديمة، لم يكن أحد أكثر نمطية من بل غريسي، تبعته نظرتي بفضول وهو يبتعد عن ابنته «محاولًا الحصول على مزيد من المال منها»، خلصت وتذكرت ما قاله ألستروپ عن كرم دلين.

قلت في نفسي: «لو كنت دلين، لدفعت مالًا كثيرًا لأبعد ذلك العجوز الشرس عن ناظري».

استدارت السيدة دلين لترى والدها يغادر، رأتني وأومأت. في اللحظة نفسها، تهادى دلين، على جواد عريض الصدر، عابرًا الملعب واضعًا عصاه على كتفه. ولما ركب هكذا، بتؤدة وروعة، بقميصه ذي اللونين الأحمر والأسود وبنطاله الرُكبي الأبيض، ورأسه يبرز فوق المرج مثل البرونز، تذكرت على نحو غريب هيئة غودريكو دا فالغانو[1]، مرتزق ذائع الصيت، راكبًا بخطى وئيدة قوية عبر الجدارية المحصنة في المجلس البلدي في سيينا. أجد صعوبة في شرح لمَ ذكّرني مصرفي من نيويورك مفرط البدانة تجاوز منتصف العمر بكثير، يتهادى على جواد عبر ملعب للپولو في لونغ آيلند، بشخص خطير يركب حصانًا مدرعًا. لم يكن خلف دلين حصون ذات أبراج على حد علمي، وكانت قبعة الپولو الصبيانية جدًّا التي يعتمرها والقميص المبهرج بديلين وضيعين لمعطف غودريكو المزرّد. لكنها الحيلة التي يحتالها الرجل دومًا، مذكرًا إياي، بأسلوبه الكسل الخدر، بأزمنة ومشاهد وأناس أعظم مما يعرف. ولهذا ظل يثير اهتمامي.

كان هذا الاهتمام هو ما دعاني إلى الوقوف قرب السيدة دلين، التي أتحاشاها عادة. أدارت نظرها إلى الحقل بعد ابتسامة مبهمة.

«أيعجبك زوجك؟»، أشرت إذ أخذ دلين يخب عبر مرمى أنظارنا.

---

(1) جدارية تصور قائد الجيوش فولغانو يمتطي فرسًا وخلفه مشهد لحصار سيينا. نسبت اللوحة لسيمون مارتيني لكن الجدل حولها لم ينته بعد.

نظـرت إلـيّ متشـككة. «أحسـبك تـراه شـديد البدانـة ليلعـب؟»، أجابـت بشـيء مـن الحـدّة.

«أحسـبه أوسـم الأشـخاص فـي المشـهد. إنـه يبـدو مثـل جنـرال عظيـم، أعنـي جنديًـا مرتزقًـا عظيمًـا فـي جداريـة قديمـة».

فحملقـت، لعلهـا أحسـت بشـيء مـن السـخرية، كمـا فعلـت دومًـا تحـت وطـأة مـا يتعـذر فهمـه.

«آه، بوسـعه دفـع مـا يشـاء لأجـل مطايـاه!»، غمغمـت ثـم أضافـت بضحكـة شـاردة: «أتعنـي بذلـك إطـراء؟ أأخبـره بمـا قلـت؟»

«ليتك تفعلين».

لكنهـا أشـاحت بعينيهـا ثانيـة، إلـى الناحيـة الأخـرى مـن الملعـب هـذه المـرة. كان بولتـن بايـرن يلعـب علـى الطـرف الآخـر طبعًـا! هـذا طبـع المـرأة الحمقـاء؛ تنغمـس فـي آخـر مغامراتهـا. ولكـن ثمـة الكثيـر منهـا، ولا بـد أنهـا شـديدة الثقـة بـأن هـذه سـتكون أكبـر! كانـت الفتـاة تنبعـث مـن جديـد فـي كل مغامـرة؛ إذ احمـرت خجـلًا ووجـب قلبهـا، و«أحجمـت» عـن المشـاركة فـي الرقـص، وتحايلـت لتفـوز بالمسـارّات، ودسـت زهـورًا (أراهـن علـى ذلـك) فـي نسـختها مـن «عمـر الخيـام»، ولبسـت دومًـا الموسـلين الأبيـض ووضعـت الزهـور البريـة مـا دامـت لـم تذبـل. وكانـت حمـى بايـرن فـي أوجهـا حينئـذ.

كان لياقـة أن أتركهـا علـى الفـور، فتابعـت مراقبتـي الملعـب بجانبهـا. «إنهـا فرصتهـم الأخيـرة لإحـراز هـدف»، ألقـت إلـيّ القـول، تاركـة إيـاي أفسـر إلـى مـن يعـود الضميـر الغامـض، ولزمنـا الصمـت بعـد ذلـك.

كانـت نتيجـة الفريقيـن متقاربـة، إذ أحـرز الجانبـان خمسـة أهـداف، ووقـف الجمهـور عنـد الحواجـز حابسـين أنفاسـهم فـي

اللحظات الأخيرة. كان الصراع قصيرًا رشيقًا، وحيويًا جدًا بحيث فتن زيَرة النساء في أعلى المدرجات. اختلستُ النظرة مرة إلى السيدة دلين، ورأيت الحمرة تكسو وجنتيها. كان بايرن يندفع عبر الملعب، منفرج الساقين على عنق مطيته الهزيلة إلى حدٍّ ما، وعصاه تتأرجح كالرمح؛ كان مشهدًا جميلًا فهو شاب غضٌّ وخفيف على السرج.

«سيفوزون!»، قالت لاهثة بهتاف فرح.

وعندئذ تعثر جواد بايرن، غير المناسب للسرعة، وترنح ثم سقط. ونزل راكبه من السرج، وأقام المطية على أقدامها، ووقف للحظة نصف دائخ قبل أن يمتطيها ثانية. تلك الدقيقة أحدثت فارقًا، إذ منحت الجانب الآخر فرصة. وضاقت حلقة الرجال والخيول، تمايلت ثم تفرقت وانفضت في عدْوٍ كالسهام، ثم فجأة أسرعت كرة -من عصا دلين- إلى مرمى الخصم ظافرة. انفجر صراخ الفرح، «مرحى لهيلي العجوز!»، هتفت الأصوات. ضحكت السيدة دلين ضحكة قصيرة مريرة. «ذلك الجواد اللعين، حذرته أنه ليس جيدًا، والأرض لم تزل زلقة»، اندفعت بالقول.

«الجواد؟ حسنٌ، إنه رائع. لن تتحمل كل مطية وزن دلين»، قلت. فنظرت إليّ شاردة الذهن، ثم أشاحت بوجهها بشفتين مرتعشتين. رأيتها تسرع بالذهاب نحو السياج.

تبعتها على عجل، راغبًا في رؤية دلين في لحظة نصره. أعلم أنه يأخذ كل هذه النجاحات الرياضية الصغيرة بجِدٍّ غريب، كأنما، على نحو غامض، كانت ظلالًا لنجاحات جوهرية أكبر، حلم بها أو حققها في حياة سابقة. ولعل غرور العجوز في الاحتفاظ برباطة

جأشه أمام الشباب كانت جزءًا من رضاه، وأنى للمرء أن يعرف في عقل زاخر ببساطة هائلة كهذه؟

لما بلغتُ السياج المرهِق لم أره فورًا، بل وقع نظري على منظر كريه. امتطى بولتن بايرن جواده، شاحب الوجه منهكًا -وتخايل لي وجهه كوجه المرأة العجوز- عابرًا الملعب الفارغ، يسوط كشحي جواده مغضبًا. نزل إلى الأرض، وحين فعل ضرب الحيوان المرتعد ضربة أخيرة على الرأس تمامًا. مشهد كريه...

ولكن القصاص وقع. لقد جاء مثل صاعقة ملونة بالأحمر والأسود هابطة على الحطام من السماء. فقد أمسك به دلين من ياقته وضربه على ظهره بسوطه، ثم ألقى به مثل شيء شديد الوضاعة لا يجدر ببشر إمساكه. وانتهى الأمر بالتقاط الأنفاس، ثم، حين اجتمع الجمهور وتحلقوا، تاركين بايرن ينسل مبتعدًا كأنه صار خفيًا، رأيت دلين الضخم، وقد غدا هادئًا مشفقًا، استدار إلى الجواد واضعًا يدًا مهدئة على عنقه.

كنت أتقدم دفعًا، تحركني الرغبة بمصافحة تلك اليد، حين تقدمت إليه زوجته. رغم أني لم أكن بعيدًا فإني لم أسمع ما قالته؛ لم يتحدث الناس بصوت عالٍ في تلك الأيام، أو «يصبحوا فرجة»، والكلمتان أو الثلاث التي نطقتها شفتا السيدة دلين لم تكن مسموعة إلا لزوجها. لقد كست وجهه الداكن بحمرة مفاجئة، وحرك ذراعه الطليقة (لم تزل اليد الأخرى على عنق الجواد)، كأنما يلوح مبعدًا طفلًا لحوحًا، ثم تحسس جيبه وأخرج سيجارة وأشعلها. كانت السيدة دلين، الشاحبة مثل شبح، تسرع عائدة إلى عربة ألستروب.

كنت أستدير مبتعدًا عندما رأيت زوجها يتلقى الترحيب ثانية.

كان بِلي غريسي هذه المرة، مندفعًا حييًا، كعادته، وقد جاء، وفي أهدابه دمعة طيّعة، وابتسامته يمتزج فيها التحدي والجبن، مادًا يدًا مقفّزة بالأصفر.

«باركك الرب من أجل ذلك يا هيلي، باركك الرب يا بني العزيز!»

تركت يد هيلي عنق الجواد كارهة. لوحت للحظة، ثم مست الراحة الأخرى، التي ابتلعتها سريعًا. ثم استدار دلين، دون أن ينبس، نحو السقيفة التي تُدعك فيها مطاياه، وتوارى حموه عن الأنظار.

وَعَدْتُ في طريق عودتي إلى البيت، أن أشرب الشاي مع صديق يقع بيته في منتصف الطريق بين نادي البولو وبيت ألستروب. فعرض أن يوصلني صديقٌ ذاهبٌ إلى هناك، وأخذني معه إلى بيت ألستروب بعد ذلك.

في الطريق، وعلى مائدة الشاي، دار معظم الحديث طبعًا حول الحدث الغريب لسقوط بولتن بايرن. كانت النسوة إما خائفات أو معجبات، إذ حركتهن عواطفهن، لكن كل الرجال اتفقوا أن ذاك طبيعي. في حالة كهذه أي حجة مقبولة، كما قالوا، رغم غباء هيلي لعرض مظلمته في مناسبة عامة. لكنه غبي، كان هذا الرأي المتفق عليه. إن كان من طريقة خاطئة لفعل أمر يجب فعله، فثق تمامًا بأنه لها! أما البقية، فقد تحدث الجميع عنه بود، واتفقوا على حمق ليلا... ولم يمِل أحد إلى بايرن خاصة، فهو «غريب» دسّ نفسه في مجتمع ما بصفاقته وفروسيته المتبجحة. لكن

ليـلا، اتفـق الجميـع، كانـت ضعيفـة دومًـا تجـاه «الغربـاء»، ربمـا لأن إعجابهـم داعـب رغبتهـا المفرطـة بـأن يفكـر أحـد فيهـا.

«أتسـاءل كـم بقـي مـن المجموعـة؛ لا بـد أن هـذا الأمـر أدى إلـى قـدر كبيـر مـن الصخـب»، قـال صديقـي، حيـن نزلـت بباب ألسـتروپ، ودارت الفكـرة نفسـها فـي ذهنـي. لا بـد أن بايـرن قـد غـادر، وفـي اتجـاه آخـر دليـن وليـلا مـن غيـر شـك. وددت لـو تسـنت لـي الفرصـة لمصافحـة يـد هيلـي المتخبطـة.

كان البهـو وحجـرة الاسـتقبال فارغيـن، ولا بـد أن جـرس تغييـر الثيـاب قـد جلجـل مناشـدته المتحفظـة أكثـر مـن مـرة، وخامرنـي شـعور بالارتيـاح إذ وجـدت أنـه اسـتجيب لـه. لـم أشـأ أن أتعثـر بـأي مـن الضيـوف الآخريـن حتـى ألتقـي مضيفنـا. ولمـا كنـت أسـرع فـي الصعـود سـمعته ينادينـي مـن المكتبـة، فعـدت أدراجـي.

«لا حاجـة إلـى السـرعة، لـن يقـدم العشـاء قبـل التاسـعة»، قـال مبتهجًـا، وأضـاف فـي نبـرة راحـة لا توصـف: «لقـد عملنـا عمـلًا شـاقًا، أوف!»

بـدت الغرفـة كأنمـا فعلـوا حقًـا؛ فطـاولات اللعـب لـم تمـس، والكراسـي الوثيـرة ذات المسـاند اجتمعـت فـي مجموعـات حميميـة، كأنهـم مـا زالـوا يتدارسـون المشـكلة المحيـرة. لاحظـت أن كثيـرًا مـن الوسـكي والصـودا قـد أنفقـا فـي سـبيل حلهـا.

«مـا الـذي حـدث؟ هـل غـادر بايـرن؟»

«بايـرن؟ كلا، حمـدًا للسـماء!»، نظـر إلـيّ ألسـتروپ فيمـا يشـبه الازدراء. «ولـم يتعيـن عليـه ذلـك؟ هـذا مـا أردنـا تجنبـه».

«لست أفهم، أتعنـي أنه بقي وغادر آل دلين؟»

«لا سمح الرب! ولم عليهما ذلك أيضًا؟ لقد اعتذر هيلي!»

فغرت فاهي، وحملقت في وجه مضيفي.

«اعتذر؟ إلى ذلك الكلب؟ لأي شيء؟»

هز ألستروپ كتفيه نافد الصبر. كأنما يقول: «أوه، حبًا بالرب لا تعد إلى فتح تلك المسألة اللعينة»، لكن ما قاله بصوت عالٍ: «لأي شيء؟ عجبًا. يحق للمرء أن يضرب جواده، أليس كذلك؟ إن ذلك فظيعٌ وليس من الروح الرياضية قطعًا، ولكن إن أراد بايرن أن يكون هذا الصنف من الأنذال، فليس هذا من شأن أحد. هذا ما أدركه هيلي، بعدما هدأ».

«فإني آسف على أنه هدأ إذن».

بدا الضيق جليًا على وجه ألستروپ. «لست أفهمك. لقد كان عملنا شاقًا. قلت إنك أردت رؤيته غاضبًا مرة، لكنه لا تريد له أن يمضي في جعل نفسه أحمق، أليس كذلك؟»

«لست أرى ضربه بايرن يعني أن يجعل من نفسه أحمق».

«وأن يعرض مشكلاته الزوجية على أعين لونغ آيلند، وفي إثره عشرون مراسلًا صحفيًا؟»

وقفت صامتًا، حائرًا وميالًا إلى الشك. «لا أصدق أنه فكر في ذلك. أتساءل من الذي أوحى له بذلك؟»

لف ألستروپ سيجارته غير المشتعلة بين أصابعه. «كلنا فعلنا، بألطف ما استطعنا. ولكن ليلا هي من أقنعته أخيرًا. عليّ القول إن ليلا كانت ثابتة العزم جدًا».

ظللت أفكر؛ تخايل أمام ناظري المشهد في المستراد، الحيوان المتوجع المرتعش، والأسلوب الذي استرخت به يد دلين الكبيرة على عنقه مطمئنة.

«هراء! لست أصدق كلمة من ذلك!»، قلت معلنًا.

«كلمة مما قلت لك؟»

«حسنٌ، من النسخة الرسمية لما حدث».

فوجئت أن ألستروبي قابل نظرتي بعين ليس فيها حيرة ولا استياء. وبدا لي أن ظلًا رفع عن وجهه الصادق.

«وماذا تصدق؟»، سأل.

«حسنٌ، أن دلين ضرب ذلك اللئيم لإساءته إلى الجواد، لا لأنه يلاطف السيدة دلين بأي حال من الأحوال. لقد كنت هناك، أقول لك... لقد رأيته».

هدأت سحنة ألستروب تمامًا. «لا بد من قول شيء حول هذه النظرية»، اتفق مبتسمًا فوق عود الثقاب الذي أدناه من سيجارته.

«حسنٌ إذن، فما الذي يعتذر عنه إذن؟»

«يا إلهي، من أجل ذلك؛ التدخل بين بايرن وحصانه. ألا تفهم أيها الشاب الأبله؟ لو لم يعتذر هيلي لتلطخت زوجته بالوحل، ولقال الجميع إن الشجار كان من أجلها. ذلك جلي مثل المقبض على الباب، لم يكن أمامه شيء آخر يفعل. لقد أدرك ذلك تمامًا بعد أن قالت له بضع كلمات...»

«أتساءل ما تلك الكلمات»، هممت.

«لست أدري. لقد نزلا معًا إلى الطابق السفلي. بدا في المئة من عمره، ذلك الرجل العجوز المسكين. «إنها قسوة، إنها قسوة» ظل يردد. «وأنا أكره القسوة». أحسب أنه يعرف أننا جميعًا في صفه. على أي حال، لقد سوى الأمر، وسوي جيدًا، ولقد أمرت من أجل العشاء بإحضار آخر زجاجة من شامپانيا جورج غوليه

لعام أربعة وثمانين. أردت الاحتفاظ بها من أجل إفطار زفافي، ولكني فقدت رغبتي بهذا الاحتفال منذ عصر اليوم»، ختم ألستروب قوله بابتسامة المتبتل.

«حسنٌ»، كررت قولي كأن في ذلك القول راحة، «أقسم إنه فعل ذلك لخاطر الجواد».

«أوه، وكذلك أنا»، استسلم مضيفي في أثناء صعودنا إلى الطابق العلوي.

على عتبة غرفتي، جذبني من ذراعي وتبعني داخلًا. رأيت أنه لم يزل في ذهنه شيء ما.

«اسمعني أيها الفتى، أقلت إنك كنت هناك عندما وقع الأمر؟»

«أجل، قرب...»

«حسنٌ»، قاطعني، «حبًا بالرب لا تلمح إلى الأمر الليلة، هلا فعلت؟»

«قطعًا».

«شكرًا جزيلًا. الحق أننا نجحنا في ذلك بأعجوبة، ولم أستطع إلا أن أعجب بأسلوب ليلا في التملق. لقد كانت غاضبة من هيلي، لكنها تمالكت نفسها سريعًا، وتصرفت بلياقة. أخبرتني سرًا أنه كثيرًا ما يكون هكذا، ينفجر غضبًا مفاجئًا كالمجنون. لا تتخيل ذلك وهو ذو الطبع الهادئ، صحيح؟ تقول إنها تظن ذلك بسبب جرحه القديم».

«أي جرح قديم؟»

«ألم تعلم أنه جرح، أين كان ذلك؟ أظنه في بَل رَن. في الرأس...»

كلا، لم أعلم ولم أسمع قط ولا أتذكر أن دلين شارك في الحرب الأهلية. وقفت وحملقت دهشًا.

«هيلي دلين؟ في الحرب؟»

«عجبًا، طبعًا. منذ اندلاعها».

«ولكن بل رن، بل رن كانت في بداياتها»، قلت مندفعًا مجريًا حسابًا سريعًا في ذهني. «اسمعني يا جاك، لا يمكن ذلك. لقد قلت لي بلسانك إنه لم يناهز الخامسة والخمسين. إن شارك في الحرب منذ بدايتها فلا بد من أنه كان تلميذًا».

«حسنٌ، هذا ما فعله؛ هرب من المدرسة ليتطوع. لم تعلم عائلته بما حدث له حتى أصيب. أذكر أني سمعت الناس يتحدثون عنه. يا له من شجاع رائع، هيلي. لقد حاولت جاهدًا ألا يحدث هذا، ليس في بيتي على أي حال، لكنه حدث وليس بوسعي منعه. اسمعني، أتقسم أنك لن تشير إلى الأمر؟ لقد جعلت الجميع يقسمون، وإن ساعدتنا فسنحظى بأمسية عائلية سعيدة عادية. البس ثيابك، إنها قرابة التاسعة».

3

هذه ليست حكاية قصّاص، بل إنها ليست حدثًا مؤهلًا لتحويله إلى حكاية. ولو كان كذلك. لبلغت الذروة، أو عتبتها الأولى في أي حال، في حادثة نادي البولو، ولكان ما ظل لأحكيه هو أثر تلك الحادثة على حياة ثلاثة أشخاص معنيين.

إنها ليست حكاية، أو أي شيء يشبه الحكاية، لكنها ليست إلا محاولة لأصور لك، وبفعلي ذلك قد يتضح الأمر أكثر عندي، مظهر رجل وشخصيته، رجل أحببته حبًا محيرًا صادقًا لسنوات كثيرة. ولهذا فلست أعتذر عن حقيقة أن بولتن بايرن، الذي تعين أن يخيم ظله البغيض على كل صفحاتي الباقية، لن يظهر فيها ثانية، وأنني رأيته آخر مرة (من أجل غاية في نفسي) عندما -بعد عشائنا المفرط البهجة والصخب تلك الأمسية في بيت جاك ألستروب- لحظته يصافح هيلي دلين، ويقول بشفتين مزمومتين ونبرة ود متكلفة: «أأحمل ضغينة؟ حسنٌ، كلا على الأرجح؛ عجبًا يا له من هراء! كل شيء مسموح في البولو، أليس كذلك؟ لا بد أن أعترف بهذا! أجل، أول شيء في الصباح. أحسبك باقٍ مع جاك يوم الأحد؟ ليتني لم أعِد آل غلدمر...»، ثم اختفى، وقد حقق المراد بتمريره ضوء المصباح على الجوانب المظلمة في طباع هيلي دلين.

طوال ذلك، واصلت الإحساس أن المهم ليس بولتن بايرن. حين دارت الأحاديث حول الحدث في النوادي وغرف الاستقبال، وغدا الأصدقاء مثقلين بالاحتمالات وهم يحاولون أن يبدوا غافلين،

وقالوا «لست أدري ما تعني»، بأعين تتوسل إليك أن تتحدث إن كنت تعرف أكثر مما يعرفون، فقد هجرت الأمر برمته، مثلما أنا واثق من هجر دلين له. «لقد كان الجواد ولا شيء غير الجواد»، ضحكت في سري، سعيدًا كأني اعترفت بالحقد على السيدة دلين، وكنت مسرورًا بإذلالها، وترددت في ذهني العبارة التي قال ألستروپ إن دلين ظل يكررها: «إنها قسوة، إنها قسوة. وأنا أكره القسوة».

لست أدري كيف توافقتُ مع الحقيقة الأخرى التي أفصح عنها مضيفي؛ حقيقة أن دلين شارك في الحرب الأهلية! بدا ذلك لا يصدق فوصلت إليّ مفاجأة، أني نسيت أو لعلي لم أعرف قط هذه المرحلة من تاريخه. ولكن في الشبان أمثالي، الذين تخرجوا في الكلية في التسعينيات، كان جهل كهذا مقبولًا أكثر مما يمكن الآن.

كان ذلك العصر المظلم من لا مبالاتنا الوطنية، قبل يقظة البلاد، لا شك في أن البلاد بدت أبعد عنا، وأقل جزءًا منا، مما هي عليه في شبان اليوم. هكذا كانت الحال، إذن، في نيويورك القديمة، وبالتحديد أكثر ربما، في العشيرة الصغيرة للنيويوركيين الموسرين المتراخين الذين نشأتُ بينهم. بعض من هؤلاء، في الحقيقة، قاتل بشجاعة في السنوات الأربع، وقد قدمت نيويورك نصيبها، نصيبها البارز، في النزاع الطويل. لكني أذكر حيرتي حين تيقظت للأمر أول مرة -كان ذلك أيام المدرسة- ذلك لو أن أحدًا من أقارب أبي أو مجايليه قد شارك في الحرب، فإن الآخرين -وما أكثرهم!- قد تنحوا جانبًا. أذكر صدمتي خصوصًا

حين سمعت، في المدرسة، صبيًا يشرح عرج والده: «لم يشف قط من تلك الطلقة التي أصيب بها في تشانسلرڤيل».

حملقت؛ فقد كان والد صديقي من عمر أبي. في تلك اللحظة (في مباراة كرة قدم مدرسية) كان الرجلان يقفان جنبًا إلى جنب، على مرأى منا، والده منحنٍ أعرج وعجوز، وكان والدي، حتى لعيني الابن، مستقيمًا وشابًا. كنت قبل هذا بساعة أتباهى أمام صديقي بالصياد الماهر أبي (أخذني معه إلى الصيد في نورث كارولينا في عيد الميلاد)، لكني وقفت عندئذ خجلًا.

قلت لأمي حين عدت إلى البيت لقضاء الإجازة التالية، ذات يوم حين كنا وحدنا: «لماذا لم يقاتل أبي في الحرب يا أمي؟» كان قلبي يدق بعنف حتى ظننتها رأت إثارتي وصدمت. لكنها رفعت إلي وجهًا هادئًا من مطرزتها.

«أبوك يا عزيزي؟ حسنٌ، لأنه كان متزوجًا»، وابتسمت ابتسامة مولعة بالذكريات. «كانت مولي مولودة، عمرها ستة أشهر حين سقط حصن سَمتر. أذكر أني كنت أرضعها حين دخل بابا حاملًا الأخبار. لم نصدق ذلك». صمتت لتلائم خيط حرير بهدوء. «لا يُستدعى الرجال المتزوجون للقتال»، قالت موضحة.

«لكنهم يفعلون يا أمي! لقد حارب والد پايسن غري. وقد أصيب إصابة بليغة في تشانسلرڤيل واضطر إلى المشي متوكئًا على عصا منذئذ».

«حسنٌ يا عزيزي، لست أظنك تريد حدوث ذلك لبابا، أليس كذلك؟»، وصمتت ثانية، ولما رأت أني لم أحر جوابًا لعلها أدركت

أن اتهامي بالقسوة آلمني، إذ أضافت كأنما لتخفف من تأنيبها: «حارب اثنان من أنسباء أبيك، نسيباه هرولد وجيمس. كانا شابين، بلا ارتباطات عائلية. وقد قتل جيمي المسكين كما تذكر».

استمعت في صمت، ولم أتحدث قط بعدها مع أمي عن الحرب. بل لم أتحدث إلى أحد حتى لنفسي. دفنت الأمر برمته لأبعده عن ناظريّ ومسمعيّ كما حسبت. لقد وقعت الحرب منذ زمن بعيد، وقد انقضت منذ عشرة أعوام حين ولدت، ولا أحد يتحدث عنها هذه الأيام. ومع ذلك، فإن المرء من غير ريب، حين يكبر، يلتقي أشخاصًا أكبر منه سنًا قيل لهم: «أجل، حدث كذا وكذا في الحرب». ظل كثيرون منهم يُعرفون بالألقاب العسكرية التي خرجوا بها من الخدمة: الكولونيل رسكوت، الميجور دترانسي، والجنرال العجوز سكول. تبسّم الناس قليلًا لكنهم أقروا بأنهم إن شاؤوا الاحتفاظ برتبهم العسكرية، فذلك حق كسبوه. تبين أن لهيلي دلين رأيًا مختلفًا، إذ لم يسمح قط أن يدعى «ميجور» أو كولونيل (أظنه غادر الخدمة برتبة كولونيل). كما أنه يصغر أولئك المحاربين بسنوات. إن معرفة أمر قتاله إلى جانبهم تشبه اكتشاف أن الجدة التي يتذكر المرء لعبها معه قد حملتها مربيتها لترى جورج واشنطن. نظرتُ إلى هيلي دلين دومًا على أنه ينتمي إلى جيلي أكثر من انتمائه إلى جيل أبي، رغم إدراكي أنه يكبرني بكثير، وأناديه أحيانًا «سيدي»، وأحسست بشيء من المساواة معه، مساواة نجمت عن مشاطرته التسالي نفسها والحديث عنها بالعامية نفسها. والحق أنه أصغر بعشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا من الرجال القلائل الذين عرفتهم ممن شاركوا في الحرب،

إذ كنت واثقًا بأنَّ لا أحد منهم اضطر إلى الفرار من المدرسة ليتطوع، لذا فإن نسياني (أو لعله جهلي) بماضيه كان مقبولًا.

كان برود ودلين، لجيلين أو ثلاثة، أحد المصارف الخاصة الآمنة والمحافظة في نيويورك. وقد جُعل صديقي هيلي شريكًا في وقت مبكر من مسيرته المهنية، وكان المنصب وراثيًا في عائلته. لقد حدث أني، بوقت قصير بعد المشهد في بيت ألستروپ، عرضت عليّ وظيفة في المصرف. لم يأت العرض عبر دلين، بل عبر السيد فردرك برود، العضو الأعلى مقامًا، إذ كان صديقًا قديمًا لأبي. كانت الفرصة مؤاتية جدًّا ولا يسعني رفضها، وحملت إلى مكتبي في برود ودلين قدراتي المتواضعة، ورغبتي الجادة في بذل قصارى جهدي. كان الفضل لهذا التغيير العرضي بأن نشأت بيني وبين هيلي دلين شيئًا فشيئًا عاطفة، بنوية من طرفي، وعاطفة الأخ الأكبر من جانبه؛ إذ يصعب أن يناديه المرء أبًا، حتى بوجود أبنائه.

لم يضطرني عملي إلى اعتراض سبيله، إذ لم تكن مهامه الوظيفية ذات عبء ثقيل، ولم تكن ساعاته في المصرف طويلة أو منتظمة. لكنه بدا ميالًا إليّ، وسرعان ما أخذ يزورني لكثير من الخدمات الصغيرة، التي، في عالم الأعمال، بوسع شاب أن يقدمها لمن يكبرونه سنًا. كانت معضلته الكبرى في كتابة رسائل العمل، فهو يعرف ما يود قوله؛ وكان حسه في الاستخدام الملائم للكلمات جليًا ويقظًا، ولم أعرف قط أحد يتبرم من الحشو الغامض الذي أفسد التعليم الأساسي الأمريكي به خطابنا. كان يشير بإصبعه إلى الغلطات المتكلفة مدمدمًا: «حبًا بالرب، ترجم

هـذه إلـى الإنجليزيـة...»، ولكنـه حيـن يضطـر إلـى كتابـة رسـالة، والأسـوأ مـن ذلـك أن يضطـر إلـى إملائهـا، يتعـرق جبينـه الـودود ويـداه الكبيرتـان، ويهمهـم، نصـف لنفسـه ونصـف لـي: «كيـف بحـق الشـيطان أقـول «وصلـت رسـالتك العقيمـة البارحـة، وبعـد أن قلّبـت الـرأي فـي مـا تقتـرح فإنـه لا يعجبنـي؟»

«حسـنٌ، قـل ذلـك فحسـب»، أجيبـه. لكنـه يهـز رأسـه ويعتـرض قائـلًا: «يـا صديقـي العزيـز، إنـك سـيئ بقـدري. لا تحسـن الكتابـة بإنجليزيـة جيـدة». كان فـي عقلـه هـوة واسـعة ثابتـة بيـن التحـدث باللغـة وكتابتهـا. مـا كان لـي أن أتمتـع بخيالـه لأجسـر هـذه الهـوة، أو لأرى أن تلـك العبـارات التـي تسـقط مـن شـفتيه كانـت «إنجليزيـة أفضـل» مـن النسـخة المكتوبـة، التـي تولـدت بعـد الكثيـر مـن الجهـد وعـض القلـم، الـذي كمـن فـي ترجمـة العبـارة نفسـها إلـى لغـة مـن قبيـل: «لقـد تسـلمت كتابـك فـي الثلاثيـن مـن الشـهر المنصـرم، ويؤسـفني أن أضطـر إلـى إبلاغـك ردًا عليـه، بعـد كثيـر مـن التفكيـر فـي الاقتراحـات التي تضمنهـا، أنـي أجـد نفسـي غيـر قـادر علـى قـول حكـم مقبـول عـن الأمـر المذكـور-»، وتوضـع عـادة شـرطة غاضبـة بعـد «الأمـر المذكـور»، بوصفهـا «رطانـة الباعـة»، ثـم يتذمـر مـن عـدم قدرتـه علـى العثـور علـى بديـل أكثـر جونسـونية[1].

«إن مشـكلتي»، اعتـاد أن يقـول، «إن كلا والـديّ كانـا متشـددين فـي قواعـد اللغـة، ولـم يسـمحا لأي منـا -نحـن الأطفـال- باسـتخدام تعبيـر سـوقي دون أن يصححـاه لنـا»، (وقـد قصـد بقولـه «سـوقي»

---

(1) المـراد أناقـة الصياغـة واسـتعمال الكثيـر مـن الكلمـات اللاتينيـة الأصـل، وذاك نسـبة إلـى الكاتـب والمعجمـي الإنجليـزي د. سـامول جونسـن.

إما عادي أو تعوزه الدقة). «لقد نشأنا على أفضل الكتب، سكوت وواشنطن إرڤنغ، وذاك الذي لا أذكر ما اسمه، صاحب المراقب وغيبون[1] وغيرهم، ورغم أني لست هاويًا للأدب، ولم أتهيأ قط لأكون كذلك، فلست أنسى نشأتي الأولى، وحين أرى الأطفال يقرؤون صحفيًا مثل كپلنغ تنتابني رغبة في تمزيق ذلك الهراء من بين أيديهم. صحافة رخيصة، هذا حال جل الكتب الحديثة. ستغفر لي قولي، يا فتاي العزيز، إنك أنت أيضًا يافع جدًا لتعرف كيف تكتب الإنجليزية».

كان صحيحًا تمامًا - رغم أني وجدت صعوبة في تصديقه بادئ الأمر- أن دلين كان قارئًا ذات يوم. لقد فاجأني ذات ليلة، ونحن نسير عائديْن إلى البيت بعد لقائنا في مأدبة عشاء، بمناجاته القمر، وقد طلع دهشًا خلف برج «هِڤنلي رست»، بقوله «تمشي في جمال كالليل»، وكان مولعًا بوصف تسديدة فوز في مباراة پولو بقوله: «ماذا أقول لك، لقد انقضضنا عليهم كالآشوري»[2]. لم يكن بايرن زاده الوحيد، فمما لا شك فيه أنه كان يحفظ في وقت ما قصيدة «رثائية غري»[3] كاملة عن ظهر قلب، وسمعته

---

(1) المراقب لجوزف أديسن: مقالات في صحيفة تحمل الاسم نفسه على لسان شخصية وهمية تكتسب صفة المراقب للمجتمع. غيبون: صاحب اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

(2) من قصيدة للورد بايرن يصف فيها امرأة، والقمر في اللغة الإنجليزية مؤنث. أما وصف الآشوري فهو أيضًا من قصيدة للورد بايرن بعنوان «خراب سنحريب» يقول في مطلعها: هجم الآشوري كانقضاض الذئب على قطيع الخراف/ وكتيبته تلمع باللونين الأرجواني والذهبي...

(3) قصيد للشاعر توماس غري بعنوان رثائية في فناء كنيسة ريفية.

مرة يهمس لنفسه، حين وقفنا معًا في مساء خريفي على شرفة منزله الريفي:

ستشحب الآن المناظر المتلألئة أمام ناظري
وكل الهواء يحمل هدوءًا جليلًا(1)

رغم قلة تعاطفي مع السيدة دلين، إلا أني لا أصدق أن زواجه هو ما أنهى اهتمامه بالكتب. وإن حكمت من مخزونه المحدود من التشبيهات والاقتباسات، يبدو أن قراءته انقطعت قبل لقائه الأول بليلا غريسي بزمن طويل. ولدى سبري أغواره كعالم الأرض لم أجد تحت طبقة ليلا بمستويات كثيرة، أثرًا لاهتمامه بالأدب، وخلصت أنه، مثل رجال آخرين أعرفهم، كان عقله متلقيًا حتى عمر معين، ومن ثم فقد حبس ما امتلك، مثل حيوان قشري مكتنز لم يصله مدٌّ عالٍ آخر. يكفّ الناس، كما عرفت الآن، كلهم عن العيش في وقت أو آخر، مهما ظلوا على قيد الحياة سنوات كثيرة، وأحسب أن دلين قد توقف في عمر التاسعة عشرة. لا بد أن التاريخ يتزامن مع نهاية الحرب الأهلية، وبعودته إلى الحياة العادية التي لم يحد عنها منذئذ. جلي أن هذه السنوات الأربع قد ملأت تمامًا كل صدع في حياته. لأني لم أصدق أنه خاضها على حين غرة، مثل بعض المشهورين الدمى في يد القدر، وقد ألقي بهم من الأعالي إلى أعماق التجربة الإنسانية دون أن يدركوا ما يحدث لهم؛ خاسرين القمة بإصرارهم على شعائر مفروضة، أو بحملهم في فرارهم حقائب الزينة الضخمة.

(1) من رثائية غري المذكورة آنفًا.

كلا، لقد شعر هيلي دلين بالحرب، وصيرته مختلفًا؛ يا لاختلافه في عيني حين قارنته «بالمحاربين» الآخرين، الذين، من اعتباري لهم الأكثر مللًا من بين ضيوف مآدب العشاء التي يقيمها أبي، قد أصبحوا شخصيات محل اهتمام كبير. كلما أعلنت قبلًا أمي أن الجنرال سكول أو الميجور دترنسي سيأتي للعشاء، وجدت في كل مناسبة حجة أغيب بها، أما الآن، فحين أعلم أنهما منتظران، كانت غايتي الكبرى أن أقنعها لدعوة دلين.

«لكنه أصغر منهما بكثير، ولا يهتم إلا بأهل الرياضة. لن يعجبه أن يدعى مع الرجال المحترمين المسنين»، ثم تضيف أمي بابتسامة صغيرة: «إن كان لهيلي من عيب، فهي الرغبة أن يُظن أنه أصغر عمرًا، في عين زوجته كما أظن».

لكنها دعته ذات مرة، وقبل الدعوة؛ وتجاوزنا أمر دعوة السيدة دلين (التي ستشعر بالملل قطعًا) بعدم دعوة السيدة سكول والسيدة رسكوت، وجعله «عشاء للرجال» من الطراز القديم، أطباق البط البري، ووعاء شراب البنش، وأمي هي السيدة الوحيدة الحاضرة، الأمسية التي لم يزل أبي يفضلها.

أتذكر في ذلك العشاء، كيف عاينت الاختلافات باهتمام، وحاولت جهدي أن أحدد مواطن الشبه، بين الجنرال سكول ودترنسي العجوز ودلين. كثيرًا ما دارت الإشارات إلى الحرب؛ من قبيل حكايات معركة بَل رن وأندرسنفيل، عن لنكن، وسِوَرْد ومكلِلان، على شفتي الميجور دترنسي، خاصة بعد أن يدور شراب البنش. «حين يكون امرؤ في الحرب»، اعتاد أن يقول استهلالًا لأي شيء تقريبًا، من إبداء رأيه في موعظة الأحد الماضي إلى الثناء

علـى تحميـر البـط البـري. علـى خـلاف الجنـرال سـكول. لـم يعـرف أحـد سـبب ترقيتـه إلـى هـذه الرتبـة، لكنـه أعـرب ضمنيًـا عـن حقـه فيهـا بعـدم إشـارته إلـى الموضـوع قـط. كان رجـلًا محترمًـا مسـنًا طويـلًا لـه كتلـة كثـة جميلـة مـن الشـعر الأبيـض، وعينـان زرقـاوان نصـف ناعسـتين تلمعـان بيـن جفنيـن معروقيـن، ووِقفـة مسـتقيمة اسـتقامة تثيـر الإعجـاب. كان سـلوكه رائعًـا؛ رائعًـا جـدًا إذ عوّضـه عـن اللغـة، ويقـول النـاس بعـد ذلـك أنـه كان لطيفًـا رغـم أنـه لـم يفعـل شـيئًا سـوى الانحنـاء والابتسـام، والنهـوض والجلـوس ثانيـة، بإتقـان مطلـق لهـذه الفنـون الصعبـة. قيـل إنـه خبيـر بالجيـاد ونبيـذ الماديـرا، لكنـه لـم يركـب الخيـل قـط، وقيـل إنـه يقـدم نبيـذًا شـديد التواضـع للضيـوف القليليـن الذيـن يسـتقبلهم فـي بيتـه القديـم الكئيـب فـي إرفنـغ پليـس.

تمتـع هـو والميجـور دترنسـي بخصلـة مشـتركة؛ وهـي الحـذر المفـرط مـن النيويوركـي العجـوز. إذ يعاينـان بشـك جلـي أي شـيء قـد يفسـد عاداتهمـا، أو يقلـق راحتهمـا، أو يثقـل كاهليهمـا بمسـؤوليات غيـر مألوفـة، مدنيـة أو اجتماعيـة، ولأنهمـا بطيئـان كشـأنهما فـي العمليـات الذهنيـة الأخـرى، أظهـرا سـرعة خارقـة فـي التنبـؤ بـأن يجرهمـا حديـث عـادي فـي ظاهـره إلـى «توقيـع ورقـة»، أو دعـم حتـى أكثـر المحـاولات اعتـدالًا للإصـلاح البلـدي، أو دفعهمـا إلـى تأييـد، مهمـا كان صغيـر النطـاق، أي قضيـة جديـدة غيـر مألوفـة.

وفقًـا لعقيدتهمـا، يتبـرع الرجـال المحترمـون بسـخاء قـدر مـا تتيحـه لـه مواردهـم إلـى جمعيـة تنظيـم الإحسـان، وحفـلات جمعيـة البتريارك‍يـة، وجمعيـة عـون الأطفـال، إلـى جانـب جمعيـات أبرشـياتهم.

كل شـيء لا يتحلـى بصفـة «سياسية»، أو اجتماعـات الإحيائييـن، أو محـاولات أشـخاص مبتذليـن لشـق طريقهـم فـي دائـرة المنتخبيـن، بـل إن جمعيـة الرفق بالحيـوان، التـي اسـتحدثت فـي الآونـة الأخيـرة، كانـت مدعـاة للشـك، ورأوا منـح بعـض أعضـاء الأكليـروس رعايتهـم طيشًـا. «ولكـن»، قـال الميجـور دترنسـي، «فـي هـذا العصـر المزعـج سـيفعل النـاس أي شـيء لجـذب الانتبـاه». وتنهـدوا تنهيـدة مشـتركة حسـرة علـى «نيويـورك القديمـة» فـي أيـام شـبابهم، نيويـورك الصدّيّة المتعذر اختراقهـا التـي غنّـى لهـا روبينـي وجِنـي لِنـد، وحاضـر السـيد ثاكـري، نيويـورك التـي رفضـت اسـتقبال تشـارلز دكنـز، والتـي، بدافـع الأخـذ بالثـأر، سـخر منهـا سـخرية شـائنة.

غيـر أن الميجـور دترنسـي والجنـرال سـكول قاتـلا فـي الحـرب، وشـاركا فـي أهوالهـا وعذاباتهـا التـي لـم تـروَ، واحتمـلا صنـوف المصاعـب والفاقـة شـتى، وعانيـا أقصـى درجـات الحـرارة والبـرودة والجـوع والمـرض والجـروح، لكنهـا كلهـا ولـت مثـل عسـر هضـم يخلـد المـرء إلـى النـوم بعـده مرتاحًـا، مخلفـة إياهمـا امرأيـن عادييـن سـعيدين تمامًـا.

ويصـدق الأمـر نفسـه، بفـارق وحيـد، علـى الكولونيـل رسـكوت الـذي رغـم أنـه لا ينحـدر مـن أصـول كأصـول الجماعـة فقـد اسـتقبل فيهـا زمنًـا طويـلًا، ذاك يعـود مـن جهـة إلـى كونـه رفيقًـا فـي السـلاح، لأنـه تـزوج قريبـة لهيلـي مـن جهـة أخـرى. مـا زلـت أسـتطيع رؤيـة الكولونيـل رسـكوت؛ رجـل ضئيـل أنيـق وسـيم، بـل إنـه مفـرط فـي ذلـك، لـه شـعر ممـوج لمـاع (أم كان ذاك شـعرًا مسـتعارًا؟) يفـرط فـي رش الكولونيـا علـى القميـص الكامبـري الأنيَـق. كان فـي شـبابه

منخرطًا في ميليشيا نيويورك، و«ناصر» التعديل السابع[1] العظيم، وغدا السابع، منذئذ، المصدر والمحور لوجوده، مثلما ما زال عشاء الجامعة عند بعض الثمانيين.

تخصص الكولونيل في سلاح المشاة. كانت الحرب في نظره «الأزرق والرمادي»، وإنقاذ فتيات الجنوب الجميلات، وحكايات عن علم البلاد، وحمل رسائل عاجلة مهمة خلال خطوط العدو. كأن دربه زاخر بالسحر خلال السنوات الأربع التي كانت كئيبة وبائسة عند الكثيرين، وشراب البنش (لسعادة الكثير منا نحن الشباب، الذين لم يتوانوا عن إغرائه) أخرج دومًا من ذاكرته مواقف لا تعد، وعبر الفعل السريع المحترم والمتملق، مهر صورة لا تمحى له على قلب جنوبي فخور، بينما اكتشف في الوقت نفسه أين تكمن عصابات جاكسن، أو أي نقطة كان فيها النهر يسهل خوضه.

وهنالك جلس هيلي دلين، أصغر من الآخرين بكثير، غير أنه بدا أحيانًا أكبر منهم بكثير، حتى قلت في نفسي: «ولكنه إن توقف عن النمو في التاسعة عشرة، فهم ما زالوا رضعًا!»، غير أنه واصل نموه بدافع الأخلاق. أما عقليًا فكانوا كلهم سواسية. فعندما نوقشت المسرحية الجديدة في بيت والاك، أو أشارت أمي بتردد إلى الرواية الأخيرة للكاتب روبرت إلسمر (كانت نظريتها

---

(1) «في الدعاوى المدنية حيث تزيد القيمة المتنازَع عليها على عشرين دولارًا يكون حق التقاضي أمام هيئة محلفين مصانًا، وأي واقعة تكون قد بتت بها هيئة محلفين، لا يجوز خلافًا لذلك أن يعاد النظر فيها في أي محكمة من محاكم الولايات المتحدة إلا وفقًا لقواعد القانون العام». (حول أمريكا، دستور الولايات المتحدة الأمريكية مع ملاحظات تفسيرية، وزارة الخارجية الأمريكية/ مكتب الإعلام الخارجي 2005، ص34)

أنـه، مـا دامـت المضيفـة حاضـرة فـي عشـاء الرجـال، فيجـب أن تظـل تتحـدث فـي أرفـع مسـتوى)، لـم تكـن تعليقـات دليـن أذكـى مـن تعليقـات جاريـه؛ فقـد كان شـبه متأكـد مـن أنـه لـم يقـرأ الروايـة.

كان الأمـر عنـد طـرح أي مسـألة اجتماعيـة؛ أي مـن المشـكلات التـي تتعلـق بـإدارة النـادي، أو الجمعيـات الخيريـة، أو العلاقـة بيـن «الرجـال المحترميـن» والمجتمـع، ينشـق عندئـذ عنهـم، متحفظًـا أكثر منـه معارضًـا.

إذ يجلـس مصغيًـا، ممسـدًا كلـب أختـي التريـر الطويـل (الـذي، ضاربًـا القوانيـن بعـرض الحائـط، قفـز إلـى حجـره لـدى تقديـم الحلـوى)، بنظـرة وقـورة شـبه شـاردة مـن وجهـه البديـن، وحيـن كانـت أمـي -عرفـت ذلـك- تفكـر فـي مـدى ضجـره، تأتـي ابتسـامته الكبيـرة وتضـيء غمازتـه، فيقـول، بحيـاء كافٍ لإظهـار احترامـه لمـن يكبرونـه، وفـي اسـتقلال كلـي عـن آرائهـم فـي الآن نفسـه: «ولكـن مـا أهميـة مـن ابتـدع الأمـر أول مـرة؟ المهـم هـو إنجـازه».

كان هـذا دومًـا جوهـر الأمـر. مـا يثيـر اهتمـام الآخريـن، ومنهـم أبـي، فـي كل شـيء، مـن اجتماعـات الأسـقفية إلـى الحفـلات الراقصـة لجمعيـة البـتـرياركيـة، هـو مـا لا يأبـه بـه دليـن: وقـوف الأشـخاص الذيـن شـكلوا اللجنـة أو تزعمـوا الحركـة. أمـا عنـد دليـن، فالحركـة وحدهـا هـي مـا يهـم، إن كان الأمـر جديـرًا بفعلـه، قـال بأسـلوبه البطـيء المتراخـي، فأنجِـزْه بصـورة مـا، وإن كان مؤيـدوه مـن الميثودييـن أو الأبرشـيين أو النـاس الذيـن يتناولـون الغـداء منتصـف النهـار.

«لـو كانـوا رهبانًـا مـن سـنغ سـنغ لمـا اكترثـت»، قـال مشـددًا، ويـده تداعـب بتـراخٍ عنـق الكلـب الطويـل، مثلمـا رأيتهـا تداعـب جـواد بايـرن المذعـور.

«أو مخابيل قادمين من بلومنغديل، كعادة أولئك «المصلحين»، أضاف أبي ملطفًا التعليق بابتسامته المتسامحة.

«أوه، حسنٌ»، غمغم دلين، وقد أثير انتباهه، «أستطيع القول إننا يجدر بنا التوقف حيث وصلنا».

«وخاصة»، أضاف الميجور دترنسي بنشقة لعوب، «بحضور شراب البنش في توقفنا كما أحسب».

ألمحت الإشارة إلى شراب البنش إلى انصراف أمي. فنهضت بابتسامتها الحيية المدورة، ونهض الرجال المحترمون كلهم، وهم يعارضون انصرافها بشهامة.

«تهجرينا للعودة إلى السيد إلسمر، ستثور غيرتنا من الرجل المحترم!»، قال الكولونيل رسكوت، وقد وصل الباب بشهامة أولًا، وحين فتحه قال أبي، بابتسامته المتسامحة مرة ثانية: «آه يا لزوجتي، إنها قارئة عظيمة».

ثم جيء بشراب البنش.

«ستقر»، تحدثني السيدة دلين، «بأن هيلي مثالي».

لا تتخيل أنك فرغت من السيدة دلين، أكثر مما فعل دلين، أو أنا. أظهرت لك جانبًا واحدًا حتى الآن، بل مرحلة واحدة، منها، في أثنائها، لأسباب جلية، أصبح هيلي عقبة أو عبئًا. في المراحل الفاصلة بين علاقاتها العاطفية، حين يتعين على امرئ ما ملء العرش الفارغ في صدرها، كان زوجها دومًا يستعيد مكانه هناك، وفي أثناء هذه المراحل المُحاقية كان هو والأولاد المواضيع الثابتة لأحاديثها. لو التقيتها حينئذ للمرة الأولى، لرأيتها الزوجة والأم الفضلى، وتساءلت إن كان هيلي قد حصل يومًا على إجازة، ولن تكون مخطئًا جدًّا في تخمين أنه لم يفعل إلا نادرًا.

غير أن هذه المراحل الفاصلة متباعدة جدًّا، وتدوم وقتًا قصيرًا، وفي أوقات أخرى، وزوجته مشغولة في مكان آخر، يكون دلين الأخ الأكبر لولديه الضخمين وأختهم الصغيرة. أحيانًا، في هذه الأوقات –حين تكون السيدة دلين مسافرة أو في نيوپورت– اعتاد دلين اصطحابي لأسبوع إلى البيت القديم الهادئ في تلال نيوجرزي، الحافل بالصور الشخصية لهيلي ودلين، وأثاث الماهوغني الثقيل ومزيج رائحة أكياس الخزامى والجلد- أحذية جلدية، وقفازات جلدية، وحقائب سفر جلدية- كل الروائح التي تنبعث من خزائن وممرات بيت يقطنه خيّالة متمرسون.

حين تكون زوجته في البيت، لم يبدُ قط أنه انتبه لصور العائلة الشخصية أو الأثاث القديم. تخلصت ليلا من أصلها

البائس بالمجاهرة بسخرية متواضعة من كل الأسلاف. «رأيت من المضجرين الأحياء ما يكفي فلا حاجة لي إلى تذكر الأموات منهم»، قالت ذات يوم، حين سألتها عن اسم جد عجوز عابس المحيّا يلبس درعًا وسترة جركينة صفراء معلقة صورته على جدار المكتبة، ودلين، الماهر جدًا في الازدواج العاطفي، غمز بعينه للأولاد مرحًا، كأنه يقول: «هذه الروح الأمريكية الموافقة لكم يا أحبتي! هكذا يجب أن نشعر جميعًا».

ربما، على أي حال، شعر بأثر من الاستياء في نظرتي، إذ حين جلسنا قرب النار بعد أن تثاءبت ليلا وذهبت لتخلد للفراش، نظر إلى الصورة المدرعة وقال: «هذا دَروورد هيلي العجوز، صديق السير هاري ڤين الأصغر وكل ذلك. لدي بعض الرسائل الغريبة في مكان ما... لكن ليلا محقة، كما تعلم»، أضاف بإخلاص.

«في ألا تهتم؟»

«في اعتبار كل ذلك الماضي العتيق ميتًا. لسنا بحاجة إليه هنا. هذا ما اعتاد قوله لي ذلك الرجل الغريب الأطوار في واشنطن...»

«أي رجل غريب الأطوار في واشنطن؟»

«أوه، رجل جلف أحسن إليّ كثيرًا في أثناء مكوثي في المستشفى... بعد معركة بل رن...»

فاعتدلت في جلستي سريعًا. كانت المرة الأولى التي يتحدث فيها دلين عن حياته في أثناء الحرب، ظننتني وضعت يدي على المفتاح، لكني لم أفعل.

«أكنت في المستشفى في واشنطن؟»

«أجل، وقتًا طويلًا. لم يعرفوا كثيرًا عن تطهير الجروح تلك

الأيام... لكن ليلا»، واصل كلامه بعناده الباسم، «ليلا محقة جدًّا كما ترى. هذا عالم أفضل. تذكر ما وُجد لتسكين الآلام منذئذ!»، حين نطق كلمة «الآلام»، تعمقت الغضنات العمودية في جبينه كأنما أحس بوخز حقيقي من جرحه القديم. «أوه، إنني مؤمن بالتقدم في كل شيء بقدر إيمانها؛ وأومن أننا نعمل من أجل شيء أفضل. لو لم نكن...»، فرفع كتفيه العظيمتين، ومد يده كسِلًا إلى الصينية المجاورة، ومزج كأسًا لي من الوسكي والصودا.

«لكن الحرب... أأصبت في بل رن؟»

«أجل». نظر إلى ساعته، «سأخلد إلى النوم الآن، وعدت الأولاد أن آخذهم نخبّ بالجياد في الصباح الباكر غدًا، قبل الدروس، ويجب أن أحظى بساعات النوم السبع أو الثماني لأشعر بالحيوية. أنا ذاهب كما ترى. أطفئ المصابيح عندما تصعد».

كلا، لن يتحدث عن الحرب.

لم يمر وقت طويل بعد ذلك حين سألتني السيدة دلين للشهادة بكمال هيلي. عادت من غيابها الأخير -ستة أسابيع من الارتعاش في نيوپورت- بادٍ عليها الحزن والألم والنحول. رأيت للمرة الأولى في زاويتي فمها يأس منتصف العمر الذي لا شأن له بفقدان الأسنان. «كم ستبدو عادية في غضون سنوات قليلة!»، قلت في نفسي بلا لطف.

«كامل، كامل»، أصرت، ثم قالت بأسى، «ومع ذلك...»

«فكررت قولها ببرود: «ومع ذلك؟»

«مع الأولاد مثلًا، فهو يعني لهم كل شيء. لقد أبعدني عن أولادي»، كانت نصف مازحة، ونصف متألمة.

ثـم اسـترقت نظـرة بطـرف عينهـا إلـي وأضافـت: «وفـي أوقـات أخـرى قـاسٍ جـدًا»

«دلين؟»

«أوه، أعلـم أنـك لـن تصـدق الأمـر. ولكـن فـي شؤون العمـل، ألـم تلاحـظ؟ أحسـبك لـن تعتـرف بذلـك. ولكـن لا يسـتطيع المـرء أحيانًـا زحزحتـه». كنـا فـي المكتبـة، ونظـرت إلـى الجـد لابـس الـدرع. «إنـه قـاس فـي ملمسـه بقـدر ذاك»، وأشـارت إلـى التموجـات الفولاذيـة.

«ليس دلين الذي أعرفه»، غمغمت محرجًا من حديثها الحميم.

«آه، أتحسـبك تعرفـه؟»، قالـت شـبه هازئـة، ثـم قالـت بنبـرة طيعـة: «لقـد قلـت دومًـا إنـه أب مثالـي، وجعـل الأولاد يرونـه كذلـك. ومـع ذلـك...»

دخل، فانسحبت خارجة بعد أن ألقت له بابتسامة شاحبة، ذاهبة لرؤية أطفالها.

قلت في نفسي: «إنها تمضي قدمًا، وقد أوحى لها بهذا شيء في نيوپورت، يا للمسكينة!»

بدا دلين مشغول البال مثلها، لكنه لم يقل شيئًا حتى تركتنا ذلك المساء. ثم استدار نحوي فجأة.

«اسمعني. إنك صديق مقرب لنا. أتساعدني في التفكير في مسألة مزعجة؟»

«أنا يا سيدي؟»، قلت وقد فوجئت بقوله «لنا»، مذهولًا من الالتماس الرصين ممن يكبرني عمرًا.

فابتسـم ابتسـامة واهنـة. «أوه، لا تنادنـي «سـيدي»، ليـس فـي أثنـاء هـذا الحديـث»، صمـت قليـلًا ثـم أضـاف، «أنـت تذكـر الفـارق بيـن

عمرينا. حسنٌ، لهذا بعينه أسألك. أريد رأي امرئ لم يسنح له الوقت ليبقى في رتابته، كما فعل معظم مجايليّ. الحق أني أحاول جعل زوجتي تدرك أن علينا السماح لأبيها بالقدوم للعيش معنا».

لا بد أن دهشتي فاغرًا فاهي قد كانت كافية لاختراق تجهمه، إذ ضحك ضحكة خفيفة وقال: «حسنٌ، أجل».

جلست أبكم. نيويورك كلها تعرف رأي دلين بحميه المتملق. وقد تزوج ليلا رغم أصلها، لكن بِل غريسي، منذ البدء، أُفهم أنه لن يستقبل تحت سقف دلين. الرجل العجوز المهذب، وقد هدأ بفعل مبلغ منتظم بمثابة مصروف مناسب، والدموع في عينيه، اعتاد أن يقول لمعارفه إنه لا يلوم زوج ابنته. «فميولنا تختلف. هذا كل ما في الأمر. هيلي ليس رجلًا سيئ السريرة، أقسم لك بشرفي إنه ليس كذلك»، والمعارف وقد تأثروا بشهامة كهذه، سيشربون نخب هيلي بالشمپانيا التي ابتيعت بحوالته الأخيرة.

بدأ دلين يشرح، حين ظللت صامتًا، «لا بد أن يعتني به أحد كما تعرف، ومن له سوانا؟»

«ولكن...»، قلت متلعثمًا.

«ستقول إنه كان دومًا في حاجة إلى من يعتني به. حسنٌ، لقد فعلت ما بوسعي، عدا إحضاره هنا. لوقت طويل كان ذلك مستحيلًا. أوافق ليلا تمامًا...» (فليلا إذن التي أقصت أباها!). «لكن الآن»، تابع دلين، «الأمر مختلف. إن العجوز المسكين يتقدم في السن، وأصبح يفقد رباطة جأشه سريعًا خلال السنة الأخيرة. وقد سيطرت عليه امرأة مبتزة، وهددته بأن تنبش في مجازات السباق القديمة، وما إلى ذلك. وإن لم نتعهده، فسيرضخ لها.

هـذه فرصتـه الأخيـرة، وهـو يشـعر بأنهـا كذلـك. فهـو خائـف، ويـود القـدوم».

كنـت ملتزمًـا الصمـت، فتابـع دليـن قولـه: «أحسـب أنـك تقـول ومـا الفائـدة؟ لـم لا نتركـه يكتـوي بنـار كان هـو موقدهـا؟ بمصـروف معقـول طبعًـا. حسـنٌ، لا أسـتطيع القـول... لا أسـتطيع إخبـارك... سـوى أنـي لا أريـد لهـذا أن يحـدث...»

«وماذا عن السيدة دلين؟»

«أوه، أفهـم رأيهـا. إن الأولاد يكبـرون، ولـم يعرفـوا جدهـم جيـدًا. ووجـوده فـي البيـت لـن يكـون مثـل وجـود سـيدة عجـوز لطيفـة تضـع قبعـة وتحـوك قـرب النـار. إنـه يمـلأ المـكان، غريسـي يفعـل حقًـا، لـن يكـون ذلـك مبهجًـا. وفـي رأيهـا علينـا أن نضـع الأولاد فـي اعتبارنـا أولًا، لكنـي لا أوافقهـا. إن العالـم مـكان شـديد القبـح، فلمـاذا يكبـر أحدهـم ظانًـا أنـه حديقـة ورد؟ لندعهـم يأخـذون فرصتهـم... ثـم» -تـردد كأنـه محـرج- «حسـنٌ، أنـت تعرفهـا، فهـي مولعـة بالمجتمـع. ولـم لا تكـون؟ لقـد خلقـت لذلـك. وذلـك سـيبعدنا طبعًـا، ويمنعنـا مـن دعـوة النـاس. ولـن يعجبهـا ذلـك، رغـم أنهـا لا تعتـرف أن لذلـك علاقـة باعتراضهـا».

حسنٌ، لقد انتقد الزوجة التي يعبدها أخيرًا! أخذت أدرك لماذا كان له ذلك الرأس العظيم البنية، وهذه الحركات الكبيرة الهادئة. كان شيءٌ ما...

«وما البديل الذي تقترحه السيدة دلين؟»

تلـون وجهـه. «أوه، مزيـدًا مـن المـال. أتصـور أحيانًـا»، قـال فـي صـوت أعلـى مـن الهمـس قليـلًا، «أنهـا تظننـي اقترحـت إحضـاره هنـا

لأنـي لا أريـد إعطـاءه مزيـدًا مـن المـال. لـن تفهـم، كمـا تعـرف، أن مزيـدًا مـن المـال سـيزيد الأمـور سـوءًا».

تلـون وجهـي أيضًـا، خجـلًا مـن تفكيـري. ألـم تفهـم، ألـم تكـن فطنتهـا مـا جعلتهـا تقـاوم؟ إن حكـم علـى أبيهـا بالهـلاك، فلمـاذا تطيل العمليـة؟ لـم أكـن واثقًـا أن دليـن لـم يسـاوره الشـك فـي هـذا أيضًـا، وسـمح بـه. إذ يبـدو أنّ لا حـدود لمـا سـمح بـه.

«لن تكون عالقًا في الرتابة»، تجرأت باسمًا.

«لعلـي لـن أعلـق، لكنـي سـأغرق عميقًـا، وأنـا غـارق سلفًا. مـد لـي يدًا تخرجنـي، هيـا!»، رد علـى ابتسـامتي.

كنـت لـم أزل فـي أوان اليقيـن، ولأحسـنت النظـر إلـى الأمـر لـو كنـت بعيـدًا بـلا شـك. ولكـن بذلـك القـرب، وتحـت أنظـار هاتيـن العينيـن الحزينتيـن، راودنـي إحسـاس بسـيط بقلـة الخبـرة.

«ألا تود أن تخبرني برأيك؟»، تحدث كأنه يؤنبني.

«أوه، ليـس كذلـك... إنـي أحـاول. ولكـن الأمـر بالـغ الإحسـان»، قلـت، إذ كان بعضنـا قـد بـدأ بقـراءة الـروس.

«حقًـا؟ ذاك طريـف أيضًـا. لأن لـدي فكـرة استوحيتها، إلـى جانب أشـياء أخـرى، مـن وثنـي، ذلـك الرجـل الـذي أخبرتـك عنـه، مَـن اعتـاد القـدوم والحديـث إلـيّ بالسـاعات فـي واشـنطن».

فانتعش انتباهي ثانية: «ذلك الرجل في واشنطن؛ أكان وثنيًا؟»

«حسـنٌ، لـم يذهـب إلـى الكنيسـة». يذهـب دليـن، مصطحبًـا الأطفـال بانتظـام، فيمـا تنـام ليـلا لتتخلـص مـن آثـار لعبـة البوكـر فـي الليلـة السـابقة، وينضـم إلـى الترانيـم بنبـرة جهيـرة أولـى خشـنة، ودومًـا نصـف نغمـة خفيضـة.

كأنه عرف أن جوابه ليس بكافٍ، فأضاف بقلة حيلة: «أنت تعلم أني لست عالمًا، ولست أدري ماذا تسميه»، وأخفض صوته ليضيف، «لا أظنه مؤمنًا برينا. لكنه علمني الإحسان المسيحي».

«لا بد أنه ليس رجلًا عاديًا، إذ ترك فيك هذا الأثر. ما اسمه؟»

«هنا الخسارة! لا بد أنني سمعته، لكني كنت مضطرب الذهن من الحمى معظم الوقت، ولا أستطيع التذكر. ولا ما حدث له أيضًا. لم يأت ذات يوم، وهذا كل ما أذكر. وخرجت بعد ذلك بوقت قصير، ولم أفكر فيه لسنوات. ثم، ذات يوم، كان عليّ أن أتخذ قرارًا بأمر ما، وبحق السماء، ظهر لي يبين لي صواب الأمر وخطأه! غريب؛ لكني أحسبه يأتي إليّ هكذا، في مدد متباعدة، وفي اللحظات الحرجة». عبس، وانحنى رأسه الثقيل إلى الأمام، وعيناه بعيدتان تلاحقان الطيف.

«حسنٌ، ألم يأتك هذه المرة؟»

«بلى! هذه مشكلتي. لا أرى الأمور إلا بعينه. وأريد عينًا أخرى تساعدني».

أخذ قلبي يدق بعنف حماسًا. إذ راودني إحساس بالوضاعة والتفاهة وانعدام الكفاءة كمتطفل على تبادل وقور للأسرار.

حاولت إرجاء ردي، وأن أرضي فضولًا آخر في الوقت نفسه.

«أأخبرت السيدة دلين يومًا عن... عنه؟»

رفع دلين نفسه واستدار لينظر إلي. رفع حاجبيه الأشعثين قليلًا، ومط شفته السفلى، وغرق مرة أخرى في ذهوله.

«حسنٌ يا سيدي»، قلت ردًا على النظرة، «أنا أصدق وجوده».

فسرى الدم في خده الداكن. استدار إليّ ثانية، وللحظة تلألأت الغمازة خلال تجهمه. «أهذا جوابك؟»

هززت رأسي موافقًا حابسًا أنفاسي.

فنهض، وسار على امتداد الغرفة ثم عاد، واقفًا أمامي. «لقد اختفى، ولست أعرف منه حتى اسمه...»

5

كان دلين محقًا، فعيش بل غريسي تحت سقفه لن يكون كإيواء سيدة لطيفة عجوز. نظرت إلى ما تلا حديثنا وتعجبت.

نيويورك، نيويورك آل دلين، اتخذت جانب ليلا. كان موقف المجتمع من الشرب والاحتيال لم يزل صلبًا؛ فالرجل أجبر على التخلي عن نواديه ووقع في حفرة لا قرار لها. الشخصان أو الثلاثة الذين وجدوا فعل دلين «مستحسنًا بعض الشيء» تعجلوا في أن يضيفوا، «ولكن كان عليه شراء بيت للرجل العجوز في مكان هادئ من الريف». بل غريسي يسكن كوخًا في مكان هادئ من الريف! سيشعل النار في الجوار في غضون أسبوع. لم يكن عزو ضبطه إلى أحد أمرًا سهلًا، وقد أدرك دلين هذا وواجهه.

ما كان شيء في الوضع غير المسبوق أغرب، وأكثر مفاجأة وإثارة، من إدراك السيد غريسي له. لقد غدا مدركًا أن حالته ليس لها بديل.

«اضطروا إلى إحضاري هنا، بحق الرب، أدرك ذلك بنفسي. فعجوز مثير للفتن مثلي لا يمكن الوثوق به! رأى هيلي ذلك منذ البداية، صهري رجل طيب. وما وجد حرجًا في إخباري بذلك. قال: «لست أثق بك يا أبتِ»... قالها في وجهي. بحق الرب لو أنه تحدث إليّ هكذا قبل بضع سنوات لما كنت مسؤولًا عن العاقبة! لكني ما عدت ذاك الرجل... عليّ أن أقبل معاملتهم إياي معاملة الطفل... غفرت له في اللحظة نفسها، يا سيدي، في اللحظة نفسها»، اغرورقت عينه السليمة، ومد يدًا ناعمة هرمة، تغطيها شبكة من العروق والنمش، عبر الطاولة إلي.

في العزلة الواقعية التي فرضها حضوره كنت واحدًا من الأصدقاء القلائل الذين واصل آل دلين رؤيتهم. عرفت أن ليلا شاكرة لي لمجيئي، لكني لم أحتج ذلك الدافع. فقد كان يكفيني أن أقدم لدلين دعمًا مغايرًا. كانت الأشهر الأولى مريعة، لكنه قال لنفسه بجلاء: «ستهدأ الأمور شيئًا فشيئًا»، وتأهب للعاصفة.

لم تهدأ الأمور، بل استمرت في حالة من الهياج متجسدة ببل غريسي. أعاد للتائب شيئًا من صحته الرعايةُ البنوية والطعام الجيد والساعات الباكرة، فصار مفعمًا بالحيوية متغطرسًا لئيمًا. لحسن الحظ أن حماقته الأولى أعادت الحذر السابق له أيضًا. فرأى أن قواه في المقاومة قد ولت، وإذ أفرط في توجعه من محنته، فقد عاد ليصبح عبئًا كئيبًا. لكنه لم يكن امرأً خاملًا، إذ كان له دور يؤديه بصورة أو بأخرى، مؤذيًا أحدًا ما عادة.

ذات يوم دخلت عنوة سيدةٌ مفرطة الأناقة تريد رؤيته، وتردد صدى اتهاماتها في أرجاء البيت. اعترضت ليلا على رؤية الأولاد مشاهد كهذه، وحين عاد الولدان إلى البيت في عطلة الميلاد أرسلتهما إلى كندا مع معلم خاص، وسافرت هي والبنت الصغيرة إلى فلوريدا. جلسنا أنا ودلين وغريسي وحدنا لتناول الديك الرومي لعشاء الميلاد، وتساءلت عن رأي صديق دلين الغريب من مستشفى واشنطن بهذه المأدبة. كان السيد غريسي مثيرًا للشفقة، وتذكر ماضيه بإسهاب مهذب. «في النهاية، لقد أحبتني النساء والأطفال دومًا»، خلص بالقول وعلى أهدابه تقف دمعة. «لكني كنت لعنة عليك وعلى ليلا، وأعلم ذلك يا هيلي. هذه

خصلتي الحسنة الوحيدة كما أظن، بأني أعلم ذلك! حسنٌ، ها هنا نقلب صفحة جديدة...»، وهكذا.

ذات يوم، بعد بضعة أشهر، أرسل في طلبي السيد برود رئيس الشركة. دهشت، وقلقت قليلًا، من الاستدعاء، إذ لم أكن ممن يُدعى للمثول أمام جنابه المهيب.

«يثني السيد دلين على قدراتك ثناء كبيرًا»، قال بألفة.

انحنيت، وارتعشت لما ظننته تلميحًا إلى ترقية، لكن السيد برود واصل قوله: «أعلم أنك تقضي في بيته وقتًا كبيرًا. رغم فارق السن فهو يتحدث عنك كأنك صديق قديم»، انهارت آمال الترقية، لكني لم آسف على ذلك. لقد كان هذا أفضل بصورة ما، فانحنيت ثانية.

أصاب الحرج السيد برود. «أترى السيد وليم غريسي كثيرًا في بيت صهره؟»

«إنه مقيم هناك»، أجبت ببرود.

تنهد السيد برود. «أجل، إنه أمر جيد من السيد دلين... ولكن أيدرك العواقب حق الإدراك؟ إن عائلته تتخذ جانب زوجته. قد تتساءل عن حديثي بهذه الصراحة، ولكن طلب مني... اقترح...».

«لو لم يعش هناك لكان في الدرك الأسفل».

تنهد السيد برود تنهيدة أعمق. «آه، إنها مشكلة... قد تسأل لمَ لا أتحدث إلى السيد دلين مباشرة... لكن الأمر حساس جدًا، كما أنه شديد التحفظ. ومع ذلك، ثمة أماكن للإيواء... ألا ترى أنه يمكن فعل شيء؟»

كنت صامتًا، وصافحني هامسًا: «هذا سري»، وأومأ إيماءة

صرفني بها. عدت إلى مكتبي، شاعرًا أن الوضع لا بد بائس ما دام السيد بروك قد أكد ذلك باستشارته لي.

نيويورك، لتريح ذهنها من الأمر، قررت أخيرًا أن هيلي دلين كان «غريب الأطوار». وها هنا اثنان، كلاهما مجنون، يشربان بمودة تحت سقفه، فلا عجب أن ليلا المسكينة وجدت المكان لا يسكن! ذلك الرأي، الذي انتشر، كما تحدث أمور كهذه، بسرعة سرية غامضة، أعدّني لما هو قادم.

ذات يوم في إجازة عيد الفصح ذهبت لتناول الغداء مع آل دلين، لما وجدت مضيفي وحده مع غريسي العجوز عرفت أن ليلا قد سافرت مع الأطفال ثانية. لقد فعلت، لقد سافرت منذ أسبوع، وأرسلت رسالة إلى زوجها تقول إنها ستبحر من مونتريال مع الفتاة الصغيرة. أما الولدان فسيعودان إلى غروتن مع خادم أمين. لم تضف شيئًا، إذ لم ترغب في الإشارة إلى ما توافقها عليه عائلته في أنه تصرف كريم في غير محله. عرف أنها منهكة من التوتر الذي فرضه عليها، وفهم رغبتها في الابتعاد بعض الوقت...

لقد تركته.

لم تكن أحداث كهذه، في تلك الأيام، كما أصبحت عليه منذئذ، ويساورني شك إن وقعت الضربة، على رجل مثل دلين، بمثل هذه الخفة. كانت تلك أكثر أمسية قضيتها بصحبته كآبة قطعًا. فقد راودني الإحساس نفسه الذي راودني يوم تأديب بولتن باين؛ الإحساس بأن دلين لم يأبه البتة برأي العامة. لم تزحزحه معرفته بأن الأسرة اتخذت جانب زوجته قيد أنملة كما أحسب،

ولا رأيها بفعله، ولم أكن مستعدًا لهذا. وجدت أن الذي آلمه حقًا، هي وحدته. فقد افتقدها، وأرادها أن تعود، كان حضورها التافه المزعج آخر شيء في العالم يستغني عنه. ولكنه حين أخبرني بما فعلت، أضاف قائلًا: «أرى ألا جدوى، لقد تمسك كل منا برأيه».

نظرت إليه ثانية بدهشة. كأن صوتًا آخر ينطق من شفتيه، فنطقتها بلساني قائلًا: «أذلك ما أخبرك به صديقك القديم من واشنطن؟». لكن عند باب غرفة الطعام، حيث أطلنا المكوث، ظهر بيننا وجه السيد غريسي الأحمر والخصل الوضيعة لشعره البني الأصحر.

«اسمعني يا هيلي، ماذا عن لعبتنا الصغيرة؟ إن كنت سأجبر على الخلود إلى الفراش في العاشرة مثل صبي مشاغب فعليك أن تلعب معي البوكر أولًا». فغمز لي قليلًا ونحن ندخل المكتبة وأضاف بصوت أجش جانبًا: «إن كان يحسب أنه سيسيطر عليّ مثل ليلا فهو مخطئ. لو كانت هنا لكان الأمر مختلفًا، وما دامت ذهبت فاللعنة عليّ إن قبلت أي تنمر».

كان هذا الوعيد آخر وهج من روح السيد غريسي التي لا تقهر. ففعل التحدي الذي أكده أصابه بهجمة حادة من ذات الجنب. مرّض دلين العجوزَ بصبر عنيد، فبرئ من مرضه ضئيلًا ذاويًا، وتبدد آخر أثر من اللون البني المحمر من خصل شعره القليلة، ولم يبق شيء من ذاته القديمة إلا سيل من الكلام الهادئ.

علمه دلين أن يكون صبورًا، واعتاد الجلوس لساعات أمام نار المكتبة، حائرًا أمام ورق اللعب، أو متحدثًا لببغاء الأطفال

الـذي أطعمـه ورعـاه بانتظـام مؤثـر. كمـا كـرس قـدرًا جيـدًا مـن وقتـه لجمـع الطوابـع لأجـل أصغـر حفدتـه، وحبّبـه إلـى الخـدم لطفـه المتزايـد ومزاحـه الطريـف فصُرفـت خادمـة أمينـة لتهريبهـا شـراب الكوكتيـل إلـى غرفتـه. فـي الأيـام الجميلـة، يصحبـه دليـن، وقـد عـاد مـن المصـرف فـي وقـت أبكـر، فـي نزهـة قصيـرة، وذات يـوم حـدث أن مشـيت خلفهمـا فـي الجـادة الخامسـة، فلاحظـت أن الكتفيـن العريضتيـن للرجـل الأصغـر آخذتـان بالانحنـاء مثـل كتفـي الرجـل الآخـر، وأن فـي مشـيته خفـة أقـل ممـا فـي مشـية بـل غريسـي المرحـة. بـدوا رجليـن مسـنين يمشـيان ميلهمـا اليومـي فـي الجانـب المشـمس مـن الشـارع. لـم يعـد بـل غريسـي خطـرًا علـى المجتمـع، وقـد تعـود ليـلا إلـى البيـت. لكنـي فهمـت مـن دليـن أنهـا لـم تـزل خـارج البـلاد مـع ابنتهـا.

سـرعان مـا غـدا المجتمـع يعتـاد أي وضـع يفـرض عليـه دونمـا شـرح. لاحظـت أن دليـن لـم يشـرح قـط، وقـد كمنـت قوتـه الجوهريـة فـي تلـك الخصلـة المغايـرة. لعلـه لـم يكـن مـدركًا أن النـاس أخـذوا يقولـون: «يـا لغريسـي العجـوز المسـكين، فـي النهايـة سـيموت ميتـة لائقـة. لقـد أحسـن هيلـي صنعًـا، ولكـن علـى زوجتـه العـودة وتحمـل العـبء معـه». فـي الأمـور المهمـة لـم يكـن مباليًـا بـرأي العامـة حتـى لكأنـه لـم يلحـظ تغيـره. أراد أن تعـود ليـلا؛ فقـد افتقدهـا والفتـاة الصغيـرة يومًـا بعـد يـوم، ولكـن فـي نظـره لـم يكـن فـي الأمـر «مـا يجـب».

وعـادت ذات يـوم. لقـد أعـاد الغيـاب الشـباب إليهـا، وكانـت تلبـس ثيابًـا جديـدة مذهلـة، وتعرفـت بنبيـل إيطالـي آسـر كان قادمًـا إلـى

نيويورك على الباخرة التالية... كانت مستعدة للصفح عن زوجها، وأن تكون لينة وطيعة ومحبة. استخف دلين، ببساطته الأخاذة، بهذا كله، وجعله أثر عودتها يشعر بأنه المخطئ بصورة ما، وكان مستعدًا للتنعم بغفرانها. لحسن حظها ومن أجل شعبيتها فقد وصلت في الوقت المناسب لتخفف من لحظات تقهقر أبيها. لم يعد السيد غريسي إلا متقاعدًا عجوزًا هادئًا واعتادت ليلا اصطحابه في نزهة بانتظام، ورفض الدعوات المملة «لأن عليها أن تكون مع بابا». في نهاية المطاف، قال الناس، إن لها قلبًا. وهذا ما ظنه زوجها أيضًا، وسر بإيمانه هذا. في ذلك الوقت من العيش تحت سقف آل دلين، رغم أنه كئيب ومثير للكسل، كان مؤسفًا أن العجوز غريسي لم يمكنه إطالة حياته أكثر، لذا فإن وجوده بما يشبه المعجزة قد وحد العائلة التي انقسمت بسببه يومًا. لكنه لم يكن مدركًا لذلك، وانتقل من شيخوخته المرحة إلى الغيبوبة والموت. حضرت الجنازة نيويورك برمتها، وكان خمار ليلا من قماش الكريب ذا طول ملائم، وهذا أمر بالغ الأهمية في تلك الأيام.

للحياة أسلوب في تعظيم نجاحاتها وإخفاقاتها. في وقت بدا أقل من الممكن في مجتمع بطيء النمو، سويت أزمة آل دلين ونسي أمرها. لم يتغير شيء في الموقف المشترك للزوج والزوجة، أو في موقف مجموعتهما الصغيرة حيال الزوجين. وإن كان لا بد، فقد كسبت ليلا تقديرًا عامًا من أجل مواظبتها على الجلوس قرب فراش أبيها، رغم أني بوصفي ساردًا أمينًا فأنا ملزم بأن أضيف بأنها فقدت هذه المزية لانغماسها في التودد

إلى النبيل الإيطالي قبل أن تستبدل الزركشة بمحل التخاريم على خمارها الرقيق. وفي مواقف جوهرية كهذه، لم تزل نيويورك تتمسك برأيها.

أما هيلي دلين، فقد خرج من محنته أكبر، وأكثر انحناء، ولم يتغير فيما عدا ذلك. لست واثقًا بأن أحدًا سواي أدرك وجود محنة. لكن رَأيي استمر. لقد أعاده رجوع زوجته رجلًا محترمًا مسنًا لاعبَ ورق، ومرتادَ حفلات، ومترددًا إلى السباقات. لكني رأيت الأنهار تتفرق، وصخر الصوان ينحدر من أعلاها. وقعت الفوضى مرتين، وفي كل مرة خضوعًا لدوافع لا يفهمها الناس الذين عاش بينهم. أي رجل سيتخذ موقفًا على مبدأ يعتنقه إخوته المواطنون، لكن هيلي دلين تحمّل أمورًا لم يفهمها أصدقاؤه، وفعل ذلك لأسباب لم يستطع شرحها. فاستمر اللغز الجوهري.

أَستمرَّ لدي حتى هذا اليوم؟ أحيانًا، ذاهبًا إلى البلدة من المصرف الذي أصبحت فيه بدوري موظفًا دائمًا، أرنو عبر قضبان فناء كنيسة ترنتي وأتساءل. لقد رقد هناك عشر سنوات أو أكثر، وتزوجت زوجته برئيس جامعة غربية واعدة، وغدت مثقفة وميالة إلى النقد، وأولاده تفرقوا واستقروا. أَدَفن دلين العجوز سره، أم فاجأني ذات يوم، أسنفاجأ أنا وهو به معًا؟

كان عصر يوم أحد، كما أذكر، بعد النهاية الواعظة لبل غريسي. لم أخرج إلى البلدة في نهاية الأسبوع، وبعد نزهة طويلة في الشفق الأزرق الصقيعي في سنترال پارك أويت إلى شقتي. فوجئت برؤية معطف هيلي دلين الكبير وقبعته العالية في البهو. اعتاد زيارتي بين الفينة والأخرى، ولكن معظم الأحيان في طريقه

إلى البيت من عشاء صادف لقاءنا فيه، ودهشت قليلًا لحضوره في تلك الساعة وفي يوم أحد. لكنه رفع إليّ وجهًا رائقًا عن صحيفة الصباح.

«لم تتوقع زيارة في يوم أحد؟ الحقيقة أنني خرجت في عمل. أردت الذهاب إلى الريف، كالعادة، ولكن ثمة حفلة موسيقية كبرى أو ما إلى ذلك حجزت لها ليلا هذا العصر، والعشاء الليلة في بيت ألستروپ. لذا مررت بك لأمضي النهار. فماذا يفعل المرء عصر الأحد على أي حال؟»

ها هو ذا، هيلي القديم الذي نعرفه، يلجأ إلى ذلك بقدر ما يبدي عبثه الأصغر من عزمه على إشغال ساعة لا يلعب فيها الپوكر! سررت لأنه يراني بديلًا مناسبًا، وأخبرته بذلك ضاحكًا. فضحك أيضًا- فقد كنا في مرحلة التكافؤ الأخوي- وأخبرني بأن أمضي قدمًا وأقرأ رسالتين أو ثلاثًا وصلت في غيابي. «يا إلهي، كم هي كثيرة على شاب في عمرك!»، فضحك.

فتحت أختام الرسائل وكنت أنظر فيها عندما سمعت تعجبًا خلفي.

«بحق الرب، ها هو ذا!»، صاح هيلي دلين، فاستدرت لأرى ما يعني.

أخذ كتابًا، في حركة مفاجئة، لكنه كان قريبًا من مرفقه، وأحسب أنه قرأ كل ما في الصحيفة من أخبار. مد إليّ المجلد دون كلام، وسبابته على الصفحة المفتوحة، وكان وجهه الأسمر مشرقًا، واهتزت يده قليلًا. الصفحة التي أشارت إليها إصبعه فيها طباعة بالفولاذ لصورة شخصية لرجل.

«إنه هو طبق الأصل، أتذكر ثيابه القديمة أينما كان»، قال دلين جزلًا، قافزًا من مقعده.

أخذت الكتاب وحملقت إلى الصورة الشخصية أولًا، ثم إلى صديقي.

«صديقك في واشنطن؟»

هز رأسه بحماس. «ذاك الرجل الذي حدثتك عنه كثيرًا، أجل!» لن أنسى يومًا كيف حلقت ابتسامته ووصلت غمازته. كأن شبكة منها تزين وجهه السعيد. شردت عيناه، كأنه ينظر إلى آفاق خفية. ثم عادت إليّ ثانية.

«كيف بحق السماء وضع الفتى صورته الشخصية في كتاب؟ أكان أحد يكتب شيئًا عنه؟»، استيقظ فضوله الضعيف، ومد يده طالبًا المجلد. لكني أمسكت به.

«الكثير من الناس كتبوا عنه، لكن هذا الكتاب كتابه».

«تعني أنه من كتبه؟»، ابتسم متشككًا. «عجبًا لم يتلق الرجل المسكين أي تعليم!»

«لعله تلقى أكثر مما تظن. دعني أبقي الكتاب لحظة أخرى، وأقرأ لك شيئًا منه».

وافقني على ذلك، رغم أني رأيت اللهفة للصفحة المطبوعة تغشي اهتمامه.

«ما نوع كتاباته؟»

«أشياء من أجلك، فاسمع».

فعاد إلى كرسيه ذي المسندين، بهيئة مصغية باهتمام، وجلست وبدأت:

مشهدٌ في معسكر عند مطلع الفجر الرمادي المعتم،
فيما أخرج من خيمتي مبكّرًا للغاية بلا نوم،
فيما أتمشى الهوينى في الهواء البارد المنعش بالممر القريب من خيمة المستشفى،
أرى ثلاثة أشكال تستلقي على محفّاتٍ، أخرجوا إلى هناك يستلقون بلا رعاية،
على كل منهم البطانية مفرودة، بطانية بائسة صوفية بنية،
بطانية ثقيلة ورمادية، مطوية، تغطي الكل.
أتوقف في فضول وأقف صامتًا
ثم بأصابع خفيفة أرفع البطانية عن وجه الأول الأقرب مني؛
من أنت أيها الرجل العجوز شديد النحول والجهامة، بشعر رماديٍ تمامًا، والجلد الغائر حول العينين؟
من أنت، يا رفيقي العزيز؟
ثم أخطو إلى الثاني - ومن أنت يا طفلي يا عزيزي؟
من أنت أيها الولد العذب بخدين لا يزالان متوردين؟
ثم إلى الثالث - وجه لا بالطفولي ولا بالعجوز، بالغ الهدوء، كأنه من عاج أبيض مصفرّ جميل؛
أيها الشاب، أظن أني أعرفك- هذا الوجه هو وجه المسيح ذاته،
ميتًا وسماويًا وشقيقًا للجميع، وهنا من جديدٍ يستلقي[1]

(1) قصيدة مشهد في معسكر لوالت ويتمان، ترجمة رفعت سلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص550-551

وضعت الكتاب المفتوح على ركبتي، واسترقت نظرة إلى دلين. كان وجهه خاليًا من التعبير، لم يزل غارقًا في الطيات الثقيلة للانتباه المفروض. لم تبدر عنه شرارة. لا بد أن المسافة عظيمة جدًا بين النقطة القصية التي فارق فيها صحبة الشعر الإنجليزي، وبين هذه المرحلة الجديدة التي توشحت بها. يجب أن أعثر على شيء يقرّب الأمر منه كفاية ليذلل السبيل غير المألوف.

ذات ليلة قضيت سهرة غريبة في حقل،

حين سقطتَ إلى جواري ذلك اليوم يا ابني ورفيقي...

انساب الهمس المضاء بالنجوم للقصيدة، مكتومًا لحوحًا، وامتلأت به حنجرتي، وغشيت عيناي. قلت في نفسي وصوتي يتهدج في السطر الأخير: «إنه يعيش ذلك كله، ويراه ثانية؛ مدركًا للمرة الأولى أن أحدًا آخر رأى ذلك مثلما فعل».

تململ دلين قلقًا في مقعده، وبدل ساقيه المتقاطعتين مرة بعد أخرى. مسدت إحدى يديه بشرود على طية بنطاله حسن الكي. لم يزل وجهه خاليًا من التعبير. لم تجسر المسافة بين «مرثية غري» وهذا النغم المبهم. لكني لم تفتر همتي، لم يتبادر إليّ أن أيًا منها ستمسه- ليس في البدء- سوى عبر الالتماس الشخصي الأقرب. استدرت من «الموت الجميل المهدئ»، التي فتحت عندها الكتاب ثانية، وبحثت عن صفحة أخرى. مال مستمعي إلى الوراء مستسلمًا:

حاملًا الضمادات والماء والإسفنج،

أمضي مباشرة وسريعًا إلى جرحاي...[1]

---

(1) هذان السطران، والسطران السابقان من ديوان ويتمان، بترجمة رفعت سلام، ص548-558.

قـرأت حتـى النهايـة. ثـم أغلقـت الكتـاب ورفعـت نظـري مـرة أخـرى. جلـس دليـن صامتًـا، يـداه الكبيرتـان متشـبثتان بمسـندي كرسـيه، ورأسـه غائـص فـي صـدره قليـلًا. كان جفنـاه مسـدلين، كمـا تصـورت بإجـلال. كان قلبـي يـدق بعاطفـة ورعـة، لـم أشـعر بهـذه الأسـطر المقـروءة كثيـرًا كمـا شـعرت بهـا عندئـذ.

بقليل من الخوف، تكلم أخيرًا. «أكتب ذلك؟»

«أجل، في الوقت الذي كنت تراه فيه، على الأغلب».

ما زال دلين مطرقًا، وغدا وجهه أنيسًا أكثر فأكثر. «ماذا... إه، تسميه بالضبط؟»

حرت للحظة، ثم: «آه، شعر... شكل حر، طبعًا... لقد كان مبتدعًا لأشكال جديدة من الشعر كما ترى...»

«أشكال جديدة من الشعر؟»، ردد دلين عابسًا. وقف بطريقته المتثاقلة، لكنه لم يطلب أخذ الكتاب مني ثانية. رأيت في وجهه علائم الخروج مغضبًا.

«حسنٌ، إنـي لسـعيد لرؤيـة هـذه الصـورة بعـد كل هـذه السـنوات»، قـال ووقـف عنـد البـاب ليسـأل: «بالمناسـبة، مـاذا كان اسـمه؟»

وحيـن أخبرتـه ردده بابتسـامة جزلـة هادئـة. «أجـل، هـذا هـو. والـت العجـوز- هـذا مـا كان كل الرفـاق ينادونـه. كان رجـلًا عظيمًـا، لـن أنسـاه مـا حييـت، بـل أتمنـى ألا أفعـل»، أضـاف، بنبـرة التقريـع الهادئـة، «لـم تخبرنـي بأنـه كتـب كل ذلـك الهـراء».

النهاية

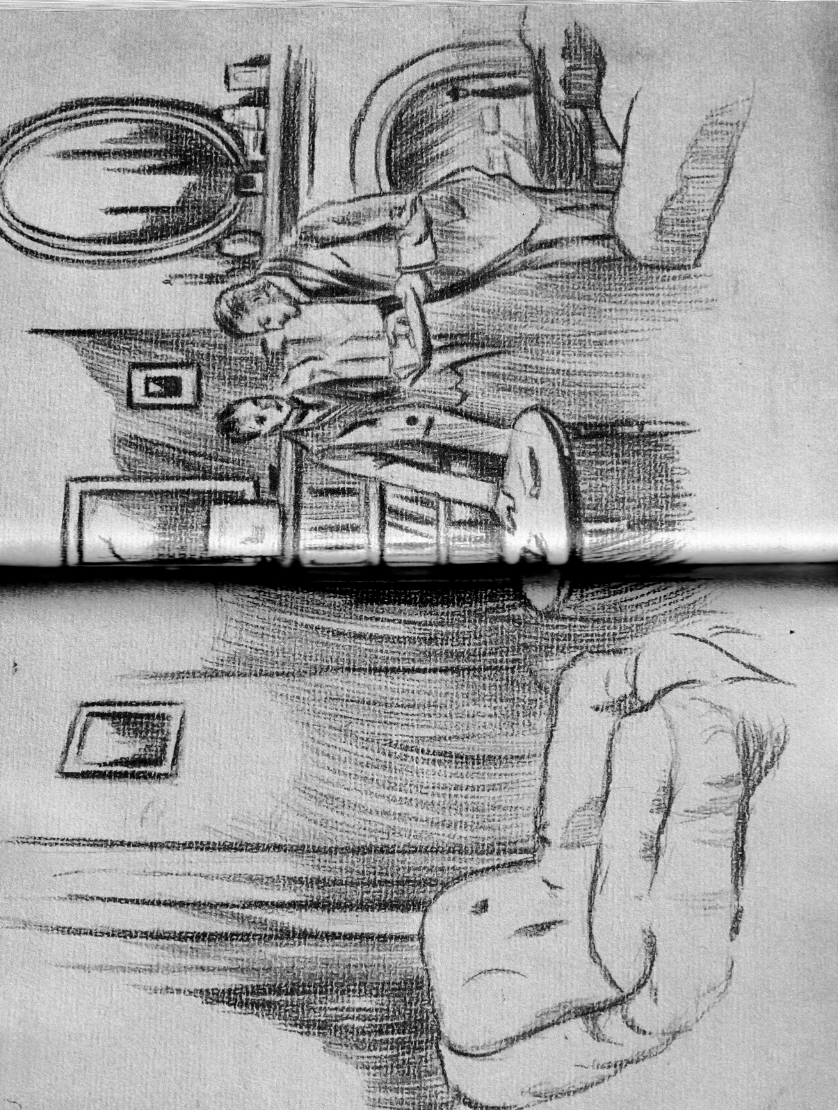

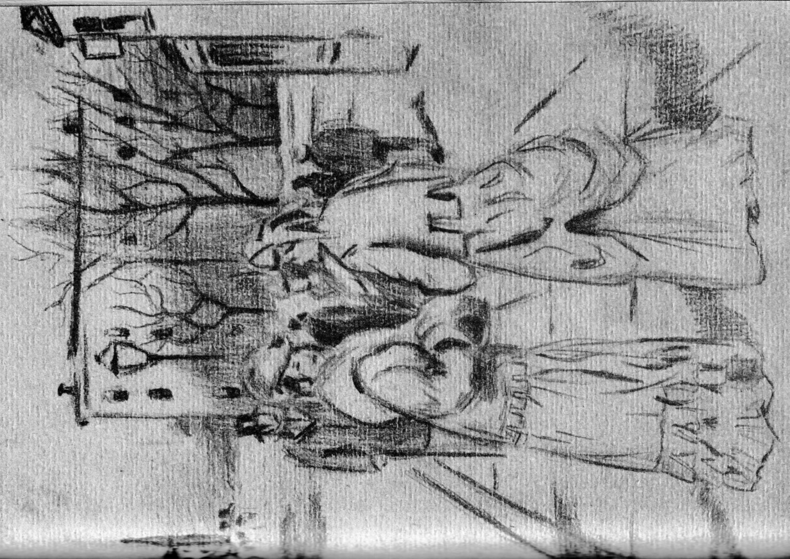

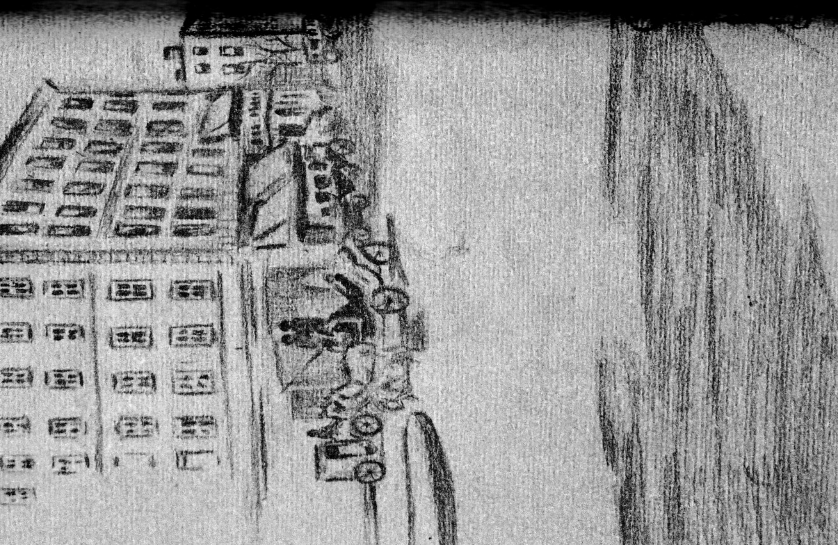

يوم رأس السنة
(السبعينيات)

1

«لقد كانت امرأة سيئة... على الدوام. اعتادا اللقاء في فندق الجادة الخامسة»، قالت أمي، كأنما مشهد الجرم أضاف إلى ذنب الثنائي اللذين فضحت ماضيهما. ازورّت نظارتها على ما تحوكه، وألقت الكلمات في حفيف يحرق بطانية طفل ثلجية البياض أشغلت بها أصابعها التي لا تعرف التعب. (من عادة أمي أن تنشغل بأفعال خيّرة وهي تتلفظ بكلمات قاسية).

«اعتادا اللقاء في فندق الجادة الخامسة»، يا للدقة التي صوّرتْ بها العبارةُ نيويوركي القديمة! بعد جيل، سيقول الناس في حديثهم عن علاقة كعلاقة ليزي هازلدين بهنري پرست: «التقيا في الفنادق»، واليوم مَن يبالي بتتبع إحداثيات كهذه، سوى بضع عوانس عتيقات الطراز ما زلن يقتتْن على الضغينة الدفينة من أيام شبابهن؟

لقد غدت الحياة شديد الإيجاز ولن يطيل الفضولُ المكوثَ في أي مرحلة من العلاقة العاطفية، كما تبرّم سلرتن جاكسن العجوز ردًا على أمي من خلال «طقمه الصيني» البديع: «فندق الجادة الخامسة؟ لو التقيا وسط الجادة الخامسة هذه الأيام، لما اهتم أحد».

ولكن يا لفيض الضوء الذي سلطته عبارة أمي الحاذقة على حادثة مغفلة من صباي!

فندق الجادة الخامسة... السيدة هازلدين وهنري پرست... حبس ارتباط هذه الأسماء كلامها المتدفق في مرحلة واحدة

من ذاكرتي، مثلما يتوقف الكشاف فجأة، في تطوافه، بلا حراك فيرى المرء كل صورة براقة وحادة على غير العادة مما يقع عليه.

حين كنت صبيًّا في الثانية عشرة، أعود إلى البيت لقضاء الإجازات. أمُّ أمي، جدتي پارت، ما زالت تسكن غرب الشارع الثالث والعشرين، حيث بنى جدي في شبابه الرائد، أيام كان الناس يرتجفون لأهوال العيش شمال ميدان الاتحاد، الأيام التي تتذكرها جدتي ووالداي بشك ظريف إذ مرت السنون وانتشرت البيوت الجديدة جهة المتنزه، متخطية شوارع الثلاثينات، متاخمة الخزان وتاركة إيانا فيما غدا، أيام دراستي، عزلة بين الأرستقراطية جنوبًا، والثراء شمالاً.

كانت العادات تتغير سريعًا في نيويورك ذاك الوقت، وتعود بي ذاكرتي الطفولية إلى الوقت الذي اعتادت فيه جدتي، بغطاء الرأس المزيّن وحرير المواريه ذي الحفيف، أن تقيم حفل استقبال في نهار رأس السنة، تساعدها بناتها المتزوجات الجميلات. أما سلرتن جاكسن العجوز، الذي يتظاهر بعدم ملاحظته عادة اجتماعية ما حالما يبدأ الناس بإهمالها، ادّعى أن الاحتفال في نهار رأس السنة لم يؤخذ يومًا على محمل الجد إلا عند أسر ذات أصول ألمانية، ولهذا لا تزال السيدة هنري ڤان لويدن تتشبث به، بأسلوب مقاوم شبه اعتذاري، لوقت طويل بعد أن سد أصدقاؤها أبوابهم في الأول من يناير، واختير اليوم من أجل الحفلات خارج البلدة التي كثيرًا ما اتخذت حجة للغياب إن مارس عتيقو الطراز شعائرهم.

لم تعد جدتي تقيم استقبالاً بطبيعة الحال. ولكن الخروج من البلدة في الشتاء أمر بالغ الغرابة في نظرها، خاصة وقد

أُدفئت بيوت نيويورك بترف بمدافئ الهواء الحار الجديدة، وأنيرت بثريات الغاز الفاخرة. كلا، شكرًا لك، لا شتاء ريفي لجيل مصاب ببرد الأصابع يلبس صنادل من نسيج صوفي مضلّع وثيابًا من ديباج كبيرة التقويرة، الجيل الذي نشأ في بيوت بلا تدفئة ولا إنارة، وحُمِل ليموت في إيطاليا حين تبين أنه لا يلائم جهاد العيش في نيويورك! لذا فإن جدتي، مثل معظم مجايليها، مكثت في البلدة في الأول من يناير، وخصصت اليوم لاجتماع العائلة، كأنما هو عيد ميلاد آخر، رغم أن غياب الهدايا وپودنغ البرقوق جعلاه في نظرنا -معشر الصغار- صورة شاحبة وباهتة للعيد.

ومع ذلك، يُحتفى بالنهار لأنه عذر وجيه للإفراط في الأكل والتواني والإطلالة من النافذة؛ عادة ألمانية لم تزل تمارس على نطاق واسع في أرقى أوساط نيويورك. في النهار الذي نتحدث عنه، لم نقف بعد أمام زجاج النوافذ إذ سيكون مسليًا جدًّا مراقبة الرجال المهذبين المضحكين الذين يغذون السير، لا تكاد ياقات معاطفهم تخفي ربطات أعناقهم المسائية، مسرعين في دخول بيوت ذات واجهات بلون الشوكولاته والخروج منها، في جولة زياراتهم المقدسة. كنا لم نزل نأكل بهدوء حول مائدة الغداء التي عيث فيها فسادًا عندما دخل خادم ليقول إن حريقًا نشب في فندق الجادة الخامسة.

أوه، بدأت المتعة عندئذ، ويا لها من متعة! إذ كان بيت جدتي يقابل الصرح الأنيق من الرخام الأبيض الذي ربطتُه بالسجاد الوثير، والرائحة القوية الومدة للفحم الحجري والقهوة، كلما أمرت «بولوجه» بحثًا عن مرسول، أو لشراء صحيفة المساء للكبار.

لم يعد الفندق أنيقًا، رغم كل رصانته. فلا أحد، وفقًا لذاكرتي، قد عرف أحدًا ارتاده، بل كان يتردد إليه «السياسيون» و«الغربيون»، وهاتان طبقتان من المواطنين كأن نبرة أمي قد سلبتهما حقهما في الاقتراع إذ صنفتهما مع الأميين والمجرمين.

ولكن لأجل هذا السبب بعينه انتظرنا مزيدًا من المتعة من الكارثة التي أتحدث عنها؛ ألم نراقب ذلك الصباح بمتعة لا نهائية وصول «باقات الزهور» الضخمة والكيك المزين ذي الطبقات من أجل حفل استقبال نهار رأس السنة في الجانب المقابل؟ كان حدثًا اجتماعيًا. كل السيدات اللاتي حللن «ضيفات» على الفندق أزمعن إقامة استقبالهن في الردهات العامة ذات الستائر الكثيفة المخرمة الفاخرة والثريات الفخمة، وأسرع رجال محترمون ذوو شعور طويلة ولحىً مستدقة وقفازات بيض منذ الساعة الثانية إلى مكان الاحتفال. والآن، والفضل يعود إلى الحريق في وقته المناسب، لم نرَ متعة مشاهدة الإطفائية في أثناء عملها (وكان في هذا متعة فائقة لصغار نيويورك) فحسب، بل شهدنا هروب السيدات وزوارهن، يتعثرون خارجين من الدخان في أبهى حللهم. لم يفسد هذه التوقعاتِ البهيجة خطرُ النار. فقد كان البيت ذا بنيان متين، وإطفائية نيويورك التي لا تقهر واقفة بالباب، في ألق النحاس الصقيل، والخوذ والجياد المتلألئة تبرق مثل فضيات المائدة، ونسيبي الطويل هبرت ويسن، الذي هرع لدى الإنذار الأول، عاد سريعًا ليقول إن الخطر انتهى، رغم امتلاء الطابقين الأدنيين بالدخان والماء حد أن النزلاء، في شيء من الاضطراب، نُقلوا إلى فنادق أخرى. أنى لفتى صغير إذن أن يرى في الحدث أي شيء سوى المرح اللامتناهي؟

حالما عادت الطمأنينة إلى كبارنا، عادوا إلى المزاج نفسه. إذ وقفوا خلفنا أمام النوافذ، ينظرون من فوق رؤوسنا، وسمعنا قهقهات الفرح ممزوجة بالتعليقات الساخرة.

«أوه، يا إلهي... انظروا، ها قد أتين! سيدات السنة الجديدة! تقويرات واسعة وأكمام قصيرة في وضح النهار، كلهن! أوه، والبدينة التي تضع وردات ورقية في شعرها... إنها ورقية، يا إلهي... من الكيكة المزينة ربما! أوه! أوه! أوه! أوه!»

اضطرت الخالة سابينا إلى أن تدس منديلها المخرم بين شفتيها، وقوامها الضخم المكتسي بالبوبلين يهتز مرحًا.

«حسنٌ يا عزيزتي»، ذكّرتها جدتي برفق، «لبسنا في شبابي فساتين واسعة التقويرة طوال النهار وطوال العام».

لم يصغ أحد. قريبتي كيت، التي تقلد خالتي سابينا دومًا، كانت تقرص ذراعي وهي تستشيط غضبًا. «انظر إلى جريهن! لا بد أن الردهات يكتنفها الدخان. أوه، لكن هذه أكثر إضحاكًا، تلك التي تضع ريشة طويلة في شعرها! جدتي، أزينتِ شعرك بريشات طويلة في النهار يا جدتي؟ أوه، لا تطلبي مني أن أصدق ذلك! وتلك التي تضع عقدًا من الألماس! والرجال كلهم يضعون ربطات عنق بيضاء! أوضع جدي ربطة عنق بيضاء في الساعة الثانية بعد الظهر؟» لم يكن لدى كيت شيء مقدس، وتظاهرت أنها لم ترَ تقطيبة جدتي استياءً.

«حسنٌ، إنهم يفعلون في پاريس، إلى يومنا هذا، في حفلات الزفاف؛ يلبسون ثياب المساء وربطات عنق بيضاء»، قال سلرتن جاكسن بثقة العارفين. «حين تزوجت ميني ترانسم من تشارلستن في مادلين بدوق دو...»

ولكن لم يصغ أحد لسلرتن جاكسن أيضًا. وقال واحد من الجمع فجأة: «ثمة سيدة تجري خارجة من الفندق ولا تلبس ثياب المساء!»

جعلت العبارة كل الأنظار تتجه إلى المرأة المعنيّة، التي وصلت العتبة، وأضاف أحدهم بصوت غريب: «عجبًا، إنها تشبه ليزي هازلدين...»

ران الصمت بعد ذلك. توقفت السيدة التي لا تلبس ثياب المساء. واقفة على عتبة الباب بخمار مرفوع، قبالة النافذة. كان ثوبها داكنًا بسيطًا- بسيطًا بما ينافي الذوق- وفي وقت أقل مما يحتاج إليه المرء للقول جذبت خمارها المطبّع وأرخته على وجهها. لكن عينيّ الصغيرتين كانتا حادتين تبصران البعيد، وفي ذلك الفاصل القصير الذي لا يكاد يدرك راودتني رؤيا. أكانت جميلة، أم كانت امرأة مميزة فحسب؟ شعرت بصدمة وجه بيضوي صغير أبيض، ذي حاجبين داكنين مقوسين بلمسة واحدة واثقة، وشفتين خلقتا للدفء، وارتفعتا في بسمة ذعر، وكأنما الأمر الغامض السري العميق الملحّ، الذي يفرّخ ويهمس خلف أفكار الصبي الواعية، قد استرق النظر إلي... ولما وصلني السهم أرخت خمارها.

«لكنها ليزي هازلدين!»، قالت الخالة سابينا لاهثة. كفت عن الضحك، وسقط منديلها المجعد على السجادة.

«ليزي، ليزي؟»، تردد الاسم في عقلي بألحان مختلفة من الاستنكار، والخوف والحقد شبه الدفين.

ليزي هازلدين؟ تجري خارجة من فندق الجادة الخامسة في نهار رأس السنة مع كل أولئك النسوة المتأنقات؟ ولكن ما الذي تفعله هناك بحق السماء؟ كلا، كلام فارغ! كان ذاك مستحيلًا...

«هذا هنري پرست معها»، واصلت الخالة سابينا في همس مسموع.

«معها؟»، همس أحدهم، و«أوه...»، قالت أمي مرتعدة.

لم يقل رجال العائلة شيئًا، لكني رأيت وجه هبرت ويسن القرمزي من الدهشة. هنري پرست! كان هبرت يثير ضجرنا معشر الصغار بحديثه عن هنري پرست! كان هذا الرجل الذي يود أن يكونه هبرت في عمر الثلاثين، فقد جسد هنري پرست في نظره كل فضائل الرجل. متزوج؟ كلا، شكرًا لك! لم يكن هذا الرجل مخلوقًا من أجل الرباط العائلي. ألمح هبرت، بابتسامة الطالب الجامعي، إلى ولعه الشديد بصحبة النساء، وهو الوسيم الثري المستقل، والرياضي البارع، والخيّال المتمكن والصياد الماهر، وقائد يخت من طراز رفيع (حصل على رخصة القيادة، وأبحر دومًا في قاربه، الذي تمتلئ قمرته بجوائز السباق)، مَن يقيم أمتع حفلات العشاء، التي لا يتجاوز عدد ضيوفها الستة، ويقدم سيجارًا أفخم من سيجار العجوز بيوفورت، وكان دمثًا جدًّا مع الشبان الأصغر عمرًا، منهم فتية من عمر هبرت، وجمع بإيجاز كل الخصال، العقلية والبدنية، التي تخلق في عينين كعيني هبرت تلك الشخصية الغامضة التي لا تُقاوم، ورجل العالم. «إنه الرجل»، خلص هبرت دومًا بوقار، «الذي سأتجه إليه مباشرة إن تورطت يومًا في شجار لا أريد للعائلة أن تعرف بأمره»، وسرت القشعريرة فينا لتصور وقوع هبرتنا العزيز في مأزق مستحيل كهذا.

شعرت بالأسف لأني فوتّ نظرة إلى هذا الشخص الأسطوري، لكن نظرتي أثارتها السيدة، وها قد اختفى الاثنان في الحشد.

واصل الجمع لدى نافذتنا صمته المحرج. بل بدا عليهم الذعر، غير أن الذي أدهشني أكثر أن الدهشة لم تعلُ وجه أحد منهم. لقد كان جليًا حتى لتفكيري الصبياني أن ما رأوه لتوهم لم يكن إلا تأكيدًا لشيء استعدوا له طويلًا. في نهاية المطاف أطلق أحد أخوالي صفيرًا، قطعته نظرة صارمة من زوجته، وغمغم «لتحل عليّ اللعنة»، وبدأ خال آخر حكاية لم يعبأ بها أحد عن حريق شهده في صباه، وقالت لي أمي بقسوة: «عليك أن تكون في البيت تحضّر دروسك، صبي كبير مثلك!»، تعليق بالغ الظلم لم يفعل شيئًا سوى إظهار مقدار استيائها.

«لست أصدق»، قالت جدتي، بصوت خفيض من التحذير والاحتجاج والالتماس. رأيت هبرت يختلس نظرة شاكرة إليها.

ولكن لم يصغ أحد آخر، ظلت كل الأعين مشدودة إلى النافذة. درجت «ركوبات» لڤري ستيبل، من مجموعة متنوعة ذات ستائر زرقاء قديمة، لتحمل المستجيرات من النار، إذ كان النهار قارس البرودة، تنيره إحدى شموس نيويورك القاسية كأن كل شعاع منها دلاة جليدية. في هذه العربات القديمة، حُشرت السيدات، اللاتي استعدن هدوءهن الآن، مع متاعهن الخفيف، أما زوارهن ذوو قفازات جلد الجدي («إنهم شديدو الشبه بالأرنب الأبيض!»، قالت كيت مغتبطة) فظهروا وعاودوا الظهور عند الباب، يترنحون خلفهن بشهامة تحت الحقائب وحقائب اليد الشبكية وأقفاص العصافير، والكلاب الأليفة وأكوام الزينة. لكن كل هذا —كما

أدركت أنا الصبي الصغير- لم يعره أحد من الواقفين لدى نافذة جدتي أدنى اهتمام. كانت أفكار الجميع قاطبة، بلهفة صامتة حذرة، تتبع حركات هذين الاثنين اللذين كان اختلافهما عن البقية جليًا جدًا. لم يشغل الأمر برمته -اكتشافه، والتعليق عليه، وتتبعه الصامت بالنظر- وقد قيل كله سوى دقيقة، لا أكثر ربما، وقبل انقضاء الستين ثانية، فُقِد أثر السيدة هازلدين وهنري پرست في الحشود، وفي أثناء إخلاء الفندق في الشارع، ذهبا في دربهما المشترك أو افترقا. لكن الصمت ظل مخيمًا قرب نافذة جدتي.

«حسنٌ، ها قد انتهى الأمر، هؤلاء رجال الإطفاء يعودون ثانية»، قال أحد في النهاية.

انتبهنا كلنا -معشر الصغار- إلى ذلك، لكني أحسست أن البالغين قد أولوا انتباهًا فاترًا للمنظر البديع، الذي كان احتفال نيويورك الوحيد، صف السلالم القرمزية على العربات القرمزية، ووثْب رجال الإطفاء معتمري الخوذات على المركبة، والتقدم المنظم لكل زوج من المطايا السوداء عريضة الصدور، إذ قعقعت عربات الإطفاء الواحدة تلو الأخرى.

انسحبنا بصمت، أو بأسف، إلى مصطلى حجرة الاستقبال، بعد فاصل من الكلمات الواهنة أحادية المقاطع. أمي، وقد نهضت الأولى، دست نسيجها في حقيبتها، واستدارت إليّ بقسوة جديدة قالت: «هذا الجري خلف عربات الإطفاء هو ما يجعلك شديد النعاس فلا تحضّر دروسك...»، تعليق بعيد عن الإشارة التي أدركتها مرة أخرى، دون أن أفهم، لمقدار الاضطراب الذي

يعتمل في ذهنها لرؤية السيدة هازلدين وهنري پرست يخرجان معًا من فندق الجادة الخامسة.

لم تسنح لي الفرصة إلا بعد سنوات كثيرة لأربط هذا الانطباع الشريد بما سبقه وبما أعقبه.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

2

وقفت السيدة هازلدين عند ناصية الجادة الخامسة وميدان ماديسن. ما زال الجمع الذي جذبه الحريق يطوقها، فكان التوقف والتقاط النفس آمنًا.

عرفت أن مُرافقها قد ذهب في الاتجاه الآخر. كانت تحركاتهما، في لحظات كهذه، شديدة التنظيم تُنفّذ بسرعة بالغة بقدر سرعة إطفائية نيويورك، وبعد نزولهما العاجل إلى البهو، واكتشافهما أن الشرطة قد سدت مخرجهما المعتاد، والعبارة المتحفزة «أأنت بخير؟»، التي ردت عليها بهزة رأس لا تُلحظ، كانت واثقة بأنه انعطف الشارع الثالث والعشرين نحو الجادة السادسة.

«غصت نوافذ آل پارِت بالناس»، كانت أول فكرة خطرت لها.

مكثت عندها لحظة، ثم فكرت: «أجل، ولكن في كل ذلك الحشد والإثارة ما كان لأحد أن يفكر فيَّ!»

وضعت يدها عفويًا على خمارها، كأنما تذكرت أن ملامحها كانت مكشوفة عندما خرجت، ولكنها لم تستطع أن تتذكر إن كانت قد غطت وجهها في الوقت المناسب أم لا.

«يا لي من حمقاء! لا يعقل أنه كان مرفوعًا عن وجهي إلا لثوانٍ...»، وبعد هذا مباشرة استحوذ عليها احتمال مقلق آخر. «إني واثقة بأنني رأيت رأس سلرتن جاكسن في إحدى النوافذ، خلف سابينا ويسن. إذ ليس لأحد ذلك الشعر الرمادي المفضض المميز سواه». فارتعشت خوفًا، إذ يعرف الجميع في نيويورك أن

سلرتن جاكسن يرى كل شيء، ويمكنه أن يجمع قطعًا مفككة من الحقيقة ببراعة مصلح الخزف الماهر.

في أثناء ذلك، وفي أثناء نظرها عبر خمارها النظرة المحيطية التي تنظرها إلى ما حولها في تلك الناصية بعينها، أخذت تسير نحو برودوَي. كان سيرها سريعًا، ولكن ليس سريعًا جدًا، بل بهدوء واطمئنان، بهيئة امرأة تعلم أن لها قوامًا رشيقًا، وتتوقع أن تُعرف به ولا تخشى ذلك. ولكن تحت هذا المظهر الخارجي من الهدوء غمرتها حبات العرق البارد.

كانت برودوي، كعادتها في تلك الساعة وفي يوم الإجازة، شبه مهجورة، وما زال العوام المتنزهون يروحون ويجيئون ببطء في الجادة الخامسة.

«لحسن الحظ أنْ تجمهر الناس لدى خروجنا من الفندق فلم يتسنَّ لأحد أن يلحظني»، همست ثانية، وقد اطمأنت أن الشارع الطويل لها وحدها. كانت رباطة الجأش وحضور الذهن ضروريين لامرأة في مثل وضعها، حتى أصبحتا عادة مكتسبة لديها، وفي غضون دقائق أخذت دقات قلبها الكثيفة المضطربة تهدأ وتنتظم. كأنما تود أن تمتحن انتظامها، وقفت أمام واجهة بائع زهور، ونظرت بتقدير إلى مزهريات الورود والليلك المتكلفة، وعروق زنبق الوادي والبنفسج المتراصة، وأصص البراعم الأولى من الأزاليا. فتحت باب المتجر أخيرًا، وبعد أن عاينت ورود الجنرال جاكومينو والمارشال نيلز، اختارت بعناية اثنتين جميلتين من الورد الزهري المفضض، وانتظرت البائع ليلفها لها بالقطن المندوف، ودست ساقي الوردتين في موفتها لمزيد من الحماية.

«إن الأمر شديد البساطة»، قالت لنفسها وهي تتابع سيرها. «سأخبره بأني كنت قادمة إلى الجادة الخامسة من منزل قريبتي سيسيليا فسمعت عربات الإطفاء تنعطف إلى الشارع الثالث والعشرين، فجريت خلفها. الأمر الذي سيفعله هو... مرة...»، أضافت متنهدة.

انعطفت الناصية في الشارع الواحد والثلاثين بخطوات أسرع. كان البيت الذي تقترب منه واطئًا صغيرًا، لكن بهشية عيد الميلاد تتلألأ بين الستائر المزركشة، ومنحته العتبات المدعوكة جيدًا، والجرس وأكرة الباب اللامعين مظهرًا مضيافًا. وقد أضاء من العلية حتى القبو مثل دار لزوجين سعيدين.

لما وصلت ليزي هازلدين إلى الباب طرأ عليها تغير غريب. أدركته في الحال؛ إذ كثيرًا ما قالت لنفسها، لما برز بيتها الصغير أمامها، «أشعر بأنني أصغر ما إن أنعطف الناصية». وكان ذلك صدقًا اليوم أيضًا. رغم ضيقها كانت مدركة أن الخطوط بين حاجبيها قد تلاشت من تلقاء نفسها، وأن شيئًا من الخفّة الداخلية قد حل محل الاصطخاب الثقيل في صدرها. تجلت الخفة في حركاتها، التي غدت سريعة كحركة الفتاة حين ارتقت العتبات. قرعت الجرس مرتين- كانت تلك علامتها- واستدارت ورسمت ابتسامة لخادمتها المسنة.

«هل السيد هازلدين في المكتبة يا سوزان؟ أرجو أنك أبقيت النار مشتعلة من أجله».

«أوه، أجل يا سيدتي. لكن السيد هازلدين ليس هنا»، قالت سوزان رادة الابتسامة باحترام.

«ليس هنا؟ في هذا البرد، في هذا الطقس؟»

«هذا ما قلته له يا سيدتي. لكنه اكتفى بالضحك...»

«اكتفى بالضحك؟ ماذا تقصدين يا سوزان؟»، أحست ليزي هازلدين بأنها شحبت. فوضعت يدها على طاولة البهو بسرعة.

«حسنٌ يا سيدتي، حالما سمع صوت عربات الإطفاء ركض كالصبيان. يبدو أن فندق الجادة الخامسة قد احترق، فذهب إلى هناك».

ابيضت شفتا السيدة هازلدين، وشعرت بالرعشة تعود إلى قلبها. ولكنها بعد لحظة تكلمت بنبرة تبرم عادي رائق المزاج.

«يا للجنون! منذ متى ذهب، أتذكرين؟»، وعلى الفور أحست بحماقة السؤال، فأردفت: «قال الطبيب إنه لا يسعه الخروج لأكثر من ربع ساعة، وفي أشد أوقات النهار إشراقًا فحسب».

«أعلم ذلك يا سيدتي، وهذا ما ذكّرته به. لكنه غادر منذ ساعة، كما أظن».

استولى على السيدة هازلدين شعور بالتعب العميق، كأنما سارت أميالًا مواجِهةً عاصفة ثلجية، فصار تنفسها عسيرًا.

«كيف سمحت له بالذهاب؟»، أعولت، ثم لما ابتسمت الخادمة باحترام مرة أخرى، أضافت: «أوه، أعلم. لا يمكن للمرء إيقافه أحيانًا. إنه يضيق ذرعًا بحبسه جراء هذا الزكام الطويل».

«هذا ما أشعر به يا سيدتي».

تبادلت السيدة والخادمة نظرات التعاطف، وواتى سوزان شيء من الجرأة لتقول: «لعل الخروج سيفيده»، بميل طبقتها إلى تشجيع المرضى المحببين على العصيان.

فغدت هيئة السيدة هازلدين صارمة. «سوزان! لقد حذرتك دومًا من الحديث إليه هكذا...»

احمر وجه سوزان، وتصنعت الألم. «كيف لك أن تفكري في هذا يا سيدتي؟ أنا لم أقل شيئًا لأي أحد، كما يشهد كل من في البيت».

أتت سيدتها بحركة متبرمة. «أوه، حسنٌ، عليّ القول إنه لن يطيل الغياب، فقد انطفأ الحريق».

«آه، لقد علمت بأمره أيضًا يا سيدتي؟»

«بأمر الحريق؟ بلا ريب. بل رأيته أيضًا...»، ابتسمت السيدة هازلدين، «كنت أسير إلى البيت من ميدان واشنطن –عائدة من بيت الآنسة سيسيليا ونتر– وعند ناصية الشارع الثالث والعشرين رأيت حشدًا كبيرًا، وسحبًا من الدخان... غريب جدًّا أني لم أصادف السيد هازلدين»، نظرت إلى الخادمة نظرة رائقة، «ولكن أنى لي في ذلك الحشد والهرج...»

استدارت لما صعدت نصف الدرج وقالت: «أشعلي نارًا دافئة في المكتبة من فضلك، وهاتي لي الشاي في الأعلى. إن حجرة الاستقبال شديدة البرودة».

كانت المكتبة في البسطة العليا. دخلت إليها، وسحبت الوردتين من موفتها، وفكتهما برفق، ووضعتهما في كأس رفيعة على طاولة زوجها. توقفت عند الباب لتبتسم للّمسة الصيفية في غرفة شتوية تضيئها النار، غير أن تقطيبة القلق عاودت الظهور. وقفت تصغي باهتمام إلى صوت المزلاج، ثم لما لم تسمع شيئًا تقدمت نحو غرفتها.

كانت غرفة وردية، ستائرها من قماش الشيت الإنجليزي الجديد، الذي غطى الأريكة، وأغطية وسائد السرير بنقوش

الـورد. كانـت السـجادة حمـراء بلـون الكـرز، وطاولـة الزينـة مزوقـة بالكشـاكش والحلقـات مثـل ثـوب حفلـة راقصـة. آه، كـم فتقـت هـي وسـوزان وخاطتـا ودقتـا وجمعتـا قصاصـات قديمـة مـن الدانتيـلا والشـرائط والموصليـن، بغيـة صنـع ذلـك الصـرح! لأسـابيع تلـت تجديدهـا الغرفـة لـم يدخـل زوجهـا مـرة دون أن يقـول: «لسـت أدري كيـف اسـتطعت اسـتخلاص كل هـذا الجمـال بالصـك الأخيـر مـن زوجـة أبيـك».

لاحظـت ليـزي هازلديـن علـى طاولـة الزينـة صندوقًـا طويـلًا مـن متجـر الزهـور، فتـح أحـد طرفيـه ليفسـح المـكان للسـيقان الطويلـة لباقـة مـن الـورود. نزعـت الخيـط، وأخرجـت مـن الصنـدوق ظرفًـا ألقـت بـه إلـى النـار قبـل أن تلقـي نظـرة إلـى محتـواه. ثـم نحّـت الـورود جانبًـا، وبعـد أن أعـادت ترتيـب شـعرها الداكـن أمـام المـرآة، لبسـت بعنايـة ثوبًـا فضفاضًـا مـن القطيفـة والدانتيـلا كان مسـجى فـي انتظارهـا علـى الأريكـة، إلـى جانـب خفيهـا ذوي الكعبيـن العالييـن وجوربيهـا مـن الحريـر المخـرّم.

كانـت مـن أوائـل النسـاء فـي نيويـورك اللاتـي يشـربن الشـاي عنـد الخامسـة عصـرًا كل يـوم، وتسـتبدلن ثـوب الشـاي بثـوب المشـي.

عـادت إلـى المكتبـة، إذ أخـذت النـار ترسـل لهبًـا متقـدًا عبـر الشـفق، وأومـض علـى تجليـد كتـب هـازلديـن الكثيـرة، فابتسـمت شـاردة الذهـن للترحيـب الـذي لقيتـه. قعقـع المـزلاج، وسُـمع خطـو زوجهـا، وصـوت سـعاله فـي البهـو فـي الأسـفل.

«يا للجنون، يا للجنون!»، همست.

ببـطء -يـا لبطئـه الشـديد لشـاب فـي عمـره!- ارتقـى الـدرج، ودخـل المكتبـة وهـو يواصـل السـعال. فركضـت إليـه وعانقتـه.

«تشـارلي! كيـف فعلـت ذلـك؟ فـي هـذا الطقس؟ لقـد كاد الظـلام يخيـم!»

أشـرق وجهـه النحيـل الطويـل بابتسـامة مسـتنكرة. «أحسـب أن سـوزان فضحـت أمـري، إيـه؟ لا تغضبـي. لقـد فاتـك عـرض مهـم! شـبت النـار فـي فنـدق الجـادة الخامسـة».

«أجـل، أعلـم»، صمتـت، صمتًـا ملحوظًـا. «لكنـه لـم يفتنـي، فقـد هـرعـت إلـى ميـدان ماديسـن لأراه بنفسـي».

«حقًـا؟ كنـت هنـاك أيضًـا؟ يـا للمـرح!»، كأنمـا الفكـرة غمرتـه بفـرح طفولي.

«طبعًا كنت كذلك! ففي طريقي من بيت قريبتي سيسيليا...»

«آه، صحيـح. نسـيت أنـك كنـت ذاهبـة إلـى هنـاك. ولكـن الغريـب أننـا لـم نلتـق!»

«لـو التقينـا لسـحبتك إلـى البيـت منـذ وقـت طويـل. لقـد جئـت منـذ نصـف سـاعة علـى الأقـل، وكان الحريـق قـد انطفـأ عندمـا وصلـت

إلـى هنـاك. يـا لـك مـن طفـل إذ بقيـت فـي الخـارج كل هـذا الوقـت، تنظـر إلـى الدخـان وعربـة الإطفـاء!»

فابتسـم، ولـم يـزل ممسـكًا بهـا، ومـرر يـده المهزولـة برفـق وحـزن علـى رأسـها. «أوه، لا تقلقـي. لقـد كنـت فـي الداخـل، محتميًـا آمنًـا، وأشـرب پنـش السـيدة پارت العجـوز. رأتنـي السـيدة العجـوز مـن نافذتهـا، وأرسـلت إلـيّ أحـد أولاد ويسـن عبـر الشـارع لإحضـاري. كانـوا قـد فرغـوا لتوهـم مـن غدائهـم العائلـي. وكان سـلرتن جاكسـن هنـاك أيضًـا، وهـو الـذي أوصلنـي. وهـا أنـت تريـن...»

حررهـا وتقـدم نحـو النـار ووقـف بـلا حـراك، محدقًـا أمامـه دون أن يـرى، ودارت الأفـكار فـي عقلهـا مثـل ناعـورة.

«سلرتن جاكسن...»، رددت، دون أن تدرك ما قالت.

«أجـل، كان مصابًـا بالنقـرس ثانيـة- لحسـن حظـي!- وجـاءت عربـة أختـه إلـى منـزل آل پارِت لتقلـه».

تمالكت نفسها، «أنت تسعل اليوم أكثر من البارحة»، اتهمته.

«أوه، طيـب. كان الهـواء حـادًا قليـلًا. لكنـي سـأكون علـى مـا يـرام عمـا قليـل... أوه، مـا أجمـل هاتيـن الوردتيـن!» فصمـت معجبًـا أمـام طاولـة الكتابـة.

أشـرق وجههـا ببهجـة جليـة، رغـم أن كل مـا ذكـره مـن أسـماء- «آل پارِت، وآل ويسـن، وسـلرتن جاكسـن» - جلجلـت فـي عقلهـا مثـل ناقـوس المـوت.

«إنهما جميلتان، أليس كذلك؟»، قالت مغتبطة.

«بـل أكثـر مـن جميلتيـن فـي عينـي. عليـك أن تأخذيهمـا إلـى حجـرة الاسـتقبال».

«كلا، سنتناول الشاي هنا في الأعلى».

«هذا لطيف، هذا يعني أننا لن نستقبل أحدًا كما أرجو».

فهزت رأسها باسمة.

«جيد! ولكن الوردتين، كلا، يجب ألا تذبلا في هذا المكان القاحل. أتضعينهما على ثوبك هذا المساء؟»

ففزعت فزعًا محسوسًا، وعادت ببطء نحو المصطلى.

«هذا المساء؟ ... أوه، لن أذهب إلى منزل السيدة ستروثر»، قالت متذكرة.

«ستذهبين يا غاليتي، أريدك أن تفعلي!»

«ولكن ما الذي ستفعله وحدك طيلة المساء؟ مع هذا السعال لن تخلد للنوم إلا متأخرًا».

«حسنٌ، إن لم أفعل، فإن عندي كثيرًا من الكتب الجديدة التي ستبقيني مشغولاً».

«أوه، كتبك!»، وأومأت إيماءة صغيرة، بين الإغاظة والتبرم، ناحية المجلدات الجديدة المكدسة بجانب مصباح الطاولة. كانت دعابة قديمة بينهما إذ لم تتمكن من التصديق يومًا أن أحدًا «يهتم لأمر القراءة» حقًا. وطوال حياتها مع زوجها، ظل شغفه هذا في عينها لغزًا مثلما حدث في اليوم الذي فاجأته فيه، صامتًا مستغرقًا في ما يسميه الناس الذين اعتادت العيش معهم «كتاب عميق». كان أول لقاء لها مع قارئ بالفطرة، أو على الأقل، القلة الذين عرفتهم، مثل زوجة أبيها مغنية الأوبرا المتقاعدة، مفترسين محمومين لتداول روايات المكتبة، لم يسبق لها قط العيش في بيت فيه كتب. أخذت تفخر شيئًا فشيئًا بقراءات هازلدين، كأنها

إنجاز نادر، فقد أدركت أنها تعكس مزاياه، بل أدركت أنها تضيف إلى سحر حديثه، السحر الذي أحست به دومًا وعجزت عن تحديده. ومع ذلك، في صميم قلبها لم تر في الكتب إلا ذريعة، وكانت واثقة أنها ليست إلا عونًا على الصبر، مثل لعبة التقاط العيدان أو لعبة الصبر، يعيبها حاجتها إلى مجهود عقلي أكبر.

«ألن تكون بالغ التعب لتقضي الليل في القراءة؟»، سألته حزينة.

«بالغ التعب؟ عجبًا، يا حلوتي، إن القراءة أعظم راحة في العالم! أريدك أن تذهبي إلى بيت السيدة ستروثر يا عزيزتي، أود رؤيتك مرة أخرى في ذلك الفستان المخملي الأسود»، أردف بابتسامته المداعبة.

أحضرت الخادمة الصينية، وأشغلت السيدة هازلدين نفسها بوعاء الشاي. تمطط زوجها في الكرسي الوثير ذي الذراعين الذي كان مقعده المعتاد. صالب ذراعيه خلف عنقه، وأسند رأسه بسأم عليهما، فلما نظرت إليه عبر المصطلى، رأت العضلات النافرة في عنقه، والتجاعيد السابقة لأوانها حول الأذنين والذقن. كان الجزء السفلي من وجهه مشوهًا جدًّا، عدا العينين، تلكما العينين الساخرتين الرماديتين، والجبين الأبيض فوقهما، ذكّرتها بما كان عليه قبل سبع سنوات. سبع سنوات فحسب!

أحست بدفق من الدموع، كلا، ثمة أوقات كان فيها القدر شديد القسوة، والمستقبل مروّعًا تخيّله، والماضي... الماضي، أوه، أسوأ بكثير! وجلس هناك، يسعل ويفكر في ما يعلمه الرب، خلف ذينك الجفنين الناعسين. في أوقات يغدو قصيًا على نحو

بالغ الغموض فأحست بالوحدة أكثر مما تكونها حين لا يكون في الغرفة.

«تشارلي!»

فعدل نفسه. «نعم؟»

«إليك شايك».

أخذه منها صامتًا، وأخذت تتساءل متوترة لماذا لا يتحدث. أكان ذلك لأنه يخشى أن يسعل ثانية، أم يخشى أن يثير قلقها وتؤنبه؟ أو أكان ذلك لأنه يفكر؛ يفكر في أمور سمعها في بيت السيدة العجوز پارت، أو في طريق العودة من سلرتن جاكسن... تلميحات قالوها... أو غمزٍ... لم تعرف أيهما... أو شيء رآه ربما، من نافذة السيدة پارت العجوز؟ نظرت إلى جبينه الأبيض، بالغ النعومة والحصانة في ضوء المصباح، وقالت في نفسها: «أوه يا إلهي، إنها مثل باب مغلق. سأحطم رأسي عليها يومًا ما!»

إذ، رغم ذلك، لم يكن محالًا أنه رآها حقًا من نافذة السيدة پارت، أو حتى من الحشد حول باب الفندق. فكل ما عرفته أنه كان شديد القرب، في ذلك الجمع، فيمد يده ليلمسها. ولعله تراجع، فاقد الحس مبهوتًا لا يصدق ما رأته عيناه... لم تعرف. لم تقرر بعد كيف سيبدو، وماذا سيفعل أو يقول إن رأى أو سمع شيئًا...

كلا! كان ذاك أسوأ ما في الأمر. لقد عاشا معًا قرابة تسع سنين -ويا لقربهما!- ولم تعرف عنه شيئًا، أو لحظت شيئًا يمكّنها أن تتنبأ، في هذه الحالة بعينها، بما سيكون عليه مزاجه وموقفه. كانت واثقة بأنه معروف في مهنته بحذقه وتبصره؛ غير أنه في

الأمـور الشـخصية بـدا، لعقلهـا اليقـظ، شـارد الذهـن بـاردًا بـرودًا غريبًـا. ولعل هـذا طبعـه فـي ادخـار قوّتـه لأمـور أهـم فـي نظـره. ثمـة أوقـات كانـت فيهـا أكيـدة أنـه متـروٍّ وضابـط النفس بمـا يكفـي ليشـعر بشـيء ويفعل شيئًا آخـر، بل لعلـه فكـر مسـبقًا فـي سـياق مـا، مثلمـا، حيـن ظهـرت عليـه الأعـراض الأولـى للمـرض، كتـب وصيتـه بهـدوء، ورسـم لهـا مسـتقبلها، البيـت والخـدم... كلا، لـم تسـتطع القـول؛ فقـد حـام حولهـا دومًـا الوعيـد الرفيـع البـراق لخطـر لـم تسـتطع معرفـة كنهـه ولا حصـره. مثـل صاعقـة الانتقـام التـي لمعـت فـي الظـلام فـي القصيـدة المروعـة التـي قرأهـا لهـا جهـرًا (يـا لـه مـن انتقـاء!) فـي عصريـة اسـترخاء فـي رحلـة زفافهمـا، وهمـا يتمـددان تحـت الصنوبـر الحجـري الإيطالـي.

دخلـت الخادمـة لتسـدل السـتائر وتشـعل المصابيـح. واضطرمـت النـار، وانسـابت رائحـة الـورد فـي الفضـاء الدافـئ، وتكـت السـاعة دقائقهـا، ودقـت معلنـة نصـف السـاعة بهـدوء، فـي حيـن واصلـت السـيدة هازلديـن سـؤالها لنفسـها، كمـا تفعـل كثيـرًا مـن قبـل: «ومـا الأمـر الـذي سـيكون مـن عادتـي قولـه الآن؟»

وهربـت الكلمـات منهـا علـى حيـن غـرة، ولـم تعـرف كيـف: «عجبـت لأنـك لـم ترنـي خارجـة مـن الفنـدق؛ إذ إننـي شـققت طريقـي داخلـة إليه».

لـم يجـب زوجهـا. فوثـب قلبهـا مختلجًـا، فرفعـت نظرهـا ووجدتـه نائمًـا. كـم بـدا وجهـه رائقًـا؛ أصغـر بسـنوات ممـا هـو عليـه فـي يقظتـه! غمرهـا عظيـم الارتيـاح بإشـراقة دافئـة، علـى النقيـض مـن العـرق المثلـج الـذي أرسـلها إلـى البيـت مرتعشـة بعـد الحريـق. فإن

كان بوسعه أن يغط في النوم، يغط في نوم هادئ كهذا -متعبًا من نزهته الطائشة، وتعرضه للبرد- فهذا يعني، بعيدًا عن كل الشكوك، وبعيدًا عن كل المخاوف المتصورة، أنه لم يعلم شيئًا، ولم ير شيئًا، ولم يساوره الشك في شيء، وأنها كانت بأمان، آمنة، آمنة!

جعلتها حدة ردة الفعل تتوق إلى النهوض والطواف في أرجاء الغرفة. رأت لوحة مائلة أرادت تعديلها، وودت أن تمنح الوردتين ميلًا جديدًا في كأسهما. لكنه جلس هناك، نائمًا بهدوء، وجعلتها عادتها القديمة في الاحتراس تحترم راحته، وأن تحرسها بصبر كأنه نوم طفل مريض.

زفرت زفرة الرضا. بوسعها التفكير الآن بتأثير خروجه على صحته، وأدركت أن هذا الوسن المفاجئ، وإن كان علامة على إرهاق مفرط، فهو أيضًا الدواء لذاك الإرهاق. ظلت جالسة خلف صينية الشاي، طاوية يديها، وعيناها على وجهه، فتسلل سلام المشهد إلى روحها، وعانقها بجناحين حاضنين.

4

في منزل السيدة ستروثر، عند الحادية عشرة من تلك الأمسية، كانت حجرة الاستقبال الساطعة الإضاءة لوقت طويل مكتظة بالناس.

توقفت ليزي هازلدين على العتبة ونظرت حولها. كانت عادة التوقف لتمالك نفسها، وإرسال نظرة محيطية على أي جمع من الناس، أي حجرة استقبال، أي قاعة موسيقى أو مسرح تدخلها، قد أصبحت عفوية فتفاجأ إن أشار أحد إلى ملامح الشرود والحركات اللامبالية لشابات من معارفها، ينظرن حولهن أيضًا، هذا صحيح، ولكن بالنظرة الغامضة للغفلة التي يتحلى بها الشباب، والجمال الذي لا يعبأ إلا بنفسه.

أصبحت ليزي هازلدين ترى النساء من عمرها طفلات في فن الحياة. فقد جعلها طبع بدائي من الدفاع عن الذات، ربته التجربة، أكثر يقظة واحتراسًا من الفاتنات اللاتي انتقلن من الحضانة إلى الزواج كأنما حملن من مهد تحفه الزهور إلى مهد آخر. «يُهززن ليخلدن إلى النوم، هذا هو حالهن دومًا»، قالت في نفسها أحيانًا، مصغية إلى الأحاديث التافهة في أثناء المدة الطويلة التي تعقب العشاء في حجرات استقبال دافئة، أما أزواجهن، في غرف التدخين في الأسفل، يتبادلون الأفكار التي تتكئ على تجارب مباشرة، إن لم تكن أخاذة.

ولكن، كما قالت السيدات المسنات، آثرت ليزي هازلدين دومًا صحبة الرجال.

لم ترَ الرجل الذي تبحث عنه، فتنفست الصعداء. «ليته يكون عاقلًا ويظل بعيدًا!»

فضلت البقاء بعيدة هي أيضًا، لكن قدومها هو رغبة زوجها. «تعلمين أنك تستمتعين دومًا في بيت السيدة ستروثر، والجميع يستمتعون. إن العجوز تحسن إدارة أكثر البيوت إمتاعًا في نيويورك. من الذي سيغني الليلة؟ ... إن لم تذهبي، فسأعرف أن ذلك لأني سعلت مرتين أو ثلاثًا أكثر من المعتاد، وأنك تقلقين علي. سيحتاج قتلي إلى شيء أكبر من حريق فندق الجادة الخامسة يا فتاتي الحبيبة... إن قلبي هادئ على غير العادة... البسي ثوبك المخملي الأسود، أتفعلين؟ وضَعي هاتين الوردتين...»

فذهبت. وها هي ذي، في ثوبها المخملي الأسود، تحت أنوار ثريات السيدة ستروثر، وسط كل الشباب وحسن الهندام والأناقة في نيويورك، إذ كما قال هازلدين، كان بيت السيدة ستروثر أكثر إمتاعًا من أي بيت آخر، وكلما فتحت أبوابه توافد العالم إليه.

لما وصلت السيدة هازلدين حجرة الاستقبال الداخلية، كانت أنغام صوت جهوري عالٍ تنهمر على الصمت المنصت. رأت رقبة كامپانيني ذات التقويرة الواسعة تغوص في الصمت فوق البيانو، وأعقبه تصفيق الكثير من القفازات الضيقة بحركة واحدة، والانخراط المعتاد في الكلام الذي يتعذر كبحه.

في انفضاض المجموعات لمحت الشعر الفضي لسلرتن جاكسن. والتقت أعينهما من فوق الأكتاف العارية، فانحنى انحناءة أنيقة، وتخيلت ابتسامة جفاء ترفع شاربه. «إنه لا ينحني لي خفيضًا هكذا في العادة»، قالت في نفسها قلقة.

ولكنها حين تقدمت في الغرفة استعادت رباطة جأشها. إذ شعرت بالقوة بين كل هؤلاء النساء الجميلات الغبيات، في معرفتها كل شيء أكثر مما يعرفن، من طريقة تصفيف شعرها إلى فن الاحتفاظ بالسر! أحست برعشة الزهو في زاويتي كتفيها البيضاوين فوق القطيفة السوداء، في الخصلة الوحيدة الفالتة من عقصتها الثخينة، وميل السهم الذهبي المطعم بالألماس الذي أقحمته لتحبسها. وقد فعلت كل هذا دون خادمة، إذ ليس عندها أحد أذكى من سوزان ليساعدها! آه، لقد أجادت تدبير شؤونها بوصفها امرأة...

السيدة ستروثر، المريشة والبدينة، والنجوم الألماسية ترصع شعرها المستعار الأسود مثل مخدة الدبابيس، شقت طريقها بعزم نحو الغرفة الخارجية. كان أناس أكثر يدخلونها، واستقبلتهم بمهارتها المعتادة الجلفة ووزعتهم وقدمتهم. اتسعت ابتسامتها فجأة، فقد كان جليًا أنها تحيي صديقًا قديمًا. تفرق الجمع حولها، ورأت السيدة هازلدين أنها، في أسلوبها الدمث الشارد، وفي أثناء تطواف عيني مضيفتها المتسائلتين في الغرف، كانت تسرّ إلى رجل طويل أمسكت يده. تبادلا الابتسامات، ثم التفتت أنظار السيدة ستروثر إلى الغرفة الداخلية، كأنما تقول ابتسامتها: «ستجدها هناك».

هز الرجل الطويل رأسه. ونظر حوله بهدوء، وأخذ يتقدم وسط الجمع، متحدثًا إلى الجميع، كأنما لا يأبه لسوى تحية الشخص التالي في طريقه، غير أنه يسير بهدوء وثبات على ذلك الدرب المفضي إلى الغرفة الداخلية.

وجدت السيدة هازلدين مقعدًا قرب البيانو. جلس بجانبها شاب حسن الطلعة، أسهب في إخبارها بما سيلبسه في حفلة بيوفورت التنكرية. أصغت واستحسنت واقترحت، لكن نظرها لم يفارق قط قوام الرجل الطويل المقترب.

وسيم؟ أجل، قالت لنفسها، عليها الاعتراف بأنه وسيم. عريض جدًا بعض الشيء ومتأنق، ربما، رغم أن مظهره ينكر ذلك بجلاء، فيخايل للمرء، بعد مزيد من التفكير، أن رجلًا في طوله عليه أن يحمل عصا للتوازن. أجل، جعلته ثقته، عادة، يظهر للناس مثلما اختار أن يظهر تمامًا، أي رجل تجاوز الأربعين، لكنه يعيش سنيّه بلامبالاة، رجل مفتول العضلات رشيق، لم تزل عيناه الزرقاوان صافيتين، وشعره الأشقر يتماوج بكثافة أقل من السابق على جبين خفيض لوحته الشمس، وفوق حاجبين فضيين من شقرتهما، والعينين الزرقاوين أشد زرقة بالتناغم مع شعر الرأس. غبي المظهر؟ قطعًا لا. أنكرت ابتسامته ذلك. لكنه مكتفٍ بذاته بما يكفي لينجو من الحماقة، غير أنه شديد البرود حتى ليشعر المرء بذلك البرود الجوهري، لقد شق دربه في الحياة بيسر وعزم مثلما يشق دربه الآن عبر حجرة استقبال السيدة ستروثر.

وفي منتصف الطريق، أوقفته تربيتة من المروحة الحمراء العائدة إلى السيدة ويسن. ويسن، طبعًا، فكرت السيدة هازلدين، أتحدث تشارلز عن وجود سابينا ويسن مع أمها، السيدة پارت العجوز، وهما تراقبان الحريق؟ كانت سابينا ويسن امرأة مهيبة، إحدى القلائل من جيلها وعشيرتها اللاتي خرقن العادة، وترددن إلى بيت السيدة ستروثر حالما اشترت ملكة طلاء الأحذية بيتها

في الجادة الخامسة، وأعلنت تحديها الأول للمجتمع. أغمضت ليزي هازلدين عينيها للحظة، ثم، نهضت من مجلسها، وانضمت إلى جمع حول المغني. ومن هناك تنقلت من واحدة إلى أخرى من معارفها.

«انظري: سيغني المغني مرة أخرى. لنذهب إلى ذلك الركن».

فأحست بلمسة رقيقة على ذراعها، والتقت نظرة هنري پرست الهادئة.

فصلت حجرتي الاستقبال فسحةٌ حمراء الإضاءة يظللها النخيل عن حجرة الطعام التي امتدت على عرض البيت في الخلف. ترددت السيدة هازلدين، ثم رأت نظرة السيدة ويسن المراقبة، ورفعت رأسها باسمة وتبعت مرافقها.

جلسا على أريكة صغيرة تحت النخيل، وتوقف زوجان يبحثان عن ملاذ مماثل على العتبات، ثم ذهبا وهما يتبادلان النظرات. ابتسمت السيدة هازلدين ابتسامة أكثر حيوية.

«أين ورودي؟ ألم تصلك؟»، سأل پرست. كان له عادة في النظر إليها من تحت جفنين ناعسين، وهو يتظاهر بمعاينة زر القفاز أو تأمل مقدمة حذائه اللامع.

«بلى، وصلتني»، أجابت.

«لكنك لا تضعينها. لم أطلب هذه».

«نعم».

«ممن هاتين إذن؟»

فبسطت مروحتها المصنوعة من عرق اللؤلؤ، ومالت فوق زخارفها المتشابكة.

«مني»، قالت.

«منك؟ حسنٌ، قطعًا. لكني أحسب أحدًا أرسلهما إليك».

«أنا فعلت»، ترددت للحظة. «أرسلتهما لنفسي».

فرفع حاجبيه قليلًا. «إنهما لا تناسبانك، هذا الزهري الفاتح! أسألك لمَ لم تضعي ورودي؟»

«أخبرتك للتو... كثيرًا ما طلبت منك ألا ترسل الزهور... في يوم...»

«كلام فارغ. إن هذا هو اليوم المناسب... ما الأمر؟ أما زلت قلقة؟»

صمتت للحظة، ثم أخفضت صوتها لتقول: «ما كان عليك القدوم الليلة».

«إنك لست على طبيعتك يا فتاتي العزيزة! إنك قلقة».

«ألم ترَ كل هؤلاء في نافذة آل پارت؟»

«ماذا، البيت المقابل؟ كلا يا إلهي، لقد أطلقت ساقيّ للريح! لقد كان ذاك اللعين، الممر الخلفي مسدودًا. ولكن ما معنى ذلك؟ في كل ذلك الحشد، أتظنين للحظة...؟»

«كان زوجي معهم واقفًا عند النافذة»، قالت بصوت أكثر انخفاضًا.

فبوغت وجهه الهادئ للحظة، ثم استعاد مظهره من الغفلة المرتاحة.

«ثم...؟»

«أوه، لا شيء... بعد. لكني أطلب منك... أن ترحل الآن».

«كأنك طلبت مني ألا آتي! لكنك أتيت، لأنه خطر لك إن لم تأتي... وقد أتيت للسبب ذاته. اسمعيني يا عزيزتي، لا تفقدي صوابك حبًا بالرب!»

كأنما أغاظها الاعتراض، فرفعت ذقنها ونظرت في الغرفة المكتظة التي يشرفان عليها من ركنهما، وهزت رأسها وابتسمت بود لعدد من الأصدقاء، راجية أن يتقدم أحدهم نحوها. ورغم أنهم جميعًا ردوا تحيتها بألفة متكلفة، غير أن أحدًا لم يتقدم نحو مقعدها القصي.

أدارت رأسها قليلًا نحو مرافقها. «أسألك الرحيل مرة أخرى»، كررت.

«حسنٌ، سأفعل إذن، بعد غناء الشاب. لكني ملزم بالقول إنك أكثر مرحًا بكثير...»

أسكتته الفواصل الغنائية الأولى لـ «سلامًا، أيتها الدار»[1]، وجلسا جنبًا إلى جنب في الجمود التأملي لشخصين أنيقين يستمعان إلى موسيقى راقية. ألقت بنفسها في طرف الأريكة، وهنري پرست، الذي كان كل شيء فيه متحفظًا إلا عينيه، جلس بمعزل عنها، واضعًا ساقًا فوق الأخرى، حاملًا بإحدى يديه قبعة الأوپرا المثنية على ركبته، أما اليد الأخرى فكانت بجانبه على الأريكة. لكن طرفًا من وشاحها التول استقر في الفراغ بينهما، ودون أن تنظر نحوه، أو أن تحول نظرها عن المغني، أدركت أن يد پرست قد وصلت الوشاح وأدنته نحوه. ارتعشت قليلًا، وأتت

(1) آريا يغنيها فاوست في الفصل الثاني من أوپرا فاوست لغونو. (معجم الأوپرا: محمد حنانا ص512، دار المدى).

بحركة عفوية كأنها تود جمعه حولها، ثم توقفت. لما انتهت الأغنية، مال نحولها قليلًا وقال: «عزيزتي»، بصوت خفيض جدًا كأنه ليس إلا نفَسًا واحدًا على وجنتها، ثم نهض وانحنى، ومشى داخلًا الحجرة الأخرى.

تنهدت تنهيدة خافتة، وعدلت جلستها أكثر في زاويتها، ورفعت عينيها البراقتين إلى سلرتن جاكسن، الذي كان يقترب. «كان لطفًا منك أن تعيد تشارلي إلى البيت من منزل آل پارت عصر اليوم»، ومدت يدها مفسحة له المكان بجانبها.

«لطفًا مني؟»، ضحك. «يا إلهي، لقد كنت مسرورًا بإيصاله سالمًا إلى البيت، لقد كانت شقاوة منه أن يكون حيث كان، كما أرى». تخيلت صمتًا قصيرًا، كأنه انتظر ليرى وقع هذا، وضربت أهدابها وجنتيها. لكنه تابع: «أتشجعينه، وهو يسعل هكذا، أن يطوف في أرجاء البلدة خلف عربات الإطفاء؟»

فردت بضحكة.

«لا أثنيه -أبدًا- إن استطعت إلى ذلك سبيلًا. لكن خروجه اليوم حماقة»، قالت موافقة، وظلت طيلة الوقت تسأل نفسها، كما فعلت تلك العصرية، في حديثها مع زوجها: «والآن ما الذي سيكون عاديًا لو قلته؟»

أتتحدث عن وجودها قريبة من الحريق، أو ألا تفعل؟ طن السؤال في رأسها طنينًا صاخبًا جدًا فلم تكد تسمع ما يقوله رفيقها، غير أن شعورًا غريبًا راودها، في الآن نفسه، بأنه لم يكن قريبًا جدًا منها، أو شديد التركيز عليها، كما فعل الآن. وفي حالتها الغريبة من الصفاء الذهني القلق، كأنما عيناها تركزان

بدقة جديدة في تقاطيع وجوه كل من يقترب منها، وقناع سلرتن جاكسن العجوز النحيل، ووجنتاه المسفعتان الورديتان، والعروق في غوري صدغيه، تحت الشعر المفضض المسرّح بعناية، وخطوط الدم الصغيرة في بياض عينيه حين أدار نظرته الزرقاء اليقظة نحوها، كأنها تقف تحت عدسات قوية. كانت نظارته تتدلى في يد مقفزة بيضاء، والأخرى تحمل قبعة الأوپرا على ركبته، فأشار، خلف تلك الجلسة التي تتكلف اللا مبالاة، الثبات الصبور لعالم طبيعة يحبس أنفاسه قرب صدع قد يظهر منه حيوان صغير فجأة، إن راقب المرء وقتًا طويلًا، أو منحه، على نحو كافٍ جدًّا، الانطباع بعدم البحث عنه، أو الحلم بوجوده في مكان قريب. جعل الإحساس بهذا التيقظ الذي لا يعرف الكلل صدغي السيدة هازلدين يؤلمانها كأنها جلست تحت ضوء ساطع أكثر سطوعًا من ثريات السيدة ستروثر، سطوع ستظهر فيه كل رعشة سببها فكرة نصف مكتملة من خلف جبينها والخطوط الرقيقة تغضن سطحها إلى تقطيبة قلق يتعذر كبحها. أجل، كان پرست محقًا، إنها تفقد صوابها؛ تفقده لأول مرة في السنة الخطرة التي شعرت في أثنائها بحاجة مستمرة إلى الحفاظ عليه.

«ما الخطب؟ ماذا حدث لي؟»، تساءلت.

سبق ذلك بعض التحذيرات، وأنى ألا يحدث ذلك؟ لكنها لم تفعل شيئًا إلا تحفيزها، فصيرتها حذرة ومتحفزة أكثر، وها هي ترتعش الليلة إلى هاوية ضعف لا تعرف مستقرها. ما الفرق إذن؟ أوه، لقد عرفت تمامًا! لقد كان تشارلز... تلك النظرة المضناة في عينيه، والخطوط في عنقه لما مال إلى الوراء ونام. لم

تعترف لنفسها من قبل أنها رأته عليلًا، وها هي تعترف، وفي الآن نفسه ليست متيقنة تمامًا أن تلك النظرة في عينيه سببها المرض وحده، وهذا ما جعل التوتر لا يطاق.

رنت حولها بإحساس مفاجئ من اليأس. من بين كل هؤلاء الناس في هذه الجموع الأنيقة الحيوية –من بين كل النساء اللاتي يسمينها ليزي، والرجال الذين يترددون إلى منزلها- عرفت أن لا أحد، في تلك اللحظة، خمن أو أدرك ما تشعر به... وقع نظرها على هنري پرست، الذي ظهر على مبعدة، ينحني على كرسي السيدة ليمان الجميلة. «وأنت أكثر من الجميع!»، قالت في نفسها، «غير أن الرب يعلم»، أردفت مرتعشة، «فإن عند كل منهم نظرية يحملها عني!»

«عزيزتي السيدة هازلدين، تبدين شاحبة قليلًا. أتشعرين بالبرد؟ أأحضر لك بعض الشامپانيا؟»، كان سلرتن جاكسن يقترح بفضول.

«إن ظننت أن النسوة الأخريات مزهرات! إن هذا بسبب الإضاءة العلوية المبتذلة اللئيمة يا صديقي العزيز...»، ونهضت متبرمة. خطر لها أن ما عليها فعله –الأمر «العادي» لتفعله- أن تمشي نحو جيني ليمان، التي لم يزل پرست منحنيًا أمامها باهتمام. سيرى الناس عندئذ إن كانت قلقة، أو مريضة أو شاحبة.

لكنها توقفت في منتصف الطريق وقالت في نفسها: «ماذا لو رآني آل پارت وآل ويسن؟ سيبدو انضمامي إلى جيني وهو يتحدث إليها؛ كيف سيبدو؟»، وأخذ الندم يراودها على أنها لم تحسم الأمر في تلك اللحظة مع سلرتن جاكسن، الذي يمكن الوثوق

بحفظه السر أحيانًا، خاصة إن ألقت امرأة جميلة نفسها تحت رحمته. ونظرت خلفها كأنها تدعوه ليعود، لكنه استدار مبتعدًا، وانخرط في جمع آخر، فوجدت نفسها، بدلًا من ذلك، في مواجهة سابينا ويسن. حسنٌ، لعل هذا أفضل. فالأمر كله يعتمد على مقدار ما رأته السيدة ويسن، وأي جانب عزمت الانضمام إليه، على افتراض أنها رأت شيئًا. لم تكن على الأرجح غامضة بقدر سلرتن العجوز. تمنت ليزي لو أنها لم تنس الذهاب إلى حفلة السيدة ويسن الأخيرة.

«عزيزتي السيدة ويسن، كان لطفًا منك...»

لكن السيدة ويسن لم تكن هناك. بممارسة تلك القوة الوقائية الغامضة التي تمكّن امرأة تتوق إلى ألا تقاطَع لتجعل من نفسها لا مرئية، أو أن تنقل نفسها، على نحو لا يلحظ، إلى جزء آخر من وجه الأرض، السيدة ويسن التي قبل ثانيتين، بدت بكل جمالها الصارم ستنقض على السيدة هازلدين، تفصل بينهما مساحة ضئيلة فارغة من الباركيه، السيدة ويسن كما استدعى ظهرها المتحرك ومروحتها الحمراء السريعة كل الجمع ليلاحظ، لم تكن هناك قط، ولم تر السيدة هازلدين («أكانت حاضرة في بيت السيدة ستروثر السبت الماضي؟ يا للغرابة! لا بد أنني غادرت قبل قدومها...»)، لكنها كانت مشغولة جدًا، على الجانب الأبعد من البيانو، في معاينة لوحة لفت انتباهها إليها أحد الأشخاص القريبين منها.

«آه، يـا لهـا مـن لوحـة نابضـة بالحيـاة! هـذا مـا أشـعر بـه كلمـا رأيـت لوحـة لمنسـييه[1]»، سُـمع قولهـا، بطبعهـا المعـروف بإيجـاد الوصـف المناسـب.

وقفـت ليـزي هـازلديـن بـلا حـراك. سـدرت عيناهـا كأنمـا تلقـت ضربـة علـى جبينهـا. «فهـذا هـو الشـعور إذن!»، قالـت فـي نفسـها. رفعـت رأسـها عاليًـا جـدًا، ونظـرت حولهـا ثانيـة، وحاولـت أن تشـير إلـى هنـري برسـت، لكنهـا رأتـه لـم يـزل مشـغولاً مـع الجميلـة السـيدة ليمـان، وفـي اللحظـة ذاتهـا لمحـت نظـرة هبـرت ويسـن، بكـر سـابينا، الـذي وقـف فـي توقـع خلـي البـال قـرب غرفـة العشـاء.

لمـا التقـت عينـا هبـرت ويسـن عينـي السـيدة هازلديـن، صـار قرمزيًـا حتـى جبينـه، وتراجـع للحظـة، ثـم تقـدم، وانحنـى انحنـاءة خفيضـة، تلـك الانحنـاءة الخفيضـة جـدًّا ثانيـة! «لقـد رآنـي أيضًـا»، قالـت فـي نفسـها. وضعـت يدهـا علـى ذراعـه ضاحكـة. «يـا إلهـي كـم تبـدو متكلفًـا! حقًـا، فأنـا لسـت عجـوزًا بقـدر مـا توحـي انحناءتـك. يـا فتـاي العزيـز، أرجـو أنـك تـود اصطحابـي للعشـاء فـي الحـال. لقـد كنـت خارجـة فـي هـذا البـرد عصـر اليـوم، أراقـب حريـق فنـدق الجـادة الخامسـة، وأكـاد أمـوت مـن الجـوع والتعـب».

هنالـك، سبق السيف العذل، لقـد قالـت مـا قالتـه بصوت عالٍ ليسمع كل القريبيـن منهـا! وكانـت واثقـة أن هـذا هـو الفعل الصائب «العادي».

خامرهـا شـعور بالارتيـاح، ودلفـت إلـى غرفـة العشـاء مثـل إلهـة، موجّهـة هبـرت إلـى طاولـة فارغـة فـي زاويـة مزهـرة.

---

(1) رسام ونحات فرنسي كلاسيكي، اشتهر بتصويره نابليون وجيوشه.

«كلا، أحسب أننا أفضل وحدنا، ألا ترى ذلك؟ أتود أن تنضم إلينا تلك المملة البدينة سالي ڤاندرلو؟ إن أردت، طبعًا... أرى أنها تتحرق شوقًا... لكني أحذرك بأني سأسأل شابًا! لنرَ، أأسأل هنري پرست؟ ها أنت تراه يحوم! كلا، لن يكون ذلك بأمتع من بقائنا وحدنا، أليس كذلك؟»، ومالت إلى الأمام قليلًا، مسندة ذقنها على يديها المتشابكتين، ومرفقيها على الطاولة، في جلسة تراها النسوة الأكبر سنًا مبتذلة ابتذالًا هائلًا، لكن الأصغر آخذات في محاكاتها.

«والآن، بعض الشامپانيا من فضلك... والسلحفاة الساخنة! لكني أظنك كنت قرب الحريق، أليس كذلك؟»، ومالت أقرب لتقول ذلك.

اكتسحت الحمرة وجه الشاب ويسن، وبلغت جبينه، وصيّرت شحمتي أذنيه كرتين من نار («كأنه يضع قرطين ضخمين من المرجان»، قالت في نفسها). لكنها أجبرته على النظر إليها، وضحكت في عينيه، وتابعت: «أرأيت يومًا مشهد أطرف من كل هؤلاء السخيفات المتأنقات يهرعن خارجات في البرد؟ كأن ذاك نهاية حفلة تدشين رسمي! لقد فتنت جدًا حد أنني شققت طريقي إلى البهو. كان رجال الإطفاء حانقين، لكنهم لم يستطيعوا منعي، لا يمكن لأحد أن يمنعني في حريق! كان عليك أن ترى السيدات ينزلن الدرج، البدينات منهن! أوه، أستميحك عذرًا، نسيت أن... ثقيلات الوزن يعجبنك. كلا؟ ولكن السيدة... ڤان... أوه يا لغبائي! عجبًا إنك تحمر خجلًا! أؤكد لك أنك أحمر بقدر

مروحـة أمـك، ويظهـر ذلـك مـن مسـافة بعيـدة! أجـل، مـن فضلـك، المزيـد مـن الشـامپانيا...»

وبـدأ مـا يتعـذر اجتنابـه. لقـد نسـيت أمـر الحريـق، ونسـيت مخاوفهـا، ونسـيت إهانـة السيدة ويسـن، نسـيت كل شـيء إلا المـرح، المـرح الطفولـي العابـر، لجعـل هـذا الفتـى الأخـرق الخجـول يلـف حـول إصبعهـا الصغيـرة، مثلمـا جعلـت آخريـن كثـرًا غيـره، كبـارًا وصغـارًا، غيـر عابئة بعدئذ إن كانـت سـتراهم ثانيـة، لكنهـا مسـتغرقة فـي التسـلية، وفـي إحساسـها بمعرفتهـا كيـف تفعل ذلـك أفضـل مـن غيرهـا مـن النسـاء - بهـدوء أكثـر ومكـر أكبـر، دون نظـرات غراميـة، ولا إشـاحة ولا عبـوس- فسـألت نفسـها أحيانًـا مرتعشـة: «لمَ منحتُ هـذه الموهبـة؟» أجـل، لقـد أمتعتهـا دومًـا فـي بـادئ الأمـر؛ البـزوغ المتـدرج للانجـذاب فـي الأعيـن التـي نظـرت إليهـا بفتـور، وارتفـاع الـدم إلـى الوجـه، والأسـلوب الـذي تديـر بـه الحديـث وتعطفـه كأنهـا تضـع رسـنًا علـى ضحيتهـا، وتـدور بـه خلفهـا علـى دروبهـا المتعرجـة مـن العاطفـة والسـخرية والهـوى... ثـم تتركـه، بقلـب خافـق وعينيـن سـادرتين، يتصـور الغـد الواعـد... «هـذا نجاحـي الوحيـد!» همسـت لنفسـها وهـي تنهـض مـن الطاولـة تتبعهـا النظـرة المفتونـة لويسـن الشـاب، رغـم أنهـا أحسـت علـى شـفتيها مـن فورهـا بطعـم الرمـاد.

«ولكنـه علـى أي حـال»، قالـت فـي نفسـها، «سـيحفظ لسـانه حول رؤيتـي فـي الحريـق».

5

دخلت مستخدمة مفتاح المزلاج، وتفقدت الرسائل والملاحظات على طاولة البهو (عادتها القديمة في ألا تسمح لشيء بأن يفوتها)، وصعدت في الظلمة إلى غرفتها.

لم تزل النار تضطرم في المدخنة، وانعكس ضوؤها على مزهريتي الورد القرمزي. كانت الغرفة تعج بشذاهما.

عبست السيدة هازلدين، ثم رفعت كتفيها. لقد أخطأت، إذن، لتظهر عدم اكتراثها للزهور، لا بد أن تتذكر شكر سوزان على جلب الزهور. أخذت تخلع ثيابها، على عجالة وبلا إتقان، كأن كل أصابعها الماهرة أباهيم، لكنها أولًا نزعت الوردتين الزهريتين عن صدرها، ووضعتهما بلمسة متحفظة في كأس على طاولة الزينة. ثم لبست مبذلها، ومضت إلى باب غرفة زوجها. كان مغلقًا، فوضعت أذنها على ثقب الباب. ثم سمعت صوت أنفاسه الثقيلة، كعادته حين يصاب بالزكام، لكنها أنفاس منتظمة هادئة... فتسللت عائدة متنفسة الصعداء. أرسل إليها فراشها المكشوف، بوسادتيه الجديدتين ولحافه من الأطلس، دعوة حالمة، لكنها تكورت قرب النار، حاضنة ركبتيها محملقة إلى الفحم.

«فهذا هو الشعور إذن!»، كررت القول.

كانت أول مرة في حياتها «تُتجاهل» عن عمد، وكان التجاهل إصابة قاتلة في نيويورك القديمة. إذ ستستغلها سابينا ويسن عامدة قاصدة -فما من شك أنها تقدمت عامدة إلى ضحيتها- لا بد أنها فعلت ذلك وهي تعزم على القتل. وكي تقدم على هذا،

عليها أن تكون واثقة من الوقائع، واثقة من تأييد الشهود، وواثقة من دعم عشيرتها.

لليزي هازلدين عشيرتها أيضًا؛ لكنها صغيرة وضعيفة، وهي تتعلق بحاشيتها الخارجية بخيط من النسب الذي لا يؤبه له. أما قبيلة هازلدين، التي كانت أكبر وأقوى (رغم أنها لا تضاهي مورثات ويسن - پارت الرائعة المنظمة، تساندها نصف نيويورك وكل مدينة ألباني). إذن، لم يكن آل هازلدين ممن يمكن الاعتماد عليهم، بل إنهم، ربما، بصورة خفية سلبية، لن يأسفوا («لولا تشارلي المسكين») أن تدفع زوجة تشارلي المسكينة ثمن مظهرها الحسن، وشعبيتها، وحياتها أيضًا، رغم أصلها، وقد عاملها تشارلي المسكين كأنها واحدة منهم!

كان أصلها محترمًا بطبيعة الحال. إذ يعرف الجميع آل ونتر؛ وهي ليزي ونتر. لكن آل ونتر كانوا قلة، وأبوها الموقر أركاديوس ونتر، الخوري العاطفي المحبوب جدًا لكنيسة أنيقة في نيويورك، وبعد بضع مواسم من النجاح الكاسح بوصفه واعظًا وموجهًا لوجدان النساء، اضطر فجأة إلى تقديم استقالته والذهاب إلى برمودا لأجل صحته -أم أنها كانت فرنسا؟- إلى منتجع غريب، كما أشيع. على أي حال، انتشلت ليزي التي رافقته (مع أم مشلولة طريحة الفراش)، في نهاية المطاف، بعد موت الأم، من مدرسة للفتيات في بروكسل – يبدو أنهم كانوا في عدد من البلدان في آن واحد!- وأعادتها إلى نيويورك إحدى الرعايا السابقين من كنيسة أركاديوس، «آمنت به» دومًا، رغمًا عن القس، وقد أخذتها الشفقة بابنته الوحيدة.

كانت عضوة الأبرشية، السيدة مانت «واحدة من آل هازلدين». كانت امرأة ثرية، نظرًا إلى اللفتات السخية التي تحار كثيرًا في إتمامها، وحين أعادت ليزي ونتر إلى الديار، واحتفت احتفاء هائلًا بشجاعتها في فعل ذلك، لم تعرف تمامًا ما الخطوة التالية. فقد تصورت أن وجود فتاة ذكية جميلة في البيت أمر يبعث على السرور، لكن مدبرة منزلها لم تر الرأي نفسه. لم ترفع الخزامى عن شراشف الغرفة الإضافية لعشرين سنة، وتركت الآنسة ونتر حاجب النور مرفوعًا دائمًا في غرفتها، وعانت السجادة والستائر التي لم تعتد كشفًا كهذا. ثم أخذ الشبان يترددون إلى البيت، كانوا يأتون زُرافات. لم تحسب السيدة مانت أن ابنة كاهن – وكاهن «في موضع الشبهات»- ستنتظر زوارًا. بل تخيلت نفسها تصطحب ليزي ونتر إلى أسواق الكنيسة الخيرية، وتنتقي لها غرزات نسيجها شابة «نظرها أحسن» من نظر المحسنة إليها. لكن ليزي لم تحسن الحياكة –لم يكن عندها مواهب مفيدة- وقد ضجرت حقًّا في الأسواق الخيرية، حيث كان حضورها عديم الجدوى، إذ لا مال عندها تنفقه. أخذت السيدة مانت تدرك خطأها، وجعلها الاكتشاف تبغض صنيعتها، التي رأت في سريرتها أنها ضللتها عامدة.

في حياة السيدة مانت، كانت علامة الانتقال من حماس إلى آخر دومًا هي فاصل من الخذلان، تساءلت صراحة في أثنائه عن وجود الرب، لمّا قصّر في تحقيق مطالبها. ولكن في تغير المواقف ثمة نقطة ثابتة؛ إذ إن السيدة مانت امرأة تدور حياتها حول حزمة مفاتيح. أي كنز توصل إليه، وأي كوارث ستحل إن

ضاعت المفاتيح إلى الأبد، لم يكن بالأمر الجلي، ولكنها كلما فُقدت وقع البيت في هرج ومرج، ولما كانت السيدة مانت لا تأتمن أحدًا عليها إلا نفسها، فقد كانت هذه الحوادث متواترة. حدث أحدها في اللحظة نفسها التي كانت السيدة مانت تتعافى فيها من حماسها للآنسة ونتر. كانت المفاتيح موجودة قبل دقيقة، في جارور طاولة أشغالها، بل إنها لمستها حقًا في أثناء بحثها عن مقص العُرى. واستدعيت للتحدث إلى السباك حول تسريب الحمام، ولم يكن في الغرفة حين خرجت سوى الآنسة ونتر. ولدى عودتها، اختفت المفاتيح. قلب البيت رأسًا على عقب، واشتبه في الجميع إن لم يتهموا، وفي لحظة تهور تحدثت السيدة مانت عن استدعاء الشرطة. حينئذ توعدت مدبرة المنزل، وحذت الخادمة حذوها، فتذكرت السيدة مانت تلميحات الكاهن. أشار الكاهن دومًا إلى شيء غير عادي في سجلات د. ونتر، إلى جانب الأمور التعسة الأخرى...

برفق شديد سألت الآنسة ونتر إن كانت قد رأت المفاتيح، أو «أخذتها دون تفكير». فابتسمت الآنسة ونتر رافضة التلميح. أغاظت الابتسامة السيدة مانت، وفي لحظة انفتح الباب على مصراعيه. لم تر في سؤالها ما يدعو للابتسام؛ إلا إن كان سؤالًا اعتادت سماعه الآنسة ونتر، واستعدت له... بتلك النشأة... وأبيها التعس.

«توقفي!» صاحت ليزي ونتر. تذكرت الآن، كأنما حدث البارحة، الهاوية التي انفتحت تحت قدميها على حين غرة. كانت أولى مواجهاتها مع قسوة البشر. معاناة وضعف وهشاشة مختلفة عما

يصوره خيال السيدة مانت المحدود، كما عرفته الفتاة أو ارتابت به على الأقل، لكنها وجدت في دربها لطفًا بقدر ما وجدت من شر، ولم يحاول أحد قط من قبل أن يعاقبها على العيوب المظنونة لأبيها المسكين. فارتجفت خوفًا وازدراء، وسطعت كلمتها «توقفي!» بشدة مما حدا بالسيدة مانت، وقد شحبت، أن تمسك بالجرس خائفة.

وحينئذ، في تلك اللحظة بعينها، دخل تشارلز هازلدين؛ تشارلز هازلدين، ابن الأخ الأثير، فخر القبيلة. رأته ليزي مرة أو مرتين فحسب، إذ كان غائبًا منذ عودتها إلى نيويورك. رأته بهي الطلعة، غير أنه جاد وساخر، ولم يعبأ بها إلا قليلًا، وهذا ما عزز رأيها.

«أوه تشارلز، الغالي تشارلز، كان عليك أن تحضر لسماع ما قيل لي!»، قالت عمته لاهثة، ويدها على قلبها الحانق.

«أي شيء؟ ومن قالها؟ لا أرى أحدًا هنا يقوله إلا الآنسة ونتر»، ضحك تشارلز، آخذًا يد الفتاة المثلجة.

«لا تصافحها! لقد أهانتني! لقد أمرتني أن أصمت؛ في بيتي. «توقفي!» قالت لي، حين كنت أحاول، بكل رقة قلبي، أن أدفعها على الاعتراف سرًا... حسنٌ، إن كانت تؤثر أن نستدعي الشرطة...»

«أجل! أطلب منك أن ترسلي في طلبهم!»، صاحت ليزي.

كم تذكرت ما أعقب ذلك جيدًا، العثور على المفاتيح، واعتذارات السيدة مانت الفاترة، وقبولها البارد بها، وإحساس الطرفين باستحالة متابعة حياتهما معًا! لقد جرحت روحها وتبينت لها محنتها بكل ضنكها. قبل ذلك، ورغم كل صروف حياة

التجوال، وشبابها وحسنها، والإحساس بسلطة قوية على الناس والوقائع، قد عجل بها إلى تيار ربيعي من الثقة، غير أنها لم تر نفسها عالة يومًا، ولا رأت من ترفّقوا بها محسنين. ولكنها رأت نفسها الآن، فتاة مفلسة في العشرينيات، لها أب رخو سيئ السمعة يحمل رأسه الأبيض وصوته المتزلف وأسلوبه المهذب من منتجع إلى آخر، عبر سلسلة لا نهائية من الورطات العاطفية والمالية. لم تكن بذات نفع له أكثر من نفعه لها، وعداه لم يكن لها أحد. أعلن الأنسباء من آل ونتر، بعد أن شعروا بالذل من عاره بقدر ما تباهوا بنجاحاته قبلًا، بعد ذيوع أمر النزاع مع السيدة مانت، أنهم ليسوا في موضع يتيح لهم التدخل، ولم يبق أحد من بين رعايا أبرشية الطبيب ونتر السابقين يؤازره. في الوقت نفسه تقريبًا، سمعت ليزي أنه على وشك الزواج بمغنية أوبرا برتغالية وسيستقبل في كنيسة روما، وسرعان ما أعطت هذه الفضيحة الأخرى عائلته العذر.

كانت الحال بائسة وتطلبت فعلًا سريعًا. أدركت ليزي ذلك، فخطبت بعد أسبوع إلى تشارلز هازلدين.

قالت دومًا بعد ذلك إنه ما كان ليفكر في الزواج منها لولا المفاتيح، وقد أكد ضاحكًا، على عكس ذلك، أنها ما كانت لتنظر إليه قط لولا المفاتيح.

ولكن فيم يهم كل ذلك في غمرة التفاهم الكامل السعيد الذي أعقب ارتباطهما السريع؟ لو وزنت المزايا في كلا الطرفين ووجدها مستشارون رشيدون متعادلة، فما كان لأحد أن يتنبأ بالانسجام الكامل، بل لمّا كان المستشارون رشيدين، ما كانوا

ليجدوا إلا عناصر التباين في الشخصيتين المذكورتين، فقد كان تشارلز هازلدين بطبعه ذا عقل مراقب باحث متأمل فضولي؛ أما ليزي ونتر (كما رأت نفسها في الماضي)، فماذا كانت، وما الذي ستكونه إلا امرأة ألمعية فانية، ماثَل العقلُ فيها النشاطَ الأزلي المتكيف، مثلما حاكت الجمالَ كياستها ورشاقتها وتعبيرها؟ هكذا قيّمها الآخرون، وهكذا قيمت نفسها الآن. وعرفت أنها في الأمور الجوهرية لم تزل نفسها. غير أنها أسعدته، أسعدته على كل الصعد، سعادة تامة في السنوات الأخيرة مثلما فعلت في الساعات الأولى التي شابها الخجل. بالقدر نفسه أو أكثر ربما. في الأشهر الأولى، جعلها الامتنان السادر أكثر تواضعًا، وعاشقة أكثر حبًا، ولكن لما اتسعت قواها في الجو الدافئ من التفاهم، وهي تشعر أنها تغدو أجمل وأذكى وأكثر منافسة وأسعد رفقة مما أمل، أو تخيلت أنها قادرة على أن تكونه، فقد حفظ التوازن على نحو لا يلحظ، والفرح في عينيه حين تنظران إليها.

هزم آل هازلدين، كان عليهم الإقرار بذلك. ما كان يمكن إنكار تطويع ذكي كهذا. وتركت السيدة مانت تربّي بغضاءها وحيدة، حتى انضمت هي إلى الآخرين، وقد صُفح عنها صفحًا فاترًا أنيقًا.

آه، يا لسنوات الفرح الأولى! لقد أثارت ذعر ليزي وهي تتذكر الماضي. يومًا كانت الابنة العزلاء لرجل سيئ السمعة ولا أهل لها، وفي اليوم التالي صارت زوجة تشارلز هازلدين، المحامي الناجح المعروف، وقد أبلى بلاءً حسنًا في مهنته، وتنتظره أفضل الوعود المهنية والخاصة. كان والداه ميتين، وماتا فقيرين، غير أن

قريبين أو ثلاثة لا أبناء لهم قد تركوا ثرواتهم تتراكم لأجله، وفي أثناء ذلك صار ما يجنيه كبيرًا جدًّا في يدي ليزي المقتصدتين.

آه، يا لتلك السنوات الأولى! لم تكد تبلغ السنوات الست، ولكن ثمة لحظات غمرتها حلاوتها حتى الصميم... بالكاد ست، ثم اليقظة الحادة من جديد لضعف وراثي في القلب الذي تصور هازلدين وأطباؤه أنه شفي تمامًا. مرة قبلًا، للسبب ذاته، أرسل بعيدًا فجأة، لسنة من السفر في مناخ معتدل ومناظر بعيدة، وتصادفت عودته مع نهاية إقامة ليزي في بيت السيدة مانت. كان الشاب واثقًا من المستقبل جدًا فتزوج واضطلع بمهام مهنته ثانية، وعاش في السنوات الست اللاحقة، دون انقطاع، حياة مشغولة لمحام ناجح، ثم وقع انهيار آخر، أكثر مفاجأة، وله أعراض أكثر إثارة للقلق. كان «قلب هازلدين» مَضْربَ مَثَلٍ في العائلة، وفي سرهم عده آل هازلدين أكثر تميزًا من نقرس سلرتن، وأرقى بكثير من كبد ويسن، وقد سمح لمعظمهم بالبقاء، في راحة العليل، لعمر متقدم ناضج، إذ ماتوا من اضطراب آخر. لكن تشارلز هازلدين تحداه، فانتقم لنفسه، وانتقم لنفسه بشراسة.

واحدًا تلو الآخر، تبددت الآمال والأحلام. ذهب آل هازلدين جنوبًا لقضاء الشتاء، فاستلقى على كرسي في حديقة في فلوريدا، وقرأ وحلم، وكان سعيدًا بقرب ليزي. فمرت الشهور، وتحسن بحلول الخريف التالي، وعاد إلى نيويورك، وتابع عمله. بين كر وفر، وبعناد واصل صراعه لعامين آخرين، ولكن قبل انقضائهما أدرك الزوج والزوجة أن الأيام الحلوة قد ولت.

كان بوسعه التردد إلى مكتبه في مُدَد متراوحة في طولها، فغاص شيئًا فشيئًا في اعتلاله لكنه لم يخضع له. تذبذب دخله، ولم يكترث لنفسه، لكنه قلق بلا انقطاع من حرمان ليزي أقل رفاهاتها.

لم تبالِ بها أيضًا في صميم قلبها، لكنها لم تستطع إقناعه. لقد نشأ على عادات نيويورك القديمة، التي تقتضي أن يؤمّن الرجل، بأي ثمن، لزوجته «ما اعتادته» دومًا، وقد سر كثيرًا بجمالها وأناقتها وأسلوبها البسيط في لبس ثيابها الغالية، واستمتاع أصدقائه بدعوات العشاء اللذيذة التي تعرف كيف ترتبها، بل أن يعوّدها كل شيء يضيف إلى أناقات كهذه. وأغضبه غرور السيدة مانت السري، إذ أرسلت إليه سلحفاة بالتيمور، وحساء المحار الذي تشتهر به، واثنتي عشرة زجاجة من نبيذ هازلدين المعتق، وقالت: «أخبرتك بذلك» لمجالسيها حين يذكر اسم ليزي، وعرف تشارلز هازلدين بذلك، وأقسم عليه.

«لن أجعلها تتصدق عليّ!»، قال، لكن ليزي ابتسمت لتبدد غضبه، وأقنعته أن يتذوق السلحفاة ويرشف من النبيذ.

كانت تبتسم ابتسامة باهتة لذكرى التوافق الأخير بينه وبين السيدة مانت، حين أجفلت لدوران مقبض الباب. فوثبت ووقف هناك. اندفع الدم حتى بلغ جبينها، إذ أثار ذعرها ملامح وجهه، وحملقت إليه للحظة كأنه عدو. ثم رأت أن النظرة على وجهه لم تكن إلا تلك النظرة القصية جراء الوجع الجسدي المفرط.

كانت إلى جانبه في الحال، تسنده وتقوده إلى أقرب كرسي ذي مسندين. فتهاوى عليه، وألقت عليه وشاحًا، وجثت قربه، وظلت عيناه الغامضتان تصدان عنها.

«تشارلز... تشارلز»، توسلت.

لم يسعه الكلام لهنيهة، وقالت في نفسها إنها لن تعرف ما إن كان بحث عنها لأنه عليل، أم لأن المرض قد استولى عليه حين دخل غرفتها ليسألها، ويتهمها، ويكشف عما رآه أو سمعه عصر ذلك اليوم.

رفع يده فجأة وضغط جبينها، فأصبح وجهها تحت عينيه.

«حبيبتي، حبيبتي... أكنت سعيدة؟»

«سعيدة؟»، خنقتها الكلمة. تشبثت به، دافنة عذابها في ركبتيه. تحركت يده واهنة في شعرها، واستجمعت كل قواها في إيماءتها، فرفعت رأسها ثانية، ونظرت إلى عينيه، ولهثت مجيبة: «وأنت؟»

نظر إليها مليًا، وامتلأت نظرته بحياتهما معًا، منذ اليوم الأول إلى الأخير. مسدتها يده مرة أخرى، مثل مباركة ثم سقطت. لقد انتهت لحظة تبادلهما الأسرار. في اللحظة التالية أخذ تجهز الأدوية، وتقرع الجرس مستدعية الخدم، آمرة بإحضار الطبيب. كان زوجها مرة أخرى الأسير العاجز المسالم الذي يجعله المرض الأكثر خوفًا والأكثر حبًا.

6

حدث ذلك في حجرة استقبال السيدة مانت بعد ستة أشهر، إذ قالت السيدة تشارلز هازلدين، وقد ترددت لحظة، للخادمة أن أجل، ليدخل السيد پرست.

لم تكن السيدة مانت موجودة، إذ اعتزمت السفر إلى واشنطن لزيارة صنيعة جديدة حين وصلت السيدة هازلدين من أوروبا، وبعد مشاورة سريعة مع العشيرة قررت أن سماحها لأرملة تشارلز المسكينة بالنزول في فندق لن يكون بالأمر «اللائق». فانتاب ليزي عندئذ الشعور الغريب بالعودة بعد ما يقارب تسع السنوات، إلى البيت الذي أنقذها منه زوجها منتصرة، بالعودة هناك، طبعًا، في استقلالية الند، ودون خطر العودة إلى عبوديتها السابقة، إلى جانب إجفالها من كل ما أعاده ذلك المشهد إلى الحياة.

سافرت السيدة مانت اليوم التالي إلى واشنطن، ولكن قبل انطلاقها مررت ملاحظة لزائرتها عبر مائدة الإفطار.

«لائق جدًا، أظنه كان أحد أصدقاء تشارلز القدامى؟» قالت بابتسامة متكلفة باردة. نظرت السيدة هازلدين إلى الملاحظة، وقلبتها كأنها تعاين التوقيع، وأعادتها إلى مضيفتها.

«أجل. ولكن لا رغبة لي في رؤية أحد».

ساد صمت قصير، أحضر خلاله كبير الخدم فطير الرقاق الطازج، وأعاد ملء الحليب الساخن وانصرف. وبعد أن أغلق الباب خلفه، قالت السيدة مانت، في مودة بغيضة: «لن يسيء أحد فهم استقبالك صديقًا قديمًا لزوجك... مثل السيد پرست».

ألقت ليزي هازلدين نظرة حادة إلى الوجه الفارغ الغامض الكبير في الطرف المقابل من المائدة. لقد أرادوها أن ترى السيد برست إذن؟ آه، حسنٌ... لعلها فهمت...

«أأجيب هذه بدلًا منك يا عزيزتي؟ أو تجيبينها أنت؟»، واصلت السيدة مانت.

«أوه، كما تودين. ولكن لا تحددي يومًا من فضلك. لاحقًا...»

غدا وجه السيدة مانت فارغًا مرة أخرى: «لا يجدر بك حبس نفسك في الأعلى كثيرًا. لن يجديك المرض نفعًا. يؤسفني أن عليّ تركك هنا وحدك...»

اغرورقت عينا ليزي؛ إذ بدا عطف السيدة مانت أقسى من قسوتها. كل كلمة قالتها كشفت سخرية من نظيرتها.

«أوه، لا تفكري في تأجيل زيارتك...»

«وأنى لي يا عزيزتي؟ إنه واجب. سأرسل رسالة إلى هنري برست إذن... إن شربت قليلًا من النبيذ على الغداء أو العشاء ستبدين أقل شبهًا بالشبح...»

غادرت السيدة مانت؛ وبعد يومين – كانت المدة «لائقة»- أعلن حضور السيد هنري برست. لم تره السيدة هازلدين منذ نهار رأس السنة الفائتة. وقد تبادلا آخر كلماتهما في بهو السيدة ستروثر القرمزي، وانقضت نصف سنة منذئذ. أطال تشارلز هازلدين بقاءه لأسبوعين، ورغم التقلبات، وفترات الأمل حين لم يسع أحد تخطئة زوجته لرؤية أصدقائها، فقد أغلق باب بيتها دون الجميع. لم تستثن هنري بصرامة أكثر من الآخرين، فقد كان

واحدًا ممن تلقوا، يومًا إثر يوم، الجواب نفسه: «لن تلتقي السيدة هازلدين إلا أفراد العائلة».

وبعد موت زوجها مباشرة أبحرت إلى أوروبا في زيارة طويلة الأمد إلى أبيها، الذي استقر به المقام في نيس، لكنها لم تنل من هذه الرحلة إلا قليلًا من الراحة، إذ فوجئ أقرباؤها لدى وصولها إلى نيويورك باعتلال صحتها وكآبتها. لكن ذاك كان في صالحها، إذ اتفقوا على أنها تتصرف بلياقة.

نظرت إلى هنري پرست كأنه غريب، إذ كان صعبًا جدًا، في البدء، أن تقحم شخصه الرائع القوي في منطقة ظلال الشفق التي قطنتها في الأشهر الأخيرة. أخذت تشعر أن للجميع هيئة القصي، وأخذت تنظر إلى الحياة والناس عبر السديم المربك للخمار الطويل المصنوع من الكريب الذي كان من واجب الأرملة أن تخفي به آلامها. لكنها مدت له يدها دون إحجام ملحوظ.

رفعها إلى شفتيه، في محاولة واضحة ليجمع النبل بالمواساة، ثم في منتصف طريقها إلى الأعلى، شعر بأن المناسبة تستدعي إطلاقها.

«حسنٌ، عليك الإقرار بأني كنت صبورًا!»، قال.

«صبور؟ أجل. وماذا سوى ذلك؟»، ردت بابتسامة باهتة، حين جلس قربها، قريبًا جدًا.

«آه، حسنٌ... طبعًا! أدركت هذا كله، وأرجو أن تصدقي. ولكن ألم يجدر بك أن تردي على رسائلي على الأقل، واحدة أو اثنتين منها؟»

هزت رأسها نفيًا: «لم أستطع الكتابة».

«ألم تردي على أحد؟ ولا أنا؟»، سأل، بتأكيد ساخر.

«كتبت الرسائل لمن اضطررت إلى الكتابة لهم فحسب، وليس غير ذلك».

«آه فهمت»، ضحك قليلًا، «ولم تعدي الرسائل إليّ من بينها؟»

كانت صامتة، فوقف وتجول في أنحاء الغرفة. كان وجهه أكثر حمرة من المعتاد، وانتابه تشنج بين الفينة والأخرى. لقد رأت أنه أحس بحاجز خمار الكريب، وأنه جعله حائرًا ممتعضًا. لم يزل الصراع خفيًا دائرًا في داخله بين معياره التقليدي للسلوك في لقاءات كهذه، والرغبات العفوية التي جددتها ذكرى آخر ساعاتهما معًا. حين استدار عائدًا وتوقف أمامها، غدت حمرته الداكنة شحوبًا، ووقف هناك متجهمًا مرتابًا مبديًا السخط من حقيقة أنها جعلته كذلك.

«أنت تجلسين هناك كالحجر!»، قال.

«أشعر بأني حجر».

«أوه، هيا...»

عرفت تمامًا في ما يفكر؛ أن الوسيلة الوحيدة لتجاوز بداية سيئة كهذه أن تأخذ المرأة بين ذراعيك، ثم تتحدث لاحقًا. كانت تلك الحركة الكلاسيكية. لقد فعلها عددًا من المرات بلا شك، وكان يسأل نفسه بجلاء لماذا بحق الشيطان لا يمكنه فعلها الآن... لكن في نظرتها شيئًا عطل إحساسه. فجلس قربها ثانية.

«يا لكل ما مررت به يا عزيزتي!»، انتظر وسعل، «أفهم أنك... محطمة. ولكني لا أعلم شيئًا، تذكري، أنني لا أعلم شيئًا مما حدث فعلًا...»

«لم يحدث شيء».

«وما... خشيناه؟ لا تلميح...؟»

هزت رأسها نفيًا.

فتتحنح قبل أن يطرح سؤاله التالي: «أتظنين أنه تحدث في غيابك إلى أحد ما؟»

«بتاتًا!»

«إذن يا عزيزتي، أظننا محظوظين حظًا لا يصدق، ولست أرى...»

فاقترب منها أكثر ببطء، ووضع يدًا كبيرة ذات خواتم على كمها. إنها تعرف هذه الخواتم جيدًا، الثعبانين الذهبيين المخيفين ذويّ الأعين الحقودة المصنوعة من الجواهر! جلست بلا حراك كأنهما يلتفان حولها، حتى ارتخت قبضته العابرة بهدوء.

«تعرفين يا ليزي» –كانت نبرته محبطة– «هذا مروع...»

«مروع؟»

«لقد نجوت من أفظع المحن، وأنت حرة يا عزيزتي، حرة! ألا تدركين ذلك؟ أحسب أن قلقك كان كبيرًا، ولكني أريد منك أن تشعري أن...»

فنهضت فجأة، وجعلت نصف الغرفة تفصل بينهما.

«توقف! توقف! توقف!»، كادت تصرخ، كما صرخت بالسيدة مانت قبل زمن طويل.

فنهض أيضًا، شديد الاحمرار تحت حروقه الشمسية الكثيرة، وتكلف الابتسام.

«حقًا»، اعترض، «بعد كل ما حدث، وبعد فراق ستة أشهر!»،

لزمت الصمت. «عزيزتي»، فتابع برفق، «أتخبرينني بما تظنين أني أرى؟»

«أوه، لا تتحدث بهذه النبرة»، همست.

«أي نبرة؟»

«كأنك... كأنك ما زلت تتصور أن بوسعنا العودة...»

رأت وجهه يتجهم. أتعثّر يومًا، تساءلت، بعقبة في دربه المنبسط؟ فتبادر إلى ذهنها أن هذا هو الخطر الذي يحاصر الرجال الذين «يحسنون التعامل مع النساء»؛ لقد جاء اليوم الذي يتعين عليهم اتباعه بلا سؤال.

وخطر له الخاطر نفسه في الوقت الذي تبادر إلى ذهنها. فتكلف ابتسامة استعطاف أخرى، واقترب وأخذ يدها برفق. «لكني لا أريد العودة... أريد المضي قدمًا يا عزيزتي... فها قد أصبحت حرة».

تلقفت الكلمة كأنها تنتظر الإشارة. «حرة! أوه، هذا هو... حرة! ألا ترى، ألا تدرك أنني أود البقاء حرة؟»

مرة أخرى، خيم على وجهه ظل من الارتياب، كأنما الابتسامة التي اصطنعها لطمأنتها قد ظلت على شفتيه ليطمئن نفسه.

«طبعًا! أتتخيلين أنني أود تقييدك؟ أريدك أن تكوني حرة مثلما تشائين، حرة في أن تحبيني قدر ما تودين!»، وقد بدا السرور على وجهه لدى قوله العبارة الأخيرة.

سحبت يدها بفظاظة. «أنا آسفة، أنا آسفة يا هنري. ولكنك لا تفهم».

«ما الذي لا أفهمه؟»

«أن ما تطلبه مستحيل حقًا، أبدًا. لن أستطيع المواصلة... كسابق عهدي...»

رأت وجهه يضطرب «سابق عهدك؟ أتعنين...؟»، وقبل أن يسعها الشرح، أسرع بالقول بأسلوب تعاظم جلاله: «لا تجيبي! أرى... أفهم. حين تحدثت لتوك عن الحرية أسأت الفهم لهنيهة -أعترف صراحة أنني أسأت الفهم- في ظني أنك، بعد زواجك التعس، تفضلين رابطة أكثر تحفظًا... استقلالًا ظاهريًا يحفظ لكلينا.... أقول ظاهريًا، لأني من جانبي لم تراودني رغبة في التواري... ولكن إن كنت مخطئًا... إن كان ما تريدينه هو العكس... أن تستغلي حريتك لتسوية... ارتباطنا...»

لم تقل شيئًا، لا لأنها ترغب في أن يتم جملته، بل لأنها لم تجد شيئًا تقوله. من أجل كل ما حدث بماضيهما المشترك كانت مدركة أنها تقدم روحًا عاجزة. لكن صمتها حيره حيرة واضحة، وفي حيرته أخذ يفقد توازنه، ويتقدم متخبطًا في بحر من الكلمات.

«ليزي! أتسمعيني؟ أقول إن كنت مخطئًا، وأرجو ألا أكون كذلك رغم اعترافي بخطئي أحيانًا، إن كنت... أوه، بحق الرب يا عزيزتي، لم تسمعني امرأة يومًا أنطق بالكلمات أمامها، لكني هنا لأحبك طوال الحياة، كما يقول الكتاب [المقدس]! عجبًا، ألم تدركي؟ ليزي، انظري إلي! أنا أطلبك للزواج».

لم تجب بشيء للحظة، بل وقفت تحملق إلى ما حولها كأنما راودها إحساس مفاجئ بأطياف لا مرئية بينهما. فضحكت ضحكة خافتة في النهاية، فبدا الضيق على زائرها.

«لا أدرك»، قال ثانية، «أنني قلت شيئًا يثير الضحك تحديدًا ...»، توقف وتأملها من كثب، كأنما خطرت له فكرة وجود شيء ليس طبيعيًا تمامًا ... ثم لما تظاهر بالاطمئنان، همهم بعبارته الفرنسية الوحيدة: «الفرح يبعث على الخوف، إيه؟»

لم تبدُ أنها سمعته. «لم أسخر منك»، قالت، «بل على مصادفات الحياة فحسب. في هذه الغرفة عينها طلبني زوجي للزواج».

«آه»، بدا خاطبها متشككًا بأدب في الذوق الرفيع، أو الفرصة، في إحداث هذا الأثر الباقي. فاستدعى نبله ثانية. «حقًا؟ لكني أقول يا عزيزتي إنك لا تظنين أني أعرف ذلك، صحيح؟ ولو عرفت أن ذكرى مؤلمة كهذه...»

«مؤلمة؟»، استدارت إليه. «ذكرى مؤلمة؟ أتظن أن هذا ما قصدته؟»، فتهدج صوتها، «إن هذه الغرفة مقدسة في نظري».

فصوبت عينيها على وجهه، الذي بسبب كماله الهندسي ربما، بدا مفتقرًا إلى الحركة اللازمة ليتتبع وثبة الفكر هذه. لقد كان بناء صلبًا ظاهريًا، وليس خيمة رحال. فصارع الكبرياء الجريحة، ونهض ثانية ليكون نبيلًا لعوبًا، وهمس: «ملاك رحيم!»

«أوه، رحيم؟ بمن؟ أتتخيل... أقلت يومًا شيئًا يجعلك تشك في حقيقة ما أقوله لك؟»

انعقد حاجباه، وزاد غيظه. «أقلتِ شيئًا؟ كلا». أشار ساخرًا، ثم في سعي حثيث خلف حِلمه الضائع، عقّب برفق غريب: «كانت خططك رائعة على الدوام. لا بد أن أنصفك في هذا من غير ريب. ما كان لأحد أن يكون ... أن يكون السيدة ببراعة هكذا.

لم أقصر يومًا في الإعجاب في حصافتك في تفادي أي تلميح إلى... إلى حياتك الأخرى».

واجهته بثبات: «حسنٌ، تلك الحياة الأخرى هي حياتي، حياتي أنا! ها قد عرفت».

خيم الصمت. أخرج هنري پرست منديلًا عليه أحرف اسمه ومرره على شفتيه الجافتين. ولما فعل هذا، وصلتها نفحة من الكولونيا التي يضعها، فأجفلت قليلًا. كان جليًا أنها تبحث عما تقوله تاليًا، متسائلة، بعجز، كيف سيعيد سيطرته المفقودة على الموقف. وفي نهاية المطاف أجبر تقاسيمه على رسم ابتسامة مقنعة مرة أخرى.

«ليست حياتك الوحيدة يا حبيبتي»، أنبها.

فردت في الحال: «أجل، هذا ما ظننته، لأني اخترت».

«اخترت؟»، لكن الابتسامة غدت متشككة.

«أوه، بتروٍ. لكني أحسب ألا عذر عندي يسوؤك سماعه... لمَ لا ننهي هذا الآن؟»

«ننهي... هذا الحوار؟»، حزن صوته. «ليس لي رغبة في فرض نفسي قطعًا...»

فقاطعته رافعة يدها. «ننهي علاقتنا إلى الأبد يا هنري».

«إلى الأبد؟»، حدق إليها، وابتلع ريقه بسرعة كأنما الجرعة تخنقه. «إلى الأبد؟ أأنت حقًا...؟ أنت وأنا؟ أهذا جدي يا ليزي؟»

«تمامًا. ولكن إن شئت سماع... ما سيكون موجعًا حقًا...»

قوّم نفسه وأرجع كتفيه إلى الوراء، وقال في صوت تشوبه ريبة «أرجو ألا تحسبيني جبانًا».

لـم تجـب مـن فورهــا، بـل تابعـت قولهـا: «حسـنٌ، إذن، أحسـبك ظننتــي أحبـك...»

ابتسـم ثانيـة، وفتـل شـاربه فتلـة صغيـرة، ورفـع كتفيـه رفعـة لا تـكاد تـرى. «أنـت... آه... أحسـنت فـي إيهامـي...»

«أوه، حسـنٌ، أجل. بوسـع المـرأة فعل ذلـك بسـهولة شـديدة! هـذا مـا ينسـاه الرجـال كثيـرًا. لقـد حسـبتني عشـيقة محرومـة مـن الحـب، فلم أكن سـوى عاهـرة باهظـة الثمـن».

«إلزابـث!»، قـال لاهثًـا، شـاحبًا حتـى الجفنيـن المحمريـن. لقـد رأت أن الكلمـة جرحـت شيئًا أكثـر مـن كبريائـه، وأنـه، قبـل أن يـدرك إهانـة حبـه، كان يرتعـد مـن الإسـاءة لذوقـه. عشـيقة! عاهـرة! كلمـات كهـذه محظـورة. لـم يسـتنكر أحـد بـذاءة الـكلام عنـد النسـاء أكثـر مـن هنـري پرسـت، وإحـدى مفاتـن السـيدة هازلديـن (كمـا أخبرهـا) كان أسـلوبها فـي البقـاء، «عبـر كل شـيء»، علـى نحـو يفـوق الوصـف، «السـيدة». نظـر إليهـا كأن شـكًا جديـدًا فـي عقلهـا قـد اسـتولى عليـه.

«أأتابع؟»، قالت باسمة.

حنـى رأسـه ببـرود. «مـا زلـت لا أصـدق السـبب الـذي يدعـوك لتجعلـي منـي أحمـق».

«حسـنٌ إذن، لقـد كان الأمـر كمـا قلـت. أردت المـال، المـال لأجـل زوجـي».

رطّب شفتيه. «لأجل زوجك؟»

«أجـل. حيـن أخـذ مرضـه يشـتد، حيـن احتـاج إلـى الراحـة والرخاء والفرصـة للنجـاة. لقـد أنقذنـي فـي صبـاي، مـن إذلال وضيـاع لا يوصفـان. لـم يحـرك أحـد سـاكنًا لمسـاعدتي سـواه، لا أحـد مـن

عائلتـي. لـم يكـن عنـدي المـال أو الأصدقـاء. وقـد سـئمت منـي السيدة مانـت، وكانـت تحـاول إيجـاد عـذر للتخلص منـي. أوه، لسـت تعلـم مـا علـى الفتـاة أن تقاسـيه –فتـاة وحيـدة فـي العالـم– تعتمـد للحصـول علـى ثيابهـا وطعامهـا والسـقف الـذي يظلهـا علـى نـزوات امـرأة عجـوز متقلبـة مغـرورة! ولأنـه أدرك، ولأنـه فهـم ذلـك، فقـد تزوجنـي... لقـد أخرجنـي مـن البؤس إلـى النعيـم. لقـد قدّمنـي عليهم جميعًـا... لقـد وضعنـي إلـى جانبـه. لـم أبـالِ بشـيء سـوى هـذا، لـم أعبـأ بالمـال أو الحريـة، لقـد اهتممـت بـه فحسـب. كنـت سـأتبعه إلـى الصحـراء، وأذهـب معـه حافيـة. لتضـورت جوعًـا، وتسـولت، ولفعلـت أي شـيء مـن أجلـه». توقفـت، فقـد ضـاع صوتهـا فـي النشـيج. لـم تعـد واعيـة لحضـور پرسـت؛ بـل كان كل وعيهـا مسـتغرقًا فـي الـرؤى التـي اسـتدعتها. «لقـد كان هـو مـن اهتـم، مـن أرادنـي أن أكـون غنيـة ومسـتقلة ومحبوبـة! أراد أن يجلـب كل شـيء لـي، فـي أثنـاء السـنوات الأولـى لـم أسـتطع إقناعـه بـأن يبقـي لنفسـه مـن المـال مـا يكفيـه... ثـم وقـع صريـع المـرض، ولمـا ازدادت حالـه سـوءًا، وانقطـع عـن العمـل شيئًـا فشيئًـا، أضحـى دخلـه أقـل، ثـم توقـف تمامًـا، اسـتمرت المصاريـف فـي الازديـاد؛ ممرضـات وأطبـاء وسـفر، وأصابـه الخـوف، الخـوف لا علـى نفسـه بـل علـي... ومـاذا كنـت سـأفعل؟ كان علـيّ أن أدفـع ثمـن الأشـياء بصـورة مـا. اسـتطعت فـي السـنة الأولـى إرجـاء الدفـع، ثـم اقترضـت مبالـغ صغيـرة مـن هنـا وهنـاك. لكـن هـذا لـم يسـتمر، وكان علـيّ طيلـة الوقـت أن أظهـر بمظهـر الجميلـة الأنيقـة، وإلا أخـذ يسـاوره القلـق. حيـن جئـتَ كنـتُ يائسـة، كنـت سـأفعل أي شـيء، أي شـيء! ظـن المـال قادمًـا مـن زوجـة أبـي البرتغاليـة. لقـد

كانت ثرية حقًا، كما تبين. لسوء الحظ أن أبي حاول استثمار مالها، فخسره كله، ولكن في أول زواجهما أرسلت إليّ ألف دولار، وكل شيء آخر، كل ما منحتَه لي، اعتمدت عليه».

صمتت لاهثة، كأن حكايتها بلغت النهاية. عاد إليها إدراكها بالحاضر شيئًا فشيئًا، ورأت هنري پرست، كأنه بعيد جدًّا، شخص ضئيل باهت يلوح عبر ضباب عينيها المغبشتين. قالت في نفسها: «إنه لا يصدقني»، فأثارت الفكرة حنقها.

«أحسبك تتساءل»، قالت ثانية، «كيف تجرؤ امرأة على الاعتراف بأمور كهذه عن نفسها...»

تتحنح. «عن نفسها؟ كلا، ربما لا. بل عن زوجها».

اندفع الدم حتى بلغ جبينها. «عن زوجها؟ لكنك لا تجرؤ على تصور...؟»

«لم تتركي»، رد بجفاء، «لي سببًا آخر». فوقفت بكماء، وأضاف: «على أي حال، هذا يفسر برودك المفرط، رأيته جسارة دومًا. وأتصور أنه ما كان عليّ أخذ الحيطة هكذا».

فكرت في هذا. «أتظنه عرف إذن؟ ولعلك تظن أنني عرفت أنه يعرف؟»، تفكرت ثانية متألمة، ثم أشرق وجهها. «لم يعرف قط، بتاتًا! هذا يكفيني، أما أنت فليس الأمر بذي بال عندك. فكر ما شئت. لقد كان سعيدًا حتى النهاية، وهذا كل ما يهمني».

«لا شك في صراحتك»، قال بشفتين مزمومتين.

«لا سبب آخر يدعوني ألا أكون صريحة».

حمل قبعته، وتأمل بطانتها بإمعان، ثم أخذ القفازين اللذين وضعهما فيها، ومررهما بتروٍّ على يديه. فقالت في نفسها: «حمدًا للرب، إنه مغادر!»

لكنه وضع القفازين والقبعة على الطاولة، واقترب منها أكثر. بدا وجهه منهكًا كوجه عربيد عند طلوع الصباح.

«لم تتركي شيئًا للخيال قطعًا!»، غمغم.

«أخبرتك بأن الأمر بلا جدوى»، قالت لكنه قاطعها: «لا شيء، إن الأمر... إن صدقتك». فرطّب شفتيه ثانية، وربت عليهما بمنديله. فوصلتها نفحة من الكولونيا مرة أخرى. «لكني لا أصدقك!»، قال معترضًا. «كثير من الذكريات... كثير من الشواهد...، يا عزيزتي...» فتوقف مبتسمًا بشيء من الاختلاج. وأدركت أنه تصور أن الابتسامة ستهدئها.

ظلت صامتة، وبدأ مرة أخرى، كأنما يستأنف ضد حكمها: «أعرف أكثر من هذا يا ليزي. رغم كل شيء، أعرف أنك لست من صنف النساء هذا».

«لقد أخذت مالك».

«بوصفه معروفًا. أعرف مصاعبك... وأتفهمها تمامًا. أتوسل إليك ألا تلمحي إليّ ثانية بـ.. بكل هذا». لقد تبادر إلى ذهنها أن أي شيء يمكن احتماله في نظره أكثر من ظنه أنه كان ساذجًا، وواحدًا من ساذجين! لم يكن بالدور الذي يتخيل نفسه يمثله. كانت كبرياؤه مدججة بالسلاح للدفاع عنها، ليس من أجل خاطرها بقدر ما هو من أجله. لقد منحها الاكتشاف إحساسًا محيرًا بالعجز، مقابل ذلك الاستغناء الحصين الذي ستذهب كل براهينها من أجله أدراج الرياح.

«ما من رجل حظي بشرف أن ينال حبك يمكنه للحظة...»

رفعت رأسها ونظرت إليه. «لم تحظ بذلك الامتياز قط»، قاطعته.

فغر فاه. رأت عينيه تنتقلان من الاستعطاف القلق إلى الغضب البارد. فنخر نخرة صغيرة قبل أن يعود إليه صوته.

«أنت لا تتركين فرصة دون أن تنتقصي من شأنك في عينيّ».

«أنا لا أنتقص من شأني. بل أخبرك بالحقيقة. احتجت إلى المال، ولم أجد وسيلة لكسبه. وكنتَ راغبًا في منحه... مقابل ما تسميه الامتياز...»

«ليزي»، قاطعها بوقار، «لا تتابعي! أحسب أنني امتلكت كل أحاسيسك، وأحسبني كنت كذلك دومًا. في طبع مرهف جدًّا، مفرط الحساسية، ثمة لحظات تمحو فيها الهواجس كل إحساس آخر... ومن أجل هذه الهواجس فإني أجلّك أكثر. لكني لن أسمع كلمة أخرى الآن. إن سمحت لك بالمتابعة في حالتك هذه من... الأعصاب المنهكة... فقد تكونين أول من يندم ... أرجو أن أنسى كل ما قلته... أرجو أن أتطلع إلى المستقبل لا الماضي...»، وقوّم كتفيه، وأخذ نفسًا عميقًا وثبتها بنظرة من الثقة المستعادة. «لا تعرفينني جيدًا إن ظننتني سأخذلك الآن!»

ردت نظرته بثبات مضنى. «إنك لطيف، وتود أن تكون كريمًا، أنا واثقة. ولكن ألا ترى أني لا أستطيع الزواج بك؟»

«لست أرى سوى هذا، في الدفقة الطبيعية لندمك...»

«ندم؟ ندم؟» وتوقفت لتضحك. «أتتخيل أني أشعر بأي ندم؟ سأكرر كل ما فعلت بدءًا من الغد، من أجل الغاية نفسها! لقد حصلت على ما أردت، ومنحته تلك السنة الأخيرة، السنة الأخيرة الجميلة. لقد أبقاه الارتياح من القلق على قيد الحياة، وذاك أبقاه سعيدًا. أوه، لقد كان سعيدًا، أعلم ذلك!»، واستدارت نحو برست

بابتسامة غريبة. «إني أشكرك على ذلك، أنا لست بالجاحدة».

«أنت... أنت... جاحدة؟ هذا... هذا حقًا لا يليق...»، رفع قبعته، ووقف في منتصف الغرفة كأنه ينتظر إيقاظه من كابوس.

«إنك ترفضين فرصة...»، قال.

فأتت بحركة صغيرة علامة الموافقة.

«أتدركين ذلك؟ ما زلت مستعدًا... لمساعدتك، إن أردت...»، لم تجب بشيء فتابع كلامه: «كيف تحسبين أنك ستعيشين، ما دمت قد اخترت التفكير في اعتبارات كهذه؟»

«لست أهتم كيف سأعيش. لم أطلب المال لنفسي قط».

فرفع يدًا مستنكرة. «أوه، لا تبدئي... ثانية! المرأة التي عزمت أن...»، وعلى حين غرة، فوجئت إذ رأت شيئًا رطبًا يلمع على جفنيه السفليين. فمرر منديله عليهما، ولجم شذا العطر اندفاعتها الزائلة لتبكيت الضمير. تلك الكولونيا! لقد استدعت الصورة تلو الصورة بدقة لئيمة. «حسنٌ، لقد كان الأمر مستحقًا»، غمغمت مراوغة.

أعاد هنري پرست منديله إلى جيبه، وانتظر منقلًا نظره في أنحاء الغرفة، والتفت إليها.

«إن كان قرارك نهائيًا...»

«أوه، نهائي!»

انحنى. «ثمة أمر واحد، نويت ذكره إن منحتني الفرصة لرؤيتك بعد... بعد نهار رأس السنة الفائتة. شيء فضلت ألا أقدم على كتابته...»

«أجل؟»، تساءلت بلامبالاة.

«زوجك، إنك واثقة تمام الثقة، ليس عنده فكرة... ذلك اليوم...؟»

«بتاتًا».

«حسنٌ، يبدو أن الآخرين عندهم»، صمت، «لقد رأتنا السيدة ويسن».

«هذا ما ظننته. أتذكر الآن أنها لم تكن على عادتها وتجاهلتني ذلك المساء في بيت السيدة ستروثر».

«تمامًا. ولم تكن بالوحيدة التي رأتنا. لولا أن أخرس الناسَ اعتلالُ زوجك ذلك اليوم نفسه، لوجدت نفسك... منبوذة».

لم تعقّب بشيء، فتابع بمحاولة أخيرة: «في حدادك، وعزلتك لم تدركي كيف سيكون مستقبلك، وصعوبته. هذا ما تمنيت أن أحميك منه، لقد كان غايتي من طلبك للزواج»، فاعتدل وابتسم كأنه كان ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة، واستحسنها. «إن رجلًا لم يواته الحظ في استرضاء امرأة ملزم بحق الشرف، وإن لم تكن تلك رغبتي، فلا بد أن أفكر...»

التفتت نحوه بابتسامة رقيقة. أجل، لقد أوحى لنفسه بالظن أنه يطلبها للزواج لإنقاذ سمعتها. ولدى هذه اللمحة من الثوابت القديمة المكرورة الذي صدق حقًا أن سلوكه مبني عليها، أحست بتجدد ابتعادها عن الحياة التي يود إعادتها إليها.

«يا هنري المسكين، ألا ترى أنني تجاوزت السيدة ويسن بكثير؟ إن أرادت كل نيويورك أن تنبذني فلتفعل! لقد عشت حياتي، وليس لامرأة أن تحظى بأكثر من حياة واحدة. ولماذا لا أدفع ثمن ذلك؟ أنا مستعدة».

«يا رب السماء!»، همس.

كانت مدركة أنه استنفد محاولته الأخيرة. والجرح الذي نكأته قد بلغ نقطة قاتلة، لقد تفادت أن يكون رحب الصدر، والجرح لا يغفر. كان سعيدًا، أجل، سعيدًا حقًا الآن، بأن أفضى لها أن نيويورك تنوي نبذها، ولكن القتال، كما ستفعل، لن يجعلها تهتم للحقيقة، أو للمتعة السرية فيها. لقد كانت متعتها السرية بعيدة عن منال نيويورك ومناله.

«أنا آسفة»، كررت برفق. وانحنى، دون أن يحاول أخذ يدها، وغادر الغرفة.

حين أغلق الباب تبعته بنظرة ذاهلة. «أحسبه محقًا، لست أدرك بعد...»، سمعت إغلاق الباب الخارجي، وتهاوت على الأريكة، ضاغطة يديها على عينيها المتألمتين. في تلك اللحظة، لأول مرة، سألت نفسها كيف سيكون اليوم التالي، والذي يليه...

«لو أنني أهوى القراءة قليلًا»، تأوهت متذكرة محاولاتها هباء في أن تكتسب ميل زوجها، وأنه ابتسم برفق ومرح على محاولاتها. «حسنٌ، أوراق اللعب موجودة دومًا، وحين يتقدم بي العمر فلي الحياكة والصبر، كما أرى. وإن قاطعني الجميع، فلن أكون بحاجة إلى أثواب مسائية. سيكون هذا اقتصادًا على أي حال»، خلصت برعشة صغيرة.

7

«كانـت امـرأة سـيئة... دومًـا. اعتـادا اللقـاء فـي فنـدق الجـادة الخامسـة».

عليّ العـودة الآن إلـى عبـارة أمـي هـذه؛ العبـارة، التـي، ابتعـدت عنهـا، فـي بدايـة سـردي، بعـض الوقـت بغيـة أن أركـز بحيويـة أكثـر علـى مشـهد رؤيـة الحركـة القلقـة لليـزي هـازلديـن، صـورة فيهـا ذكريـات للمحـة وحيـدة صبيانيـة لهـا لُملمـت إلـى جانـب الإشـارات التـي جمعـت بعدئـذ.

حيـن نطقـت أمـي حكمهـا المسـتهجن كنـت شـابًا فـي الحاديـة والعشـرين، حديـث التخـرج فـي هـارڤرد، وعـدت مـرة أخـرى إلـى بيـت العائلـة فـي نيويـورك. مـر وقـت طويـل منـذ أن سـمعت حديثًـا عـن السـيدة هـازلديـن. كنـت بعيـدًا، فـي المدرسـة وهـارڤرد فـي الجـزء الأعظم من المـدد الفاصلـة، أمـا فـي العطـلات فلم تكن على الأرجح بالموضـوع الملائـم للحديـث، وبخاصـة فـي أثنـاء حضـور أخواتـي.

علـى أي حـال، لقـد نسـيت كل مـا عرفتـه عنهـا حيـن أشـار قريبـي هبـرت ويسـن- الـذي لـم يعـد يفوقنـي طـولاً كعمـود نـادي نكربروكـر، والمتبحـر الحاسـم فـي كل شـؤون العالـم- فـي الأمسـية التـي أعقبـت عودتـي إلـى انضمامنـا إليهـا فـي الأوپرا.

«السيدة هـازلدين؟ ولكنـي لا أعرفهـا. مـاذا ستقـول؟»

«لا بـأس بهـذا. هلـم بنـا. إنهـا أكثـر النسـاء مرحًـا. سـنعود بعدئـذ ونتنـاول العشـاء معهـا، فـي أبهـج المنـازل التـي أعرفهـا»، وفتـل هبـرت شـارب الاعتـداد بالـذات.

كنا نتغدى في نادي نكربروكر، الذي انتسبت إليه، وحرضتني زجاجة پومري التي أوشكنا أن نفرغها على التفكير في أن لا شيء أنسب لرجلين في العالم من ختام أمسيتهما في مقصورة أكثر امرأة مرحة ممن عرفهن هبرت. تحسست شاربي، وفتلت الفراغ، وتبعته، بعد أن لففت كم معطفي بإتقان حول قبعتي الحريرية كما رأيته يفعل.

ولكن حالما دخلت مقصورة السيدة هازلدين لم أكن إلا فتى يافعًا ثانية، غارقًا في الخجل الذي اعتاد، في العمر نفسه، أن يعتري هبرت، ناسيًا أن عندي شاربًا يفتل، ومسقطًا قبعتي من المشجب الذي علقتها عليه لتوي، في اندفاعي لالتقاط البرنامج الذي لم تسقطه.

لقد كانت بالغة الجمال، جميلة جمالًا مرعبًا جدًّا. اعتدت الجمال الخالص الذي لا يوصف، من النوع الذي يكسوه الشباب والروح مثل خمار وردي على تقاطيع عادية، شكل عادي ومرح فارغ. لكن هذا كان شيئًا مدروسًا ومكتملًا وتامًا وباليًا قليلًا. لقد أثار ذعري مع نظرتي الأولى إلى الجمال اللامتناهي وتضاعُف عثراتها. حقًّا! أثمة نساء ليس عليهن الخوف من التجاعيد حول العينين، وهن أجمل في شحوبهن، ويسعهن السماح لشعرة فضية أو اثنتين بتخلل الشعر الداكن، وأعينهن تتأمل الداخل وهن يبتسمن ويدردشن؟ فلن يكون أي شاب في مأمن للحظة إذن! لكن العالم الذي عرفته حتى الآن ليس إلا حضانة وردية دافئة، أما هذا الجديد فهو مكان للظلمة، والمآزق والافتتان...

سألتني أختي اليوم التالي أين قضيت الأمسية الفائتة، فنفخت

صدري لأجيبها: «مع السيدة هازلدين، في الأوپرا». نظرت أمي، لكنها لم تتحدث حتى أخذت المربية الفتيات، ثم قالت لي بشفتين مزمومتين: «أأخذك هبرت ويسن إلى مقصورة السيدة هازلدين؟»

«أجل».

«حسنٌ، يذهب الشاب حيثما شاء. سمعت أن هبرت لم يزل مستهترًا، وهذا جزاء سابينا لأنها لم تسمح له بالزواج بأصغر فتيات ليمان. ولكن لا تذكر اسم السيدة هازلدين أمام أخواتك ثانية... يقولون إن زوجها لم يعرف قط، وأحسبه لو عرف لما حصلت على مال سيسيليا ونتر العجوز». وحينئذ لفظت أمي اسم هنري پرست، وأردفت بعبارة فندق الجادة الخامسة التي أيقظت ذكريات صباي على حين غرة...

في ومضة رأيت ثانية، تحت خماره الذي أسدل سريعًا، الوجه ذا العينين المكشوفتين والابتسامة الجامدة، وأحسست عبر صدارة شبابي الطعنة تنفذ إلى قلب الصبي والهمسات الطليقة لروحي، أحسست بهذا كله، وحاولت في الآن نفسه أن أتذكر هذا الوجه القديم، يانعًا صافيًا رغم وجعه، للهيئة الباسمة الحذرة لعبارة هبرت «أكثر امرأة عرفتها مرحًا».

اعتدت استخدام هبرت العشوائي لصفته الوحيدة، ولم أنتظر أن أجد السيدة هازلدين «مرحة» بالمعنى الحرفي؛ ففي حالة السيدة التي وقع في غرام النعت من أجلها كان ذلك يعني أنها راضية عن خياره. ورغم ذلك، لما قارنت وجه السيدة هازلدين قبلًا بوجهها هذا، أدركت لأول مرة ما قد حدث في السنوات الطويلة بين الشباب والنضج، وقصر المسافة التي قطعتها في

الرحلة الغامضة. لو أنها تأخذني من يدي فحسب!

لم أفاجأ تمامًا بتعليق أمي. ما كان في مقصورة السيدة هازلدين سيدة أخرى حين دخلنا، ولم ينضم أحد إلينا في أثناء الأمسية، ولم تعتذر مضيفتنا عن وحدتها. في نيويورك شبابي عرف الجميع ما يظن بامرأة تُرى «وحيدة في الأوپرا»، لو لم تصنف السيدة هازلدين صراحة مع فاني رنغ، «محترفتنا» الوحيدة، كان ذلك، بعيدًا عن أصلها الاجتماعي، أن نيويورك آثرت تفادي تقارب كهذا. ورغم صغري، فقد عرفت هذا القانون الاجتماعي، وخمنت قبل انقضاء الأمسية أن السيدة هازلدين لم تكن سيدة تزورها السيدات الأخريات، رغم أنها في المقابل لم تكن سيدة يحرم ذكرها أمام السيدات الأخريات. لذا ذكرتها متبجحًا.

لم تظهر أي سيدة في الأوپرا مع السيدة هازلدين، غير أن واحدة أو اثنتين حضرتا العشاء البهيج الذي ذكره هبرت، الذي تضمنت بهجته قدرًا جيدًا من المزاح اليسير حول خلفيات رقع التطريز والكرفس، مع أجود أنواع الشامپانيا. هؤلاء السيدات أنفسهن التقيتهن أحيانًا في بيتها بعدئذ. كن غالبًا أصغر من مضيفتهن، ولم يزلن، في النطاق الاجتماعي بلا ثبات، نساء جميلات تافهات، ضجرات من رتابة الرخاء، ويتقن إلى مباهج مخالفة كالسجائر، والكلام الصريح، والعودة إلى البيت في ساعات الصباح الأولى مع رجل الساعة. لكن الجريئات كهؤلاء قليلات في نيويورك القديمة، وحضورهن شحيح ومختلس. ضم مجتمع السيدة هازلدين في الأغلب رجالًا، رجالًا من كل الأعمار،

مـن مجاليلهـا الصلعـان أو ذوي الشـعر الأشـيب، إلـى الشـباب مـن أقـران هبـرت الكيسـين أو المبتدئيـن الأغـرار أمثالـي.

سـاد احتـرام ولياقـة عظيميـن فـي محيطهـا. لـم يكـن الاحتـرام الطاغـي الـذي يثقـل علـى المنصلحيـن الذيـن فقـدوا مكانتهـم، بـل هيئـة الراحـة التـي تنشـرها امـرأة ذات رفعـة أسـقمها المجتمـع فسدّت أبوابهـا فـي وجـه الجميـع عـدا خاصتهـا. يشـعر المـرء دومًـا، فـي بيـت ليـزي هـازلديـن، بـأن اللحظـة التاليـة قـد يعلـن عـن قـدوم جدتـه أو خالاتـه، غيـر أنـه واثـق ثقـة كبيـرة بأنهـن لـن يأتيـن.

مـا الـذي فـي هـواء بيـوت كهـذا تجعلهـا سـاحرة فـي عيـن شـاب نيـق واسـع الخيـال؟ لـمَ تعـرف «هـؤلاء النسـوة» (كمـا تسـميهن الأخريـات) وحدهـن كيـف يخلصـن الأخـرق مـن حرجـه، ويتفقـدن العـادي، ويبتسـمن قليـلًا للمتعالـم، ولكنهـن يدفعـن الجميـع ليكونـوا علـى طبيعتهـم؟ يشـعر المـرء باختـلاف الجـو منـذ وقوفـه علـى العتبـة. إن الزهـور تكبـر مختلفـة فـي مزهرياتهـن، والمصابيـح والكراسـي الوثيـرة وجـدت طريقـة أذكـى للاجتمـاع، والكتـب علـى الطاولـة هـي بعينهـا الكتـب التـي يتحـرق المـرء لإمسـاكها. لعـل التـودد المحفـوف بالمخاطـر لا يكمـن فـي أسـلوب المـرأة فـي تنسـيق ثيابهـا بـل فـي أسـلوبها فـي تنسـيق حجـرة اسـتقبالها، وفـي هـذا الفـن برعـت السـيدة هـازلديـن.

تحدثـتُ عـن الكتـب، حينئـذ كانـت أول شـيء يجـذب نظـري فـي غرفـة، أيًـا كان مـا ضمتـه مـن جمـال آخـر، وأذكـر فـي أمسـية ذلـك «العشـاء البهيـج» الأول، وقفـت ذاهـلًا أمـام الرفـوف المكتظـة التـي احتلـت جـدارًا مـن غرفـة الاسـتقبال. يـا إلهـي! أتقـرأ الربـة إذن؟

يمكنها أن تأخذ واحدًا وترتقي به قلبات السلالم أيضًا؟ تعيش واحدًا بلا شك؟ أخذ قلبي يدق نشوان...

لكني سرعان ما عرفت أن ليزي هازلدين لا تقرأ. لقد قلبت بكسل صفحات آخر رواية لويدا[1]، وأذكر أني رأيت رواية مالوك الجمهورية الجديدة[2] لم تمس على طاولتها لأسابيع. لم أحتج إلى وقت طويل لاكتشاف الأمر؛ ففي زيارتي التالية رأت نظرتي الدهشة ناحية الكتب المزدحمة، فابتسمت واحمر وجهها قليلًا، وردت نظرتي باعترافها: «كلا، لا يمكنني قراءتها. لقد حاولت -لقد حاولت- لكن الطباعة تثير نعاسي. وكذلك الروايات...». وتعود «ها» إلى الكنوز المجموعة من الشعر الإنجليزي، وانتقاءات فاخرة ومتنوعة من التاريخ، والنقد والأدب، بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية -عرفت أنها تتحدث هذه اللغات- لا شك في أن الكتب جمعها قارئ مرهف الحس واسع الاطلاع. كنا وحدنا حينئذ، وواصلت السيدة هازلدين بنبرة أخفض: «احتفظت بالقلائل التي أحبها، زوجي كما تعلم». كانت أول مرة ينطق فيها اسم تشارلز هازلدين بيننا، وكانت دهشتي عظيمة حد أن وجنتي البيضاء عكست حمرة وجنتيها. ظننت أن النسوة في وضعها يتحاشين الإشارة إلى أزواجهن. لكنها واصلت النظر إلي، بحزن وتواضع، كأنها تود قول المزيد، وكانت في سرها تتوسل إليّ لأفهم.

«كان قارئًا عظيمًا وباحثًا. وحاول جاهدًا أن يدفعني إلى

---

(1) الاسم الأدبي (مشتق من نطق طفولي لكلمة لويزا) للأديبة ماريا لويز دي لا رامي، روائية إنجليزية.

(2) وليم هرل مالوك: روائي وكاتب اقتصادي إنجليزي.

القـراءة أيضًـا؛ إذ أراد مشـاطرتي كل شـيء. وأحببـت الشـعر – بعـض الشـعر– حيـن يقـرؤه علـى مسـامعي. قلـت فـي نفسـي بعـد موتـه: «لـدي كتبـه، بوسـعي العـودة إليهـا، وسـأجده هنـاك». وحاولـت -أوه، حاولـت جهـدي- ولكـن سـدى. لقـد فقـدت معناهـا... مثلهـا مثـل أشـياء أخـرى كثيـرة». نهضـت وأشـعلت سـيجارة، وألقـت بجـذع إلـى المصطلـى. شـعرت بأنهـا تنتظرنـي لأتكلـم. لـو علمتنـي الحيـاة كيـف أجيبهـا، فمـا الـذي لـم أعرفـه عـن حياتهـا؟ لكنـي كنـت غـرًا جدًّا، ولـم أسـتطع التخلـص مـن حيرتـي. حقًـا! تلـك المـرأة التـي كنـت أشـفق علـى تعاسـتها فـي زواجهـا وهـذا مـا بـرر بحثهـا عـن العـزاء فـي مـكان آخـر؛ هـذه المـرأة تتحـدث عـن زوجهـا بنبـرة كهـذه! أدركـت فـي الحـال أن النبـرة ليسـت مصطنعـة، وعقـد لسـاني شـعور مضطـرب مـن تعقيـد –أو فوضـى- العلاقـات البشـرية مثـل تلميـذ وقـع فـي مـأزق يفـوق قدرتـه.

لقـد قـرأت الفكـرة قبـل أن تتخـذ شـكلًا، وبابتسـامة رسـمت خطوطًـا حزينـة حـول شـفتيها قالـت جزلـة: «مـا الـذي تنـوي فعلـه هـذا المسـاء، بالمناسـبة؟ مـا رأيـك فـي الذهـاب إلـى «بـلاك كـروك» مـع نسـيبك هبـرت وواحـد أو اثنيـن آخريـن؟ عنـدي مقصـورة».

تعـذر حينئـذ، بعـد اعتـراف صريـح كهـذا، ألا أقنـع نفسـي بـأن الميـل إلـى القـراءة مضجـر فـي المـرأة، وأن أحـد أبـرز ملامـح الفتنـة فـي السـيدة هازلديـن يكمـن فـي تحررهـا مـن الاصطنـاع الأدبـي. وكانـت الحقيقـة طبعًـا أنـه يكمـن فـي صدقهـا، وفـي تقديرهـا المتواضـع الجسـور خصالَهـا وعيوبهـا. لـم أرَ مثيـلًا لهـذا فـي امـرأة مـن أي عمـر، وأن أكتشـفه فـي الأيـام الأولـى، ويكتسـي بنظـرات

وشروح كهذه، فقد أنقذني، بعد سنوات، من كل مأزق مع جميلات أكثر لؤمًا.

ولكن قبل أن أدرك ذلك، أو أن أخمن ما سيفعله بي الوقوع في غرام ليزي هازلدين، كنت قد وقعت فيه بغفلة وحمق. تبين أن العلاقة، في السنوات المحتملة، لم تكن إلا حادثة من صداقتنا الطويلة، وإن مررت عليها هنا، فما ذاك إلا لأبين واحدة من مواهب صديقتي المسكينة. إن لم تقرأ الكتب فهي تقرأ القلوب، وحنت على قلبي بنظرة لعوب عطوف وهو لم يزل يتخبط في غفلته.

أتذكر ذلك كأنما حدث البارحة. كنا نجلس وحدنا في حجرة استقبالها، في شفق الشتاء، قرب النار. وصلنا إلى -ولم يكن ذلك صعبًا برفقتها- مرحلة من الصداقة يغرق فيها الكلام الودود إلى صمت أكثر ودًا، وأخذت صحيفة المساء وأنا أحملق أبكم إلى الجذوات. قدم صغيرة تبرز من تحت فستانها، تتأرجح، كما أذكر، بيني وبين النار، كأنها توقفها في ارتداد مشطها...

«أوه»، قالت، «مسكين هنري پرست». وألقت الصحيفة «ماتت زوجته، يا له من مسكين»، قالت بهدوء.

اندفع الدم إلى جبيني، وبلغ قلبي حنجرتي. لقد ذكرت اسمه، ذكرت اسمه أخيرًا، العاشق الخائن، الرجل الذي لوث سمعتها! قبضت يديّ، كأنه دخل الغرفة والتفتا حول عنقه...

ثم، بعد صمت قصير، راودني إحساس مذل موهن من عدم الفهم، من كوني صغيرًا جدًا، وغرًا جدًّا لأعرف. هذه المرأة، التي تحدثت عن زوجها المخدوع برقة، وتتحدث بعطف عن عاشقها الغدار! وقد فعلت هذا على نحو عادي مثلما تحدثت

عن الآخر على نحو عادي، لا كأنما هذا العطف النزيه موقف اعتزمت التظاهر به، بل كأنه جزء من الدرس الذي لقنتها إياه الحياة.

«لم أعلم أنه كان متزوجًا»، زمجرت من بين أسناني.

ففكرت شاردة الذهن. «متزوج؟ أوه، نعم، متى حدث ذلك؟ بعد عام من...»، وتهدج صوتها ثانية... «بعد موت زوجي. تزوج قريبة هادئة أغرمت به دومًا كما أظن. وصار لهما ولدان، أتعرفهما؟»، تساءلت بسرعة.

أومأت متجهمًا.

«ظن الناس دومًا أنه لن يتزوج أبدًا، كان يقول هذا بنفسه»، فتابعت ولم تزل شاردة.

فانفجرت: «الكلب!»

«أوه!»، قالت. فنهضت والتقت أعيننا، واغرورقت عيناها بدمع الاستهجان والتفهم. جلسنا نتبادل النظرات في صمت. انهمرت دمعتان، وتعلقتا على أهدابها، وسالتا على وجنتيها. واصلت النظر إليها خجلًا، ثم نهضت وأخرجت منديلي، ومسحتهما مرتعشًا متحفظًا كأني ألمس صورة مقدسة.

لم يدم غرامي. في لحظة أخرى جهدت على أن يكون بيننا مسافة آمنة. لم ترغب في سلب عقل ولد، إذ منذ زمن بعيد (كما قالت لي لاحقًا) لم تعد هذه التسالي تثيرها. لكنها أرادت عطفي، وأرادته بقوة، في خضم المشاعر المختلفة التي تدرك تلاطمها، أتاحت لي أن أرى ذلك العطف، في إدراكي المتأثر، قد افتُقد دومًا. «لكن حينئذ»، أردفت ببراءة، «لم أكن واثقة تمامًا،

لأني لم أخبر أحدًا بقصتي. غير أنني آمنت بأني إن لم أفعل، فذلك ذنبهم لا ذنبي...»، ابتسمت بشيء من الاستهجان، وامتلأت زهوًا، وقد أدركت تمييزي. «والآن أود أن أخبرك...»، قالت.

قلت إن حبي للسيدة هازلدين كان حكاية قصيرة من علاقتنا الطويلة. في عمري كان يجب أن تكون كذلك. وسرعان ما جاء «الوجه الأينع»، وفي ضوئه رأيت صديقتي القديمة امرأة في منتصف العمر، يتحول شعرها إلى البياض، لها ابتسامة عفوية وعينان قلقتان. ولكن في الوهج الأول لمشاعري أخبرتني بقصتها، وحين خفت الوهج، وفي ضوء العصر لألفة طويلة حكمت على أقوالها واختبرتها، ووجدت أن كل تفصيل انسجم مع الصورة الأسبق.

كانت فرصي كثيرة، فقد أخبرتني مرة الحكاية التي أرادت أن تقصها عليّ ثانية. غدا توق دائم إلى عيش الماضي ثانية، وحاجة أزلية إلى الشر والتبرير، وإرضاء هاتين الرغبتين، ما إن سمحت لنفسها بمداعبتهما، ترف حياتها الفارغة. لقد أبقتها فارغة –فارغة من العاطفة والحس- منذ أن مات زوجها، مثل حارس معبد مهجور يستمر إلى الأبد في كنس وترتيب ما كان يومًا مقام الرب. لكنها بعد أن أدت هذا الواجب لم يعد لديها غيره. لقد فعلت أمرًا عظيمًا، أو شنيعًا، صفه بما تشاء، لكنها فعلته ببطولة. ولكن لم يبق فيها ما يجعلها تحتفظ بهذا السمو. فميولها واهتماماتها ومشاغلها المتخيلة كانت كلها على صعيد الأمور المنزلية العادية، لم تعرف كيف تخلق لنفسها أي حياة داخلية باحتفاظها بذلك الدافع غير المسبوق.

بعد موت زوجها، إحدى قريباتها، الآنسة سيسيليا ونتر قاطنة ميدان واشنطن التي أشارت إليها أمي، قد ماتت أيضًا، وتركت للسيدة هازلدين تركة كبيرة. وبعد عام أو اثنين خضع بيت تشارلز هازلدين الصغير للتغيير الجميل الذي طرأ على عقارات نيويورك في الثمانينيات. لقد تضاعفت مرتين قيمة الأملاك التي أورثها لزوجته، ثم ثلاث مرات، ووجدت نفسها بعد بضع سنوات من الترمل، تملك دخلًا كبيرًا يؤمّن لها كل المباهج التي قاسى زوجها كثيرًا ليؤمنها لها. كانت السخرية الغريبة من جماعتها بأن تحفظ من كل الإغراءات حين انتهى خطر كل إغراء، إذ إني واثق بأنها ما كانت لتمد أنملها لأي رجل لتنال هذه المباهج من أجل متعتها. لكنها إن لم تقدّر مالها من أجل المال، فقد كانت مدينة له -وهذا المعروف أكبر مما تدرك- بقدرته على كبح عزلتها، وملئها بالملهيات الصغيرة التي ما كانت لتتمكن من العيش دونها.

لقد جاءت إلى العالم، فيما يبدو، لتسلية الرجال وفتنتهم، لكن لما كان زوجها ميتًا، وتضحيتها انتهت، فإني واثق بأنها تفضل أن تحبس نفسها وحيدة تتذكر، مع أفكار ومساعي توازي ساعتها العظيمة. ولكن ماذا ستفعل؟ لم تجد وسيلة لكسب المال إلا جمالها، وها هي الآن لا تعرف وسيلة تشغل بها أيامها سوى لعب الورق والأحاديث والذهاب إلى المسرح. لم يجتز أي رجل ممن اقتربوا منها حاجز الصداقة الذي وضعته أمامي. كنت واثقًا من هذا. لم تبعد هنري پرست لتتخذ غيره بديلًا، وقد ابيضّ وجهها لهذا التلميح. ولكن ماذا لديها لتفعله سوى هذا، سألتني، ماذا؟ لا بد من قضاء الأيام بصورة ما، وكانت تحب الاختلاط بالناس حبًا تعسًا لا براء منه.

هكذا عاشت، في تبتل بارد مر دون سبب أعرفه، هكذا عاشت، مبتعدة عنا جميعًا، غير أنها تحتاج إلينا جدًّا، مخلصة في سريرتها لدافعها الوحيد السامي، لكنها عاجزة عن ملاءمة سلوكها اليومي له! وهكذا، في اللحظة عينها التي ما عادت فيها مستحقة للوم المجتمع، وجدت نفسها منبوذة منه، وغدت الأرملة «الجريئة» المعروفة بدعوات عشائها المرحة.

كنت حائرًا لأعماق محنتها. تساءلت كثيرًا ماذا أيضًا، في كل مراحل مسيرتها، أمكنها أن تفعل؟ بين الشابات اللاتي يكبرن الآن من حولي لم أجد واحدة تتمتع بخيال كافٍ لتصور العجز البائس لفتاة جميلة في السبعينيات، والفتاة لا مال لها ولا مهنة، ويبدو أنها جاءت إلى العالم لتسعد، ولم تتعلم بأي صورة أن تعيل نفسها بجهدها. كان الزواج وحده المنقذ لفتاة كهذه من الجوع، ما لم تصادفها سيدة عجوز أرادت لكلابها أن تتنزه وأن تقرأ لها مجلة الكنيسة. حتى يوم رسم الزهور البرية على المراوح، أو تلوين الصور «لتشبه» المنمنمات، وصنع ظلل المصابيح وتزيين القبعات لصديقات حظهن أوفر، حتى هذه البداية العابرة لاستقلال المرأة لم تبدأ. كان محالًا في نظر جيل أمي أن تُعال فتاة لا ميراث لها حتى تجد لها زوجًا، أو كان أكثر استحالة وجوب معاونتها له، بعد أن تجده، على كسب العيش. لم يرَ المجتمع الصغير المكتفي بذاته في نيويورك البائدة أهمية كبرى للثروة، لكنه رأى الفقر بغيضًا جدًّا لذا لم يأبه له.

كانت هذه الأمور حجة في صالح ليزي هازلدين، رغم أن حياتها اليومية في نظر المراقب الخارجي دحضت الادعاء. لم

تعرف وسيلة لتريح زوجها في آخر سنيّه إلا بالكذب عليه، ولكنها بعد موته، كفرت عن خيانتها بجفائها الذي لم تطلب مكافأة عليه سوى سكينتها. ولما تقدم بها العمر، وتفرق أصدقاؤها وتزوجوا أو ابتعدوا عنها لسبب أو لآخر، ملأت محيطها الناضب بيد أقل صرامة. يلتقي المرء في حجرة استقبالها رجالًا مملين، ورجالًا عاديين، ورجالًا واضح كل الوضوح أنهم أتوا لأنهم لم يدعوا إلى مكان آخر، وأملوا استغلالها لتكون حجر ارتقاء في المجتمع. كانت مدركة الفارق- فقد قالت عيناها ذلك كلما وجدت واحدًا من هؤلاء الوافدين الجدد جالسًا في كرسيي ذي المسندين- لكنها لم تعترف به بالقول أو الإشارة. قالت لي مرة: «إنك تجد المكان هنا أكثر مللًا من ذي قبل. ذاك خطئي، ربما، إذ ظننت أني أحسن انتزاع أصدقائي القدامى». وفي يوم آخر: «تذكر، إن الناس الذين تراهم هنا يأتون بدافع اللطف. أنا امرأة مسنة، ولا أفكر في شيء آخر»، كان هذا كل شيء.

ترددت إلى المسرح والأوپرا بمواظبة أكبر، وقدمت لأصدقائها مئة خدمة صغيرة، وفي شوقها لتكون دائمة الانشغال ابتدعت مجاملات مسرفة، واستحوذت على الناس بتقديم مساعدة ليسوا بحاجة إليها، مقتربة أحيانًا -رغم كل كياستها- من تطفل شديدي الوحيدين. فاجأتنا في دعوات عشائها الصغيرة بزهور غريبة وأطايب جديدة. وغدت الشامپانيا والسيجار أغلى فأغلى لما تراجع شأن الضيوف، وأحيانًا، لدى خروج آخر ضيوفها المملين، أراها بين النفاضات المتناثرة وأباريق الشراب، تختلس

نظـرة إلـى صورتهـا فـي المـرآة، بعينيـن منهكتيـن كأنهمـا تسـألان: «أسـيعود هـؤلاء غـدًا؟»

سـأكون خبيثًـا إن توقفـت عـن الوصـف هنـا، فآخـر ذكـراي عنهـا أسـعد. كنـت بعيـدًا، مسـافرًا لعـام فـي الطـرف الآخـر مـن العالـم، وفـي يـوم عودتـي صادفـت هبـرت ويسـن فـي ناديـي. غـدا هبـرت ممتلئًـا وثقيـلًا. أخذنـي إلـى ركـن، وقـال، وقـد احمـر، ناظـرًا بحـذر خلفـه: «أرأيـت صديقتنـا القديمـة السـيدة هازلديـن؟ سـمعت أنهـا مريضـة جـدًّا».

كنـت علـى وشـك أن أسـأل عـن «سـمعت»، لكنـي تذكـرت أن هبـرت تـزوج فـي غيابـي، وأن هـذا الحـذر علـى الأرجـح عائـد إلـى وضعـه الجديـد. أسـرعت مـن فـوري إلـى بيـت السـيدة هازلديـن، وفوجئـت علـى عتبـة بابهـا، بمصادفتـي الكاهـن الكاثوليكـي الـذي نظـر إلـيّ بحـزن، وانحنـى ورحـل.

لـم أكـن مسـتعدًا لحـدث كهـذا، إذ لـم تتحـدث إلـيّ صديقتـي القديمـة فـي أمـور الديـن. لا بـد أن رؤيـة مسـيرة أبيهـا قـد قضـت علـى أي بدايـة للإيمـان داخلهـا، رغـم أنهـا فـي صباهـا، كمـا أخبرتنـي، كانـت بالغـة الإعجـاب ببلاغـة الطبيـب ونتـر كأي عضـو راشـد مـن جماعتـه. ولكـن الآن، حالمـا رأيتهـا، فهمـت. كانـت معتلـة جـدًا، بـل كانـت تحتضـر، وفـي بلائهـا أرسـل القـدر، الـذي لـم يكـن رفيقًـا دومًـا، العـزاء الـذي احتاجـت إليـه. أسـتيقظ فيهـا أي إرث غامـض مـن الشـعور الدينـي؟ أتذكـرت أن أباهـا الفقيـر، بعـد حياتـه الطويلـة مـن الضيـاع العقلـي والأخلاقـي، قـد وجـد الراحـة أخيـرًا فـي الحظيـرة القديمـة؟ لـم أعـرف التفسـير قـط، ولا عرفتـه هـي أيضًـا علـى الأرجـح.

لكنها عرفت أنها وجدت ما أرادت. لقد تمكنت في النهاية من الكلام عن تشارلز، واستطاعت الاعتراف بخطيئتها، واستطاعت أن تنال الغفران عليها. لما انتهى أمر دعوات العشاء ولعب الورق والأحاديث، أي حاجز أكثر نعيمًا تضعه أمام الوحدة؟ كانت كل حياتها، حتى الآن، استعدادًا طويلًا لتلك الساعة اليومية من العزاء والانفتاح. ثم هذا الزائر الرحيم، الذي فهمها جيدًا، يمكنه أن يحكي ما قالته عن تشارلز، إذ عرف مكانه وشعوره، وأي مجاملات غريبة يومية يمكن قولها له، وأنها بعد زوال كل الاستحقاق تأمل أخيرًا أن تصل إليه. لم تبد السماء غريبة، بالغة الوضوح في كل مرة أراها في أثناء أسابيع موتها البطيء، كانت يومًا بعد يوم أشبه بمسافر وقد يممت وجهها صوب الديار، لكنها في الآن نفسه عزمت أن تنتظر استدعاءها. لم يعد البيت وحيدًا، ولا تلك الكتب التي نظرت إليها طويلًا بوجوه ملؤها العداء، اثنان أو ثلاثة (كانت دومًا قرب فراشها) تحوي رسائل من العالم الذي ينتظرها فيه تشارلز.

وهكذا مستعدة ومهتدية، رحلت إليه يومًا.

النهاية

مكتبة ياسمين
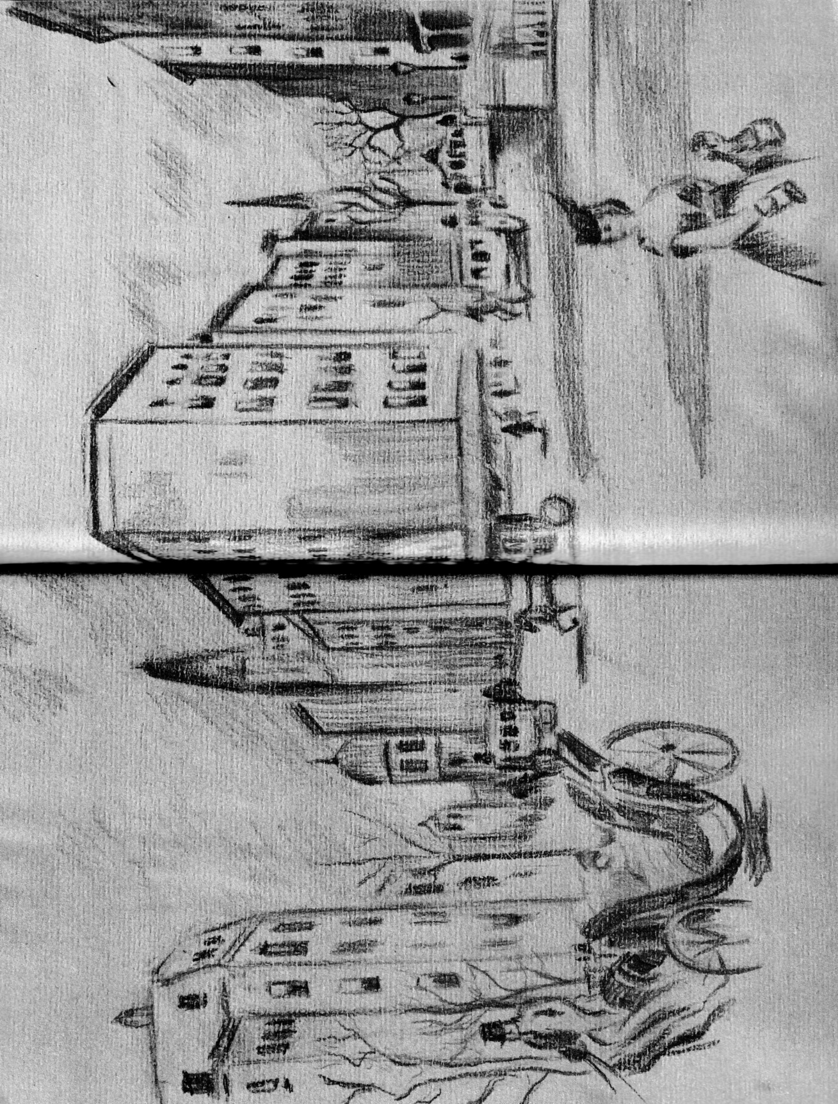
t.me/yasmeenbook